الفوز بالسعادة

تأليف
برتراند راسل

ترجمة
سمير عبده

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

الفوز بالسعادة

تأليف

برتراند راسل

ترجمة

سمير عبده

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

هــٰذِه تـَرجَمَة لكــتاب

The Conquest of Happiness
By
Bertrand Russell

١٩٨٠

تصدير المؤلف

لم يكتب هذا الكتاب للقراءة فقط ، ولا لأولئك الذين يهتمون بالمسألة العملية فقط كشيء ذي قيمةٍ ، ولا للكُنهِ الفلسفي او للتعمُّقِ في النقاش الذي سنطالعه في الصفحات التالية ، بل ، كل ما اتوخاهُ هو وضعُ النقاط على الحروفِ بما يوحي الي بأن ما اتوقعه هو الشائعُ ، وكل ما اعلنُهُ هو للتوصلِ الى عرضٍ للقاريءِ بأن مثل هذه القضايا موضحةٌ لي بالاستناد الى اختباراتي وملاحظاتي الشخصية ، وهي التي تعملُ على ضمانِ سعادتي حيثما عملت لمطابقتِها . وإني لأجازف متأملاً في هذه البلاد بأن بعضَ أفرادِ الجمهورِ من الرجالِ والنساءِ الذي يعانون الشقاءَ بدون لذةٍ ، ربما يجدون تحَسنَ حالتِهم بتمييزِهم للأسلوبِ والاستدلالِ الى الاقتراح المناسب . وذلك في الأعتقادِ بأنَ أكثرَ الناسِ التعساء يمكن ان يصبحوا سعداءَ بالتوجيه الملائمِ الذي يعرض لهم فيما كتب بهذا الكتاب .

برتراند راسل

عالم السعادة بين الحقيقة والخيال

بقلم الاستاذ : بشير زهدي
استاذ علم الجمال ـ قسم الفلسفة
جامعة دمشق

يعتبر موضوع (السعادة) من أجملِ المواضيع التي عالجها الكتابُ والمفكرون ، وتحَدثَ عنها القصصيون والروائيون ، وتغنى بها الشعراءُ ، وترنم بها الأدباءُ ، وقد تنافسوا في حسنِ اختيارِ العناوين المحببةِ الى القلوب ، القريبة من الافهام ، المثيرة للانتباه مثل : (مبادىء عن السعادة) و (اسباب السعادة العامة) و (رسالة عن السعادة) و (افكار عن السعادة) و (سعادة الانسان في هذه الحياة) . كما انصرف القصصيون والروائيون الى التحدث عن (السعادة) على لسان ابطال قصِصهِم ورواياتهم بعدما زين لهم الخيالُ مختلف صورِ الجمال التي من شأنها ان تجعل الحياةَ سعيدةً في (مدينة فاضلة) يخيلِ الينا كأنها في (جزيرة السعادة) او (مملكة الاحلام) او (امبراطورية الخيال) .

وقد لمس الانسانُ ارتياحاً في نفسه باستماعه الى احاديث عن السعادةِ ، ووجد في قراءتِهِ الكتبَ عنها ما يلبي رغبةً عنده ، فازداد شغفا بالسعادة ، وحلما بها ، وتطلعا اليها ، وراح يبحث عنها في مآكله ومشاربه ، وملابسه وأثاثه ، وبيته وبيئته ، واهله وأصدقائه ، وامواله ومجموعاته ، ورحلاته ومغامراته ، وأعماله وسهراته . . . الخ . ولكنه كان يصاب بخيبة الامل ، ويتخيل نفسه في كل مرة كأنه امام سراب خادع ، فيتساءل ببراءة : هل ضللتُ الطريقَ ؟ وتراه يسأل نفسه : وهل من سبيل للوصول الى السعادة التي أنشدها ؟ ثم لا يلبث ان ينضم الى المتفائلين او المتشائمين .

فالمتشائمون هم الذين يظهرون وكأنهم يحملون في أعماقهم بؤس العالم ،

ويشعرون بنتائج خطيئة آدام والجنس البشري كلما تحدثوا عن العصور المظلمة والأزمنة اليائسة التي شهدها النوع الانساني فتناقلت الاجيال أخبارها وتحدث عنها المؤرخون كاشتعال البراكين ، وحدوث الزلازل ، وظهور الطوفان ، ونزول الصواعق ، واندلاع الحروب ، وانتشار المجاعات ، وتفشي الامراض ، واختفاء الحريات ، وسيادة الظلم ، وارتكاب العذاب ، وفرض الاضطهاد . . . الخ . مما دفع المتشائمين الى القول ان من الهزء ان نطلب السعادة في هذا الوجود ،ومن السخريةان نعتقد بحياة سعيدة او غد أفضلَ ، ومن العبث ان نؤمن بحقيقة وجود السعادة . . وأخذ المتشائمون يتساءلون : هل ولد الانسان كي يتألم ؟ وهل وجد كي تتقاذفه المصائب والنوائب ، ويتلاعب به البؤس والفقر ، ويلهو به الحزن والألم ، ويفتك به المرض والحرب ، ويقضي عليه اليأس والعذاب ؟ ولماذا لا يكون السرور من نصيب النوع الانساني ؟ ولماذا لا تزين السعادة حياته ووجوده ؟ . . . الخ . وقد تأثر بعض الافراد بهذه الروح التشاؤمية التي طبعت انتاجهم الأدبي بطابعها ، وعلى سبيل المثال نذكر قول (عائشة التمورية)

أني الفت الحزن حتى انني لو غاب عني ساءني التأخير

ويرى (عبد الرحمن عبد الله) دنيا من الالام فيقول :

وفتحت ابوابي ونافذتي فاذا انا بمسارح الكون
دنيا من الآلام مثلها عمري بكل لواعج الحزن

واعتبر (ابو العلاء المعري) الحياة تعبا فقال :

تعب كلها الحياة فما أعجب الا من راغب في ازدياد

وقد ترك شاعر الزهد (ابو العتاهية) ابياتا يائسة مثل :

لدوا للموت وابنوا للخراب
فكلكم يصير الى تباب

لمن نبني ونحن الى تراب
نصير ، كما خلقنا من تراب

وشبهت مدام (دي بويزيو) السعادة ككرة (نجري وراءها عندما تتدحرج ، وندفعها بأقدامنا عندما تتوقف . . . وحينما يعتزم المرء ان يستريح ويدع الكرة ويبتعد يكون جدا مرهقا) .

وقد خففت الاديان من ثقل (مأساة الانسان الابدية) على كاهله ، وذلك بالتبشير بالايمان في سبيل الحصول على (السعادة السماوية) الخالدة في الدار الثانية . فعلى الانسان ان يضع نفسه دائما في استعداد روحي ، ويبرز رصيده الايجابي في هذا الوجود . وأخذ الانسان المكافح يدعو بأنه يجب ان لا نئن من المتاعب ، ولا نضجر من المصاعب ، ولا نشكو من العقبات ، ولا نترك للسأم سبيلا الينا . فشعر الانسان بلذة الكفاح في ميادين الحياة . واذا كان قد تألم كثيراً فقد وجد في بعض الالام ما جعله يشعر بعظمته وقوته وأهمية وجوده في معركة اثبات الذات . ووجد بعضهم بأن آلام الحياة اذا كانت تجرحنا فانها تشغلنا فتنشط افكارنا ، وتشحذ قوانا ، وان الوجود ليس مظلما كما رآه المتشائمون ، وهو لا يتألف من الموت المخيف والبؤس المظلم كما تصوروا ، حتى ان الموت اذا وصل الى اجسادنا ، فانه لن يصل الى وجودنا الابداعي والخيري والانساني . ومهما قيل في عالمنا فانه يبقى (افضل العوامل الممكنة) و (أقل العوالم الممكنة سوءاً) . وان على الانسان ان (ينسجم مع مواقع الحياة) ويتلاءم مع قانون الوجود ، و (ان يعلم انه قد قذف به في لعبة تدوم طيلة وجوده) .

وأخذ المتفائلون يدعون الى (التفاؤل بالحياة السعيدة والغد الأفضل) ويتفننون في وصف (السعادة الأرضية) فاعتبروا (الحقائق الهامة هي التي تسهم في جعلنا سعداء وان ما ينتهي بنا الى السعادة هو الحق الذي لا يخدعنا) و (ان الفنون الهامة هي التي تسهم في جعلنا سعداء) اما الفلسفة فانها (يجب ان

تهدف الى تحقيق سبل سعادة النوع الانساني ، وان من اهم واجبات الانسان هو ان يكون سعيدا ويتيح الفرص للآخرين كي يكونوا سعداء ، ويسهم في تحقيق سعادة النوع الانساني . وان الحديث عن السعادة لا يعني هروبنا من الواقع ومآسيه وانما يهدف الى تحررنا من تأثيره فينا ، وسيطرته علينا ، واننا اذا كنا نغمض عيوننا ونستمع الى موسيقى جميلة فذلك كي نتمتع بلحظات سعيدة ، فالسعادة قاعدة الحياة وهدفها ومبدؤها ، وهي فينا وبنا ومن أجلنا ، وهي حق من حقوقنا التي لا ينافسنا عليها منافس ، لأن الانسان خلق كي يكون سعيدا ويسهم في تحقيق السعادة للنوع الانساني ، وان الطبيعة تهدف الى اسعاد الانسان .) .

●●●

وللسعادة سبل عديدة تؤدي اليها وتجعل المرء يعيش في فردوسها وينعم في نعيمها ، فهي في العمل الجدي الذي نحبه ويسعدنا ويتيح لنا ان نقدم انتاجنا الى الآخرين مقابل ما يقدمونه الينا ، وهذا العمل المفيد لا يسبب لنا اي تعب مهما طال أمده ودامت مدته ، لهذا من المستحسن ان نحسن اختيار مهنتنا وفق ميولنا الشخصية ومواهبنا الفطرية ، وذلك كي نعمل برغبة ،ونبتكر بشغف ونبدع بنجاح مما يجعلنا نشعر بالسعادة الحقيقية اذ ان أسعد الناس أشغلهم وأنجحهم .

والسعادة هي في البذل والعطاء ، والتضحية والفداء . والتعيس هو المخلوق الجبان والبخيل الذي يعيش حرمان الفقراء والمعوزين ولكنه عندما يموت يترك تركة اغنياء وارث الموسرين . وان شمس السعادة تغرب من سماء حياتنا فور شعورنا بجفاف حياتنا ونضب عطائنا .

والسعادة هي في ممارسة الفضائل ، والتحلي بالأخلاق . فلا بد كي نعيش سعداء من ان نتعهد في انفسنا الفضيلة ونحرص على اتباع المبادىء الاخلاقية . ونعيش العيشة الطبيعية التي من شأنها ان تضمن لنا الطمأنينة والحياة السعيدة .

وان نحسن سلوكنا واخلاقية افكارنا مما يجعلنا جديرين باحترام الآخرين ، وراحة الضمير والسعادة التي نحلم بها . واننا ننال باستقامتنا وعدالتنا ، وعفتنا ونزاهتنا ، وعفونا وحلمنا قدرا من السعادة اكثر مما يناله من زلت به القدم وضل الطريق وانجرف في انهدام اللذات ، فالضمير الانساني خير دليل الى السعادة والصفاء الروحي ، والهدوء النفسي اجمل دليل عليها .

والسعادة هي في شعور الانسان بانسانيته وحرصه عليها واعتزازه بها ، مما يمنحنا الشعور بالسعادة العامة ويحقق لنا رغبتنا في تحقيق سعادة النوع الانساني . وان مكافأة الود بالود ، ومبادلة الاحسان بالاحسان ، مما يتيح للنوع الانساني ان يتذوق شهد السعادة الحقيقية اذ ان السرور الذي نفوز به مشتق من السرور الذي نبعثه في افئدة الاخرين . ومن أشعار محمد اقبال في ذلك قوله :

لم ألق في هذا الوجود سعادة كمودة الانسان للانسان

والسعادة هي في التحرر من الشعور باليأس ، والتخلص من الافكار السوداوية ، والابتعاد عن التفكير التشاؤمي ، . فالسعادة هي الهدف الذي نسعى الى تحقيقه فمن السخف ان يخشى المرء الشيخوخة التي ليس الوصول اليها اكيدا ، او يشكو من الم بسيط اعتراه في الوقت الذي لا يشعر فيه بالسعادة الحقيقية التي يعيش في فردوسها ويقيم في نعيمها . فيجب ان لا نترك للتذمر والضجر ، والسأم والملل ، سبيلا الى نفوسنا ، فليست كأس الحياة مترعة بالشقاء وليست مملوءة بالمرارة ، وان في مواجهتنا لاحداث الحياة وكفاحنا في مختلف ميادينها ما يحقق لنا أن ننعم بالنصر وسعادة الحياة .

والسعادة هي في نظرتنا التفاؤلية الى الحياة ، لأن التشاؤم يحجب عنا جمال السعادة ويجردنا من حلاوة الحياة ، ويجعل المتشائم كالضرير الذي يعيش في الظلام مع انه في رابعة النهار . فالتفاؤل هو فلسفة الحياة السعيدة في حاضر سعيد ومستقبل مشرق وغد أفضل .

والسعادة هي في شعورنا بما نتمتع به من صحة وقوة جسمية وعقلية واهتمامنا بكل ما من شأنه أن يجعلنا أحياء أقوياء نفيض نشاطا وحيوية ، ومرحا وفرحا . وننعم بنعمة الاحساس والتأمل والتفكير .

والسعادة هي في احياء ذكرياتنا الجميلة في حياتنا السعيدة بتجديدها واغنائها واهمال همومنا ونسيانها كي نتغلب عليها ونتحرر من سيطرتها علينا ، وتأثيرها فينا ، وتعكيرها صفونا . فاذا كانت اعباء الحياة ثقيلة في واقعها فمن الحكمة ان لا نجعل عقولنا تنوء بأثقالها . والسعادة هي الحياة الواقعية لأن الافراط في التفكير بمستقبلنا قد يحرمنا لذة التمتع بسعادة حاضرنا . كما ان ترك الماضي القريب او البعيد يتحكم فينا او يسيطر علينا قد يجردنا من السعادة في حاضرنا .

وأخيراً وليس آخرا ، فان السعادة هي في الحياة الطبيعية والبساطة المقبولة والسلوك الاخلاقي لأن التصنع والزيف والخداع اذا حققت لصاحبها (السعادة المزيفة) فانها ستعاقبه بالندم وخيبة الامل فور اكتشاف زيفها .

●●●●

واذا كانت فلسفة كل جيل هي نتيجة ما يعانيه من ازمات نفسية وأحداث عالمية فان الجيل المعاصر يشعر بقلق وجودي ، وخوف دائم ، واضطراب مستمر ، وسأم حياتي . وقد انعكست هذه الأمراض النفسية في قسم من الانتاج الادبي والفني والفكري . كما نتج عنها بعض الانحرافات السلوكية ، وكآبة النظرات الحياتية ، لهذا لا بد من تحرير الانسان من القلق لأنه الشيء الوحيد الذي يقلقنا وجوده ، والقضاء على الخوف الذي يخيفنا بقاؤه ، والتخلص من الاضطراب الذي يعكر علينا سعادة حياتنا ، والتغلب على السأم الذي يشل طاقاتنا الابداعية .

وان الجيل المعاصر بحاجة ماسة الى كل ما من شأنه ان يحقق له الطمأنينة في حياة سعيدة . وان رجال الفكر والعلم والادب والفن مدعوون الى الاسهام في

تحقيق السعادة العامة للنوع الانساني . واذا كان المؤ رخون القدماء قد اتخذوا قوة الملوك والقواد والجنود مقياسا لتقدم شعوبهم وسيطرتها فان المؤ رخين المعاصرين لا بد ان يتخذوا (سعادة الفرد) مقياسا في تصنيف الدول . واذا كانت جبهة الثقافة قد اتسعت ، وميادين المعرفة قد تعددت ، ووسائل الدمار قد ازدادت . . . فان مما يؤ سف له عدم اهتمام أحد بدراسة السبل المؤ دية الى سعادة الانسان المعاصر الذي بدأ يشعر بوجوده في (معركة تخلف انساني) ، وأخذ يتمنى لو كانت الحروب تشن على الفقر والمرض ، والجهل والتخلف ، والبؤس والألم ، فهل تصبح امنية اليوم حقيقة في الغد القريب ؟ .

●●●

لقد سررت كثيراً عندما أخبرني الصديق الاستاذ سمير عبده عن انهائه ترجمة كتاب (الفوز بالسعادة) للمفكر الانساني الكبير (برتراند رسل) الذي نال احترام واعجاب وشكر كل انسان وذلك لاهتمامه بسعادة النوع الانساني . فشكرا للمفكر الكبير وشكرا للمترجم الاديب اللذين اتاحا للقارىء العربي فرصة قراءة الصفحات التي تسهم في تحقيق امنيته في حياة سعيدة وغد افضل .

مقدمة المترجم*

وظيفة الفلسفة الحقيقية ليست هي تفسير العالم ، لأن الجزء لا يستطيع قط أن يفسر الكل ، بل وظيفتها أن تهدينا في بحثنا عن السعادة . ليس الذي نضعه نصب أعيننا هو مجموعة من النظم والآراء التي لا جدوى منها ، بل الذي علينا أن نعنى به هو الحياة البريئة من كل نوع من أنواع الجزع والاضطراب . والسعادة كلمة غامضة قال بعضهم في حدها : انها حالة يتمنى المرء دوامها بغير تغيير . وقال مارتين :السعادة طيب لا تستطيع ان تضمخ به غيرك دون ان تنهال منه قطرات عليك . ومما لا ريب فيه اننا لو استطعنا ان نجد أنفسنا في حالة من الجسم والفكر بحيث يخطر ببالنا أن نتمنى دوامها ـ لما هي عليه من الجمال ـ لكنا حتما سعداء . ولكن هذا الدوام ـ بغير تحول أو تغيير . ـ لا يمكن ان يكون مفهوما أو مقبولا اذا كانت كلمة (حالة) تنصرف الى مجموع الظواهر التي تشغل ـ في وقت معين ـ ضمير الكائن الحي اذ كيف يكون الزمن غير متغير ؟ وكيف يقف فعل التحول في الوقت الذي يكون فيه كثير من العناصر المكونة لهذا الكمال معرضة للتلف والزوال ؟ .

فالكائن الحي نفسه يفنى ويزول ، والموسيقى مثلا مصيرها الى الصمت

(*) شاءت الظروف ان يتأخر اصدار هذا الكتاب ستة عشر عاما ، فقد كلفتني دار مكتبة الحياة ترجمته الى اللغة العربية في اوائل عام ١٩٦٤ ، ومعظم ترجماتي في تلك السنوات انصبت على مؤلفات برتراند رسل السياسية والتربوية . ولئن جاء متأخراً نشره هذه السنوات الطوال ، فقد بقيت مؤلفات رسل في طليعة ما يطلبه القارىء العربي منها ، واعادت الدار طباعة الطبعة الثانية من « التربية والنظام الاجتماعي » و « في التربية » .

سمير عبده

عند انتهاء الدور ، ولكل كتاب نقرؤه نهاية ، فمن المحال اذن ان نلمس الثبات لما هو بطبيعته متحول زائل .

فيجب اذن أن نقسم العناصر التي تتكون منها السعادة ، ونرى مسبباتها والعوامل الواقفة في طريقها ، ولهذا قسم مؤلف هذا الكتاب كتابه الى قسمين ، تناول في القسم الاول اسباب التعاسة ، اي العوامل المعرقلة للسعادة . وفي القسم الثاني تناول اسباب السعادة ، مبينا العوامل التي تكفل للانسان أن يتمتع بسعادة حقيقية في حياته . والسعادة هنا ليست هي الحوادث ولا الملذات ولا المناظر ، وانما هي حالة نفسية تطبع الحوادث بطابعها الخاص ، فان الأمنية بالدوام تنصرف حينئذ الى هذه الحالة النفسية لا الى الحوادث . اذن هذه الحالة النفسية الداخلية هي وحدها التي تسبغ على المناظر الخارجية تلك التغييرات العجيبة وتلبسها رداءً زاهياً في أعيننا وتلقي عليها ضوءاً قويا بحيث يتعذر على الرجل السعيد أن يرى هذه السعادة بعينه .

ان كل امرىء يحمل في نفسه شخصيتين متناقضتين وكل شخصية منهما تسعى الى مصلحة لا تتفق مع مصلحة الشخصية الاخرى ، فهما اذن في نزاع دائم مستمر . فأنت مثلا باعتبارك رجلا تعيش في الهيئة الاجتماعية مكلف بواجبات والتزامات نحو الجماعة وهذه الواجبات قد تراها انت ـ بصفتك فردا مستقلا ذاتيا ـ ثقيلة غير مقبولة فتسعى جهدك للتخلص منها في سبيل منفعتك الذاتية . فانت اذن غيري ونفعي في وقت واحد ، انت كائن اجتماعي لا تستغني عن الجماعة ولكنك في نفس الوقت فرد ذاتي تسعى الى ضرر الجماعة في سبيل فائدتك الخاصة . فأنت تجمع بين البهيمية وبين الروح المفكرة ! فالتوفيق بين مصلحتين متناقضتين لشخص واحد ، قد يكون في أغلب الحالات متعذراً . وينشأ من هذا الدفع والجذب احتكاك بين اعمالنا وضمائرنا ، وهذا كله يؤدي الى حساب عسير مرهق .

وعلى هذا الاساس قال سقراط اذ تكلم عن السعادة : اعرف نفسك أولا .

والواقع ان الرجل الذكي لا يستطيع ان يصل الى الصفاء والسعادة الا اذا استرد من بين افكاره المهيئة والقابلة للتبديل ، ميوله وذكرياته التي تشعره بالفكر .

وهناك مخاوف مشروعة ويلزم الاحتياط لها . فمثلا اذا رأيت سيارة تمر كالبرق الخاطف في طريقك . فمن المحتم عليك ان تخشى على حياتك وتتخذ الاحتياط اللازم لمنع وقوع الخطر . كما ان الشعب الذي لا يتوقع الخطر من جاره المسلح والمستعد للاعتداء يصبح اسيرا مستعبدا اذا هو لم يتخذ الحيطة لمنع هذا الاعتداء . ومثل هذه المخاوف تخرج عن نطاق بحثنا . اننا نشير فقط الى تلك المخاوف والاخطار التي نخلقها لانفسنا بمجرد الوهم والخيال . مثال ذلك أن يتصور الشخص - بغير مبرر - انه مصاب بميكروبات معدية وامراض فتاكة وانه اذا لم يحتط لنفسه من كل أكل أو كل حركة يتحركها فمصيره الى الموت العاجل . مثل هذا الخوف من الموت يؤدي حتما الى الموت .

فنحن نحكم على المستقبل احكاما خاطئة اذ نتصور في اذهاننا حوادث مؤلمة لم تقع لنا وانما وقعت لغيرنا ولا نعرف مقدار تأثيرها في نفوسهم ، والحياة شاقة فما معنى ان نزيد بوهمنا من مشقتها وعنائها ؟ .

والملل لا يشقي الا طبقة الاغنياء الذين ليس لهم عمل . فالرجل - او المرأة - مهما كد وتعب في سبيل الكسب لا يسأم الحياة ولا يشعر بالملل وضيق الصدر ، وذلك لأنه يخلق بعمله وسيلة لذته . اما الغني العاطل فهو لا ينتج شيئاً يجد فيه تسليته ، وهو يتوقع اللذة فيما يمر عليه من صور الحياة التي لا بد له فيها . والمعروف ان الرجل العاشق يحب مهزلة الحب لانه هو نفسه يحياها حقا . ولكن متى كان الدور الذي يقوم به المرء في الدنيا منحصرا في مجرد المشاهدة دون ان يكون له في ناحية أخرى دور عملي يقوم به بنفسه فان الملل عندئذ يرصده ويفتح له ابوابا من الوهم والخيال يخرج منها الى ذكريات حول الماضي والى ما وقع فيه من اخطاء ثم الى مخاوف حول المستقبل المجهول .

هذه هي الخطوط العريضة لفلسفة رسل في كتابه (الفوز بالسعادة) الذي هو بين أيدي القراء . آملاً أن أكون قد وفقت في ترجمته الى اللغة العربية .

آذار ١٩٦٤

سمير عبده

اتمنى لو استطيع ان اعيش مع الحيوانات ، فهي رابطة الجأش وقانعة بذاتها

اقف واتأمل فيها ملياً

فلا أراها تشعر عن حالتها بعوائها

ولا تستيقظ في الظلام ولا تبكي خطاياها

ولا تمرضني بمناقشة واجبها تجاه الله

وليس بينها ناقم ولا من ابتلى بالهوس في اقتناء الاشياء

ولا بينها من ينحني للآخر ولا لجنسه الذي عاش قبل الاف السنين

ولا بينها محترم ولا تعيس فوق سطح الأرض

والت ويتمان

القسم الأول

أسباب التعاسة

الفصـــل الأول
ما الذي يشــقي الناس؟

تكون الحيوانات سعيدة ما دامت تتمتع بالصحة ، وتجد ما يكفيها لتأكل . وشعور البشر ينبغي ان يكون هكذا ايضا ، الا انهم في العالم الحديث ليسوا سعداء في غالب الأحيان على الاقل . فان كنت شخصا تعيساً فلعلك مستعد ان تعترف انك لست الوحيد في ذلك . وان كنت سعيدا اسأل نفسك كم من اصدقائك هم هكذا ، وعندما تستعرض اصدقائك علّم نفسك فن قراءة الوجوه ، وتصفح من تقابلهم في يوم عادي كي تتعرف على حالاتهم النفسية .

السمة في كل وجه اقابله
سمة الضعف ، سمة الكآبة

كما يقول بليك ، ومع أن التعاسة تختلف ، فانك ستجدها تقابلك في كل مكان . دعنا نفترض أنك في نيويورك ، أحدث المدن العصرية الكبرى . قف في شارع مزدحم خلال ساعات العمل ، او بطريق عام في نهاية الأسبوع ، او في مكان للرقص عند المساء ، تصور كل هؤلاء الناس وفكر فيهم فرداً فرداً ، تجد ان كل فرد من هؤلاء الناس له مشاكله الخاصة ، كما انك سوف تجد في ساعات العمل المزدحمة القلق الزائد والتركيز الشديد ، وسوء الهضم ، وعدم الاهتمام بأي شيء سوى النضال والعجز عن اللعب ، وعدم الشعور برفاقهم من المخلوقات البشرية . وعلى الطريق الرئيسي في نهاية الاسبوع سترى الرجال والنساء كلهم من الميسورين تماما ، وبعضهم اغنياء جدا مشغولين في السعي وراء اللذة والبهجة . وهذا السعي يقومون به جميعهم في سرعة متشابهة ، هي

سرعة ابطأ سيارة في الرتل الطويل ، ويصعب عليك رؤ ية الطريق من كثرة السيارات ، كما يصعب عليك ان ترى المنظر عن جانبك لأن الالتفاتة الواحدة قد تفضي لوقوع كارثة . وجميع من يشغلون السيارات تأخذهم رغبة تجاوز السيارات الأخرى ، وهو ما لاسبيل اليه في معظم الاحيان لشدة الزحام ، واذا شرد تفكيرهم بعيدا عن شواغلهم هذه ، وهذا ما يحدث في بعض الاحيان ممن يتولون القيادة بأنفسهم ـ استولى عليهم الضجر وطبع طابعه على ملامحهم . ان مرور سيارة تنقل الملونين وعليهم سمة الاستمتاع الحقيقي قد تسبب احتقارا من السلوك الخاطىء عندما تقع في النهاية في قبضة الشرطة بسبب حادث . فالاستمتاع بوقت العطلة هنا شيء غير مشروع .

راقب الناس في مرة ثانية في امسية زاخرة ، ترى الجميع جاءوا ليسعدوا ، وعلى وجوههم سمة العزم الحاد ، كالذي يرتسم على وجه من صمم على ان يتحمل اوجاعه عند طبيب الاسنان بلا ضجة . ومن المسلم به ان الشراب والزهو هما أقرب الطرق الى السرور ، وهكذا ترى الناس يسكرون بسرعة . ويحاولون ان يلاحظوا مدى مقتهم من رفاقهم . وبعد تجرع كمية وافرة من المشروب ، يشرع الرجال في البكاء ويندبون حظهم التعيس . ويعود ذلك لعدم جدارتهم وجدانيا بحب امهاتهم ، وكل ما يصنعه الكحول لهم اطلاق الاحساس بالاثم ، وذلك الاحساس الذي يغفله العقل في اوقات صحوهم .

واسباب تلك الانواع المختلفة من التعاسة يعود بعضها الى النظام الاجتماعي ، كما يعود الى علم النفس الفردي ، الذي هو الى حد بعيد ثمرة النظام الاجتماعي . وكنت قد كتبت سابقا عن التغييرات في اسلوب المجتمع والمطلوب لتنمية السعادة ، وفيما يخص التصرف في الحرب الاقتصادية غير الطبيعية ، فالتربية في البؤس او الخوف ليس من هدفي التحدث عنها في هذا المجلد . ومن الضروري والحيوي لحضارتنا الكشف عن طريقة لتجنب الحروب ، ولكن لن تسنح الفرص لمثل هذا الطراز حين يكون الناس تعساء ، بينما الفناء المشترك يظهر لهم اقل بشاعة من مواصلة تحمل ضوء النهار . ومنع تأييد الفقر ضروري اذا اريد لمزايا ارباح الانتاج الآلي ان تصل بأية نسبة لأولئك

الذين هم بحاجة ماسة اليها ، ولكن ما الفائدة من اغناء جميع النـاس ما دام الاغنياء انفسهم تعساء . ان التربية المحفوفة بالطغيان والخوف سيئة ، ولكن لا سبيل لنوع آخر من التـربية اذا كان القائمـون بهـا هم انفسهـم عبيدا لتلك الافكار . وهذه الاعتبارات تقودنا لمشكلة الفرد ، فما الذي يستطيع الرجل او المرأة هنا في وسط مجتمعنا المريض أن يعمله للحصول على سعادته او سعادتها . ومن خلال بحثي لهذه المشكلة سأحصر اهتمامي في هؤلاء الذين لا يعانون من أي سبب خارجي للتعاسة . وسأفترض دخلا كافيا لتأمين الطعام والمأوى . وما يكفي من الصحة الجيدة ليتمكن الجسد العادي من العمل بنشاط ، وسوف لا اعير الاحزان العظيمة كفقدان جميع الاولاد او التعرض للعـار ، حيث هنـاك اشياء تقال عن مثل هذه الامور وهي اشياء هامة ، ولكنها تختلف عما اريد قوله في هذا الكتاب الذي وضع له ان يعالج تعاسة الحياة اليومية التي يشكو منهـا معظم الناس في الاقطار المتمدينة ، والذي اغلبه لا يطاق مما يمكن تحمله لانه لا يرجع الى سبب ظاهري بارز ، ولذا صعب التخلص منه ويظهر انه لا يمكن تجنبه . واعتقد ان هذه التعاسة عائدة بصـورة عامـة الى النظـرة الخاطئـة عن العالم ، والى الدراسة والتقاليد الخاطئة للحياة التي تقود لتقويض تلك المتعة الطبيعية والقابلية الممكنة للاشياء التي ترتكز عليها الكائنات ، سواء عند البشر او الحيوانات . هذه امور تقع ضمن متناول قوة الفرد ، وسأقترح تعديلات قد تفضي الى تحقيق هذه السعادة مع توفر حسن الحظ بمحوره العادي .

ولعل افضل استهلال للفلسفة التي ارغب في الدفاع عنها هي بضع كلمات تلخص سيرتي الذاتية . فأنا لم اولد سعيدا . وكطفل كانت ترنيمتي المفضلة (تعبت من الأرض واثقلتني الخطايا) . وفي سن الخامسة ادركت انني ان كنت سأعيش حتى السبعين ، فمعنى هذا اني لم احتمل حتـى الآن الا جزءاً من اربعة عشر جزءاً من حياتي كلها ، وشعرت بحمل ثقيل يمتد امامي لا يمكنني حمله ، وفي سن المراهقة كرهـت الحياة ، وكنـت في احيان كثـيرة على وشـك الانتحار ولم يردعني عن هذا الا رغبتي في معرفة الرياضيات . وامـا الآن

فعلى العكس استمتع بالحياة ، واود غالبا أن أقول في كل عام يمر بي ، ليتني تمتعت به اكثر من غيره ، وهذا عائد من جهة لاكتشافي ماهية الاشياء التي ارغب بـها جدا، وقـد توصلت تدريجيا للكثير مـن هذه الاسياء. كما انها عـائدة الى انني نبذت بنجاح بعض اهداف الرغبة ، مثل الحصول على معرفة لا يتطرق اليها الشك بصدد امور معينة لا يمكن ادراكها اساسـا . الا انهـا عائـدة كليا لتناقض انشغالي بنفسي ، مثل سواي ممن عندهم تربية تطهـيرية . فقـد كان عندي عادة التفكير في اخطائي وفشلي ونقائصي ، وكنـت اظهـر لنفسي بحـق مخلوقا تعساً اذ كنت اركز اهتمامي المتزايد على الموضوعات الخارجية مثل حالـة العالم ، وفروع متباينة في المعرفة ، وعلى افراد شعرت لهم بالاعزاز والمودة ، والاهداف الخارجية هي في الواقع لها آلامها المحتملة ، فالعالم يمكن ان يغرق في الحرب ، والمعرفة في بعض الاتجاهات يمكن الحصول عليها بصعوبة . قد يمـوت الاصدقــاء ، ولــكن الالام من هذا القبيل لا تدمــر كيفية الحياة الاساسية ، كما تدمرها الخيبة من الذات . وكل اهتمام خارجي يوحي بنشـاط معين يذود عنا الملل ما بقي الاهتمام متوقداً ، اما الاهتمام بالـذات فيكون على العكس من ذلك ولا يقود الى اي نشاط تقدمي . وربما قد تتوصل الى كتابـة يوميات وتوجه المرء الى محلل نفسي ، او الى الانخراط في سلك الرهبنة ، ولكن الراهب لن يكون سعيدا الا متى جعله روتين الدين ينسيه نفسه او روحه . فالسعادة التي نسبها الى الدين كان في وسعه الحصول عليها ولو احترف كنس الشوارع ، بحيث يمكن اجباره على الاستمرار في هذه الحرفة . فالانضباط هو السبيل الوحيد لسعادة اولئك التعساء الذين يحول عمق استغراقهـم في ذاتهـم دون علاجهم بأي طريق آخر .

ان الاسـتغـراق النفسي يكون على انــواع مختلفــة بامكاننــا ان نأخــذ منها : الخاطىء sinner عشق الذات narcissist جنون العظمة megalomaniac ،

(*) عشق الذات او النرجسية Narcissist : نسبة الى نرجس في الاسطورة الاغريقية القديمة والذي وقع في حب خياله حين تراءى له في مجرى ماء ـ المترجم .

والثلاثة من اشكال مألوفة عندنا .

عندما اتكلم عن الخاطىء لا اعني الانسان الذي يرتكب الخطايا ، فالخطايا ترتكب من قبل كل انسان او لا ترتكب وذلك وفقا لتعريفنا للكلمة . اي ان الشخص الذي يستوعب في وجدانه الخطيئة فهذا الشخص واقع بصورة مستمرة في عدم رضاه الذاتي ، فاذا كان متديناً فسرها بعدم رضى الله عليه ، فلديه صورة على نحو ما ينبغي ان تكون في نزاع مع معرفته عن نفسه . واذا كان قد نبذ بفكره الواعي منذ امد طويل الوصايا التي تعلمها وهو في احضان امه ، فقد يكون احساسه بالخطيئة دفينا في اعماقه لا شعوره ، ولا يبرز الا عندما يسكر او وهو نائم . ولكنه مع هذا كاف لانتزاع النكهة من كل شيء ، لانه في باطنه لم يزل ثقيلا لكل المحرمات التي تلقاها في طفولته ، فالسباب والسكر والحلفان رذيلة ، والحصافة العادية في ممارسة اعمال الجنس رذيلة . وهو بالطبع لا يمتنع عن اي شيء من هذه الملذات التي هي جميعها مضرة له ، حيث يشعر انها تحط من كرامته . واللذة الوحيدة التي يرغبها بكل جوانحه ان تدلله امه وترضى عنه على الصورة التي بمخيلته لتدليلها ورضاها في طفولته . وهذه اللذة لم تعد متاحة له ، ولهذا لم تعد للاشياء وزن لديه ما دام لا بد ان يأثم فليأثم باستغراق . وعندما يقع في العشق يبحث عن حنان أمه ، ولكن لا يتمكن من تقبله ، لانه بسبب صورة الام لا يشعر باحترام نحو امرأة كانت له معها علاقات جنسية ، ولذا تدفعه الخيبة او السقوط الى القسوة ، ومن ثم يندم على قسوته ويبدأ من جديد في دائرة الحزن من تخيله الاثم وندمه المؤلم الحقيقي . هذا هو التحليل النفسي الظاهري للعديد من قساة المجرمين . وان ما يقودهم في طريق الخطيئة ، هو تعلقهم بهدف لم يتمكنوا من الوصول اليه(الام او من يحل مكانها) مع التشبه في الطفولة بمجموعة انظمة اخلاقية سخيفة . ان التحرر من طغيان المعتقدات القديمة وتأثيرها الباكر هو الخطوة الاولى نحو سعادة هؤلاء التعساء ضحايا فضيلة الامومة .

أما عشق الذات فهو حاسة معاكسة لحاسة الخطيئة العادية ، انه عبارة عن

عادة الاعجاب بالذات والرغبة في الظفر بالاعجاب من الآخرين . وهذه الغاية الى حد ما عادية ولا تصل الى حد التعاسة الا في حال زيادتها حيث تصبح شر محزن . هذا الشعور نراه في اكثر النساء ولا سيما طبقة النساء الثريات حيث الشعور بالحب ناضب تماماً،ويحل محله رغبة قوية في وجوب ان يحبهن جميع الرجال . وعندما تتأكد المرأة التي من هذا الصنف ان رجلا ما يحبها ترى ان لا فائدة من حبها له . ويحدث نفس الشيء بصورة أندر لدى بعض الرجال ، والنموذج الكلاسيكي في ذلك بطل (العلاقات الخطرة) ومتى وصل الغرور الى هذا الحد لم يعد هناك اهتمام حقيقي بالطرف الاخر ، وبالتالي لم يعد هناك اي امتناع حقيقي للحصول عليه من الحب . بل ان اهتمامات اخرى تذهب سدى لدى النرجسي اكثر مما يفشل الحب ، فالنرجسي الذي يرى الشهرة التي تصاحب مشاهير الرسامين ، قد يندفع ويغدو دارساً للفن ، ولكن بما ان الرسم بالنسبة اليه هو مجرد وسيلة لغاية ما ، لذا لن يهتم بالتقنية ولن يرى شيئاً ذا اهمية ولا موضوعاً الا من خلال علاقته بذاته . والنتيجة في ذلك هي الفشل وخيبة الامل مع التناقضات التي تصاحب النتائج . وينطبق نفس الشيء على الروائيات التي تدور رواياتهن حول بطلات هن صورة طبق الاصل لانفسهن . ان النجاح الاصيل يتوقف على الاهتمام الصادق الاصيل بالمادة التي يتعلق بها هذا العمل . ومشكلة الانسان الناجح هي الاستعاضة التدريجية بالنرجسية عن الاهتمام بالمجتمع وبالاجراءات والتصرفات التي يمثلها . فمن يهتم بنفسه فحسب لا يستحق الاحترام ولا يشعر احد انه يستحقه . ومن ثم فالانسان الذي كان طموحه في الدنيا ان يعجب به العالم ليس من المرجح ان يحقق هدفه هذا ، وان نجح فلن يكون سعيدا كل السعادة ، لان الفطرة البشرية لا يمكن ابدا ان تكون تامة التركز في ذاتها ، والنرجسي يحدد نفسه بصورة غير طبيعية على نحو ما يحدد الانسان المصاب بالاحساس بالذنب نفسه واقعياً . لقد كان الانسان القديم يشعر بالكبرياء لكونه صياداً ماهراً ولكونه يتمتع بجهد المطاردة . والنرجسية عندما تتعدى حدها المعين تقتل تمتعها في كل نشاط يمارس لذاته ، وهكذا تقود لا محالة الى عدم الاكتراث والملل . وقد يكون

قصد ذلك كله ضعف الثقة بالنفس ، والعلاج يكون في نمو الاحترام الشخصي ، وهذا يمكن الحصول عليه بجهود ناجحة موحى بها من اهتمامات موضوعية .

اما جنون العظمة فيختلف عن النرجسية بوقائع ، انه يصبو ان يكون قوياً اكثر من ان يكون جذاباً ويبحث في الخوف اكثر مما يحب . ولهذا النوع ينتمي اكثر المجانين كما ينتمي اليه معظم الرجال العظام في التاريخ . وحب القوة مثل الغرور ، عنصر قوي من عناصر الطبيعة البشرية السوية ويجب تقبله على هذا الاساس . ولا يصبح مستهجناً الا في حالاته القصوى ، وحينما يقترن بنقص في الاحساس بالواقع ، ومتى تبين هذا صار الانسان تعيسا او مجنونا ان لم يكن كليهما . ان المجنون الذي يحسب نفسه ملك متوج الرأس قد يكون سعيدا بحاسته ولكن سعادته هذه لن تكون من النوع الذي يرتضيه اي انسان عاقل . وقد كان الاسكندر الكبير × نفسيا كالمجنون مع العلم انه حاز على قوة تحصيل حلم المجنون ، لكنه لم يستطع تحقيق حلمه الخاص شخصيا لان ذلك الحلم كان يتسع مداه كلما حقق منه جانبا . ولما وصل الى ان يكون اعظم فاتح شهير ادعى انه كان الهاً ، فهل كان هذا الرجل سعيداً ؟ اراه في سكره وحنقه الشديد وعدم تمييزه النساء ، وادعائه الالوهية أنه لم يكن سعيدا . فليس هناك اكتفاء اقصى في انماء عنصر واحد من عناصر الطبيعة البشرية على حساب الآخرين كافة ، ولا في النظر الى العالم اجمع كما لو كان مادة غفلا لتجسيم ذات المرء وتضخيمها . وجنون العظمة سواء عن غباء او دراية هو من ابداع انحطاط البشرية المتزايد . وقد كان نابليون ×× يعاني من المدرسة من شعوره

(×) اسكند الكبير (٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق . م) ملقب بذي القرنين . توفي في بابل . تعلم على أرسطوطاليس . تبوأ الحكم الملكي في مكدونيا محل فيلبس أبيه وعزم على فتح امبراطورية الفرس فكسرهم في آسيا الصغرى (ايسوس ٣٣٤ ق . م .) ثم في سواحل فينيقيا (بعد ان حاصر صور سبعة أشهر) ثم في مصر (تأسيس الاسكندرية) أخيراً ضيق على داريوس في العراق فانتصر عليه في أربيل (٣٣١ ق . م) وتابع زحفه الى أطراف فارس وتجاوزها الى ضفاف نهر هندوس . وذو القرنين من أعظم الغزاة وأشجعهم. المترجم .

×× نابليون (١٧٦٩ ـ ١٨٢١) ولد في اجاكسيو . من اشهر قواد الحرب ، خاض عدة معارك . انكسر في موقعة واترلو (١٨١٥) ونفي الى جزيرة القديسة هيلانة وفيها توفي ـ المترجم .

بالانحطاط تجاه زملائه الطلاب الذين كانوا من طبقة الاغنياء والارستقراطيين ، بينما كان هو طالبا فقيرا ، ولما اذن بعودة المهاجرين الى فرنسا نعم برؤ ية رفاقه القدامى ينحنون امام سلطانه بعظمة ، وقد قاده ذلك الى رغبة الحصول على قناعة مماثلة على حساب القيصر ، وهذا قاده الى القديسة هيلانه بما انه ما من امرىء كلي القدرة على ان يكون آلها . فالحياة المحكومة كليا بحب القوة لا بد عاجلا ام اجلا ان تصطدم بعقبات يصعب التغلب عليها . ومعرفة هذه الحقيقة تصون الذات من الاصابة بشكل من اشكال الجنون ، بيد انه اذا كان الانسان عظيما لدرجة ما فسوف يودع السجن او يعدم من يذكرونه بهذا . ان الكبت السياسي والنفسي يتماشى مع بعضه ، وحيث يوجد كبت نفسي بشكل ملحوظ تنعدم السعادة . واذا بقيت القوة ضمن اطارها الطبيعي يمكن ان تقود بصورة كبيرة للسعادة ، اما اذا اصبحت الهدف الوحيد للحياة فلا مناص من ان تؤ دي الى كارثة داخليا ان لم يكن خارجيا .

ان الاسباب النفسية للتعاسة كثيرة ومختلفة الا ان جميعها لها قاسم مشترك . فالانسان المثالي للتعاسة هو من كان قد جرد في شبابه من الاكتفاء العادي واصبح يعتبر قيمة هذا الاكتفاء اكثر من اي شخص آخر ، ولذا فانه اعطى حياته صفة شخصية تحد من متابعة نشاطه الفردى . وهناك تطور ابعد من هذا وهو مألوف جدا في يومنا وملخصه ان الانسان حين يشعر كليا انه مغلوب على امره ولا يبحث عن اي شكل من اشكال الاكتفاء ، ينشد التدمير والنسيان فقط ، وعندئذ تراه اصبح متعلقا بالملذات مدمنا لها ، ولنقل انه يبحث في جعل الحياة محتملة بان يغدو اقل حياة مما كان ، فالسكر مثلا انتحار وقتي ، والسعادة التي يجلبها هي غير ايجابية وايقاف مؤ قت للتعاسة . فالنرجسي ومجنون العظمة يعتقدان ان السعادة ممكنة علما انهم يتبعون وسائل خاطئة للوصول اليها ، اما الانسان الذي يبحث في السكر باي شكل من اشكاله ، فانه قاطع للامل الا في النسيان ، وفي وضعه هذا ، اول شيء يجب عمله اقناعه ان السعادة مرغوب فيها . والتعساءشأنهم شأن من ساء نومهم فخورون دائما بهذه الحقيقة ، ربما

يكون زهوهم هذا مثل زهو الثعلب الذي فقد ذيله ، فاذا كان وضعهم هكذا ، فطريقة علاجهم تكون بأن يشار عليهم كيف ينمون ذيلا جديدا . واعتقد ان اناسا قليلين يختارون التعاسة بارادتهم اذا وجدوا طريقا ليكونوا سعداء . لا انكر ان مثل هؤلاء الناس موجودون ، ولكنهم قلة وليسوا بذات اهمية . لذلك افترض ان القارىء يفضل السعادة على التعاسة ، فاذا كان بأمكاني مساعدته لادراك هذه الامنية فهذا ما لا ادريه ، ومع ذلك فأن المحاولة لا تسبب اي ضير .

الفصل الثاني
التعاسة البايرونية

من الشائع في يومنا هذا كما هو الشأن في فترات عديدة من تاريخ العالم الافتراض بأن العقلاء من بيننا بفضل خبرتهم السابقة اصبحوا على يقين انه لم يبق هناك شيء يستحق العيش من اجله . وهؤلاء الاشخاص الذين يحملون هذه الفكرة هم بصورة عامة تعساء في حياتهم ، ولكنهم فخورون بشقائهم هذا الذي ينسبونه الى طبيعة الكون ويعتبرونه الصفة المميزة للشخص العاقل . وافتخارهم هذا بشقائهم يجعل الناس الذين هم من شاكلة الذين يجرون على نهج السوفسطائيين يشكون في صدق هذا الشقاء ظنا منهم ان الشخص الذي يتمتع بالتعاسة ليس تعيسا حقا ، وهو راي مفرط في التبسيط ، فلا شك ان هناك صلة قريبة بين الشعور بالامتياز والادراك بما يعانيه هؤلاءالتعساء ،ولكنه ليس تعويضا كافيا عن فقدان لذة السرور البسيطة . واني شخصيا لا اعتقد ان هناك اي تفوق عقلاني في ادراك التعاسة . والانسان الحكيم سيكون سعيدا بقدر ما تسمح به الظروف حتى في حال ادراكه بأن التأمل في الكون مؤلم في نقطة ما ، وهنا عليه ان ينصرف الى تأمل شيء آخر ، وهذا ما اود اثباته في هذا الفصل . كما انني في شوق الى اقناع القارىء انه مهما كانت الحجج المضادة فالعقل لا يفرض حظرا على السعادة ، بل اني مقتنع ان اولئك الذين يعزون احزانهم لوجهة نظرهم عن الكون هم تعساء لسبب آخر لا يفطنون اليه ، وهذه التعاسة تفضي بهم الى التخبط في صفات لا تتلاءم مع العالم الذي يعيشون فيه .

وقد عبر جوزف وود كراتش× عن رأي الاميركيين المحدثين في كتاب له اسماه(الطباع الحديثة the modern temper) واما بالنسبة لجيل اجدادنا فقد وضعه على بساط البحث بايرون××، اما العصر القديم فقد حمل لواءه سفر الجامعة في الكتاب المقدس .

ومما يقوله كراتش :

ان وجودنا ضائع وليس لنا مكان في العالم الطبيعي ، ولكننا لسنا آسفين على اننا بشر ، فلخير لنا ان نموت رجالا لا ان نعيش كالبهائم .

ويقول بايرون :

لا توجد لذة يقدمها الكون مثل التي يأخذها .

إن حرارة الفكرة التي تبلغ الذروة تنحدر الى شعور جامد .

اما الكتاب المقدس ، سفر الجامعة ، فقد جاء فيه :

لم نمتدح الاموات الذين ماتوا اكثر من الاحياء الذين هم على قيد الحياة

نعم ، ان افضل كليهما اولئك الذين لم يخلقوا بعد ويروا اعمال الشيطان تحت الشمس . واولئك المتشائمين الثلاثة وصلوا الى قرارات كئيبة بعد استعراضهم مسرات الحياة . السيد كراتش عاش في اكثر اواسط نيويورك الثقافية ، اما بايرون فقد سبح في الجهنميات وكانت له غراميات لا تحصى . واما مؤلف الكتاب المقدس فقد اختلف كليا في تعقبه للسرور اذ جرب الخمرة

× جوزيف ودد كراتش Joseph Wood Krutch من مواليد ولاية تينسي عام ١٨٩٣ ، حصل على الماجستير والدكتوراه من جامعة كولومبيا بمدينة نيويورك ، وكان كراتش في الفترة من ١٩١٧ الى ١٩٢٠ يشغل منصب مدرس اللغة الانكليزية في جامعة كولومبيا .

عمل استاذا بمدرسة الصحافة بجامعة كولومبيا ، كما عمل أستاذا في الأدب الدرامي بنفس الجامعة في الفترة من ١٩٣٧ الى ١٩٥٢ . ألف كتباً عديدة في موضوعات مختلفة ، وكان عضوا في كثير من المنظمات ، كما عمل أيضا لدائرة نقاد الدراما بنيويورك . المترجم

×× لورد جورج بايرون (١٧٨٨ ـ ١٨٢٤) ولد في لندن وتوفي في مسولنغي (اليونان) شاعر انكليزي ذو تأثير عالمي . ساعد الشعب اليوناني في تحرره من تركيا ـ المترجم .

والموسيقى وجميع الانواع الاخرى ، لقد اقام برك الماء مع الخدم من الذكور والاناث ، وخدم ولدوا في بيته ، وحتى في هذه الظروف فان حكمته لم تفارقه بيد انه راى ذلك كله باطلا ، حتى الحكمة باطلة :

(لقد منحت قلبي لمعرفة الحكمة ولمعرفة الجنون والغباء حيث ادركت ان هذا ايضا لتعذيب الروح ، لان المزيد من الحكمة تزيد من الحزن ، ومن يزيد الحكمة يزيد الاسى) ويبدو انه ثقلت عليه فبذل جهود غير ناجحة للتخلص منها(قلت في قلبي هلم امتحنك بالفرح فترى خيرا واذا هذا ايضا باطل) وبقيت له فضيلته (وقلت في نفسي كما يحدث للجاهل سيحدث لي انا ايضا اذا كنت اكثر حكمة . فقلت ايضا هذا باطل فكرهت الحياة لانه رديء عندي العمل تحت الشمس لان الكل باطل وتعذيب للروح) .

قد يكون من حسن حظ الادباء ان الناس لم يعودوا يقرؤون شيء مما كتب منذ زمن طويل ، لانهم اذا اقدموا على ذلك فسيصلون الى نتيجة لما قيل عن برك الماء ، فكتابة الكتب الحديثة تعني بالعقل الكامل وبامكاننا القول ان ما كتب في الكتاب المقدس ليس وحده متاحا للانسان العاقل ولا حاجة لا يراد الامثلة التي من هذا القبيل .

في نقاش من هذا النوع علينا ان نميز بين النمط وتفسيره الجوهري ، اذ لا جدال في ان النمط يمكن تحويله ببعض الاحداث السعيدة اوبوساطة اي تحويل في وضعنا الجسماني ، اما بالحجة فلا يمكن تغييره ، وقد جربت بنفسي كثيرا الحالة التي اشعرتني بالغرور ولم اتخلص منها بالفلسفة ، بل بضرورة الاقدام على العمل . فاذا كان طفلك مريضا فستشعر انك غير سعيد ولكنك لن تشعر بهذا ان كان كل شيء باطل، بل ستشعر ان شفاء الطفل قضية يجب الاهتمام بها بدون اي تقصير اذا كان هناك قيمة لحياة الانسان ام لا . والثري قد يشعر ان الكل باطل ، ولكن ان حدث وفقد ثروته فسيشعر ان وجبته القادمة لن تكون بصورة من الصور بطلالا . وهذا الشعور ينتج ان الشخص يولد بطبيعة الحال لمتطلبات الطبيعة . والحيوان الانساني مهيأ ومتكيف مع مقدار معين من النضال

في سبيل الحياة ، وعندما تتيح الثروة العريضة للانسان العاقل homo sapiens الوفاء بكل رغباته بدون مجهود ،يسبب غياب المجهود ازالة كل عناصر السعادة الضرورية . كما ان الانسان الذي يحصـــل على الاشياء بسهولة والتي لا يشعر من اجلها الا برغبة يسيرة فيها يستنتج ان تحقيق الرغبة لا تجلب السعادة . واذا كان في وضع فلسفي فانه يستنتج ان الحياة الانسانية تعيسة في صميمها ، لان الانسان الذي لديه كل ما يرغب تعيس رغم هذا ، وينسى ان افتقادك بعض الاشياء التي تريدها عنصر لا غنى عنه . وهناك اشياء كثيرة للخلق كما ان في سفر الجامعة حجج ذهنية ايضا :

الانهار تصب في البحر ، بينما البحر ليس بملآن

ليس من جديد تحت الشمس

ليس من ذكر للأشياء السابقة

لقد كرهت كل تعبي الذي تعبت فيه تحت الشمس :

لانني ساتركه للانسان الذي سوف يأتي بعدي .

اذا حاول البعض وضع هذا البحث في قالب الفلسفة الحديثة فانه سيتوصل الى نتيجة كهذه : الانسان لا ينفك يكدح ، والمادة لا تنفك تتحرك ، ولكن لا حصيلة بهذا العناء كله وما ينتج عنه لا يختلف بصورة من الصور عما جرى سابقا . فالمرء يموت وورثته تنهب ثمرة اتعابه ، والانهار تجري الى البحر ولكن مياهها لا تمكث هناك طويلا ، ويدور دولاب الدهر في دائرة لا نهاية لهـا ولا هدف بمقتضاها يولد البشر ويموتون بدون اي تحسن وبدون ان يتحقق شيء يوما بعد يوم وسنة تلو سنة ، ولو كانت حكيمة لمكثت حيث هي . وسليمان الملك× في حكمته ما كان ليغرس اشجار الفاكهة ليتمتع ابنه بثمارهـا . ولـكن كم تبـدو

×سليمان الحكيم : ملك اسرائيل (نحو ١٠٠٨ ـ ٩٧٨ ق . م) هو ابن داود من بتشابع وخلفه . انصرف الى تنظيم المملكة الاداري وتدبيرها الاقتصادي . قام بمشاريع البناء ، ولا سيا بنـاء هيكل اورشـليم . اتصف برجاحة عقله الثاقب حتى اصبح اسمه مرادفا للحكمة . ـ المترجم .

الاشياء مختلفة في ضوء حالة مزاجية اخرى ! أحقا لا جديد تحت الشمس ؟ ماذا اذا عن ناطحات السحاب والطائرات واذاعة خطب السياسيين ؟ وما الذي يعرضه سليمان×× عن مثل هذه الاشياء ؟ واذا كان قد سمع خطاب ملكة سباXXX عبر المذياع لرعاياها عند عودتها من مملكته، الم تكن راحته فيما بين بركه واشجاره عديمة الفائدة . فاذا كان لديه وكالة انباء توافيه بما قالته الصحف عن جمال هياكله وراحة حريمه وافحام مجادليه الحكماء امام منطقه ! أكان حريا عندئذ ان يقول لا جديد تحت الشمس ؟ من الجائز ان تكون الاشياء لاتثنيه كليا عن تشائمه ولكن كان بامكانه اعطائها تعبيرا جديدا . واحدى شكاوى كراتش في وقتنا الحالي هي ان هناك اشياء كثيرة تحت الشمس ، فاذا كان الافتقار الى الجديد وكثرة الجديد باعثين على الضيق على السواء ، فليس من المرجح ان كلاهما هو السبب الحقيقي لليأس . ثم انظر الى كل الانهار التي تصب في البحر تراها مع هذا لم تملأ البحر ، حيث تعود الانهار الى الاماكن التي جرت منها ثانية . ان الناس تذهب الى المنتجعات الصحية الصيفية وفيما بعد يعودون الى الاماكن التي اتوا منها وهذا يبرهن على ان الذهاب الى المنتجعات الصحية ليس عقيما ولا باطلا . ولو كان لمياه الانهار حاسة الشعور لابهجتها هذه الدورة على النحو الذي عبر عنه شيلي في رائعته(السحابة) . واما عن تألم الانسان الغني لانه يترك امواله لوريثه ، فيمكن النظر الى هذه المسألة من طرفين : فمن جهة الوريث نجده يفرح بالميراث ولا يرى فيه نكبة تنزل به ، وكذلك لا يصلح زوال كل شيء اساسا للتشاؤم ، وحتى لو كان ما يحل محل الشيء شيئا اسوأ فيه لكان هناك محل للتشاؤم ، اما ان كانت الاشياء الجديدة افضل من القديمة ، فان سبب ذلك هو التفاؤل . وماذا اذا قلنا كما قال سليمان ان الجديد كالقديم تماما ؟ الا يجعل ذلك كل شيء باطلا وغير مجديا ؟ كلا بالطبع ، ما لم تكن جميع حلقات الدائرة نفسها مؤلمة . ان عادة النظر الى المستقبل والتفكير في أن معنى

× × سفر الجامعة من الكتاب المقدس ليس بالتأكيد من كتابة سليمان الحكيم ولكنها مناسبة للاشارة الى مؤلف بنفس الأسم ـ المؤلف

× × × ملكة سبأ هي بلقيس التي جاءت الى سليمان الحكيم لتلقي عليه الألغاز وتسمع اقوال حكمته ـ المترجم .

ما سيؤ ل اليه الحاضر من معاني عادة سيئة وضارة . فلا يمكن ان يكون هناك فائدة في المجموع ما لم يكن فائدة في الاجزاء نفسها ، ولا يجوز ان تعتبر الحياة مسرحية اليمة يمر البطل والبطلة فيها في ادوار لا تحصى من سوء الطالع والتي من اجلها تعوضهما عنها النهاية السعيدة . . اني اعيش يومي وسيخلفني ابني يومه وابنه بدوره سيخلفه وهلم جرا . لماذا تكون هناك مناحة ؟ الجواب هو في القول العكس هو الصحيح فاذا عشت للأبد فان ملذات الحياة بدورها ستفقد طعمها ، اما هكذا فستبقى للأبد طازجة .

لقد ادفأت يدي قبل ان ادفأها بشعلة الحياة
وان خبت ، فأنا على استعداد للرحيل

هذا الموقف لا يقل عقلانية عن استنكار الموت . واذا كانت الاساليب تقر ر بالاسباب فسيكون هناك اسباب كثيرة للمرح كما لليأس .

واذا فرضنا ان سفر الجامعة مأساويا ، فكتاب كراتش هو كذلك يفيض حزنا لان ما كانت تحفل به العصور الوسطى من اليقين قد تقلص ، وكذلك الكثير مما هو أحدث عهدا ، فالعصر الحديث من وجهة نظره كالتالي : يضع الانسان في مأزق أشبه بمأزق المراهق الذي لم يتعلم بعد كيف يوجه حياته بدون العودة الى الخرافات التي قضى طفولته في احضانها . هذه الحقيقة صحيحة بالنسبة لفئة معينة من المفكرين اولئك الذين تلقوا ثقافة متوسطة وليس بمقدورهم معرفة اي شيء عن العالم الحديث ، وقد تعلموا خلال يفاعتهم ان يركزوا معتقداتهم على العاطفة والانفعال ، ولا يستطيعون ان يتخلصوا من رغبتهم الطفولية في الامان والحماية اللذين لا يمكن ان يوفرهما العلم . وهم يرفضون بالطبع ان يخبر ونا ما اذا كانت تلك الوعود قائمة ، على انه يظهر انهم كانوا يفكر ون منذ ستين سنة ان رجالا من آمثال دار وين× وهكسلي×× كانوا

× تشارلز داروين (١٨٠٤ ـ ١٨٧٢) انكليزي عالم بالطبيعة . قال ان تطور الاجناس نتيجة (انتخاب طبيعي) تقوم به الطبيعة لفائدة الاجناس الاكثر اهلية للبقاء ، له كتاب اصل الانواع ـ المترجم .
× × توماس هنري هكسلي (١٨٢٥ ـ ١٨٩٥) من أعظم أساتذة علم الاحياء في القرن التاسع عشر على الاطلاق . في عام ١٨٧٠ وضع المصطلح العلمي أي (تكوين الحياة) تعبيرا عن الفكرة القائلة ان المادة الحية تنبثق عن مادة حية سابقة . ـ المترجم .

يتوقعون بعض الشيء من العلم الذي لم يتم .

واعتقادي ان هذا التفكير باطل كليا ، اختلق من قبل اولئك الكتبة والمؤرخين الذين لا يرغبون بأن يعرف عن اختصاصهم انه قليل الأهمية . وذلك لأن العالم يحوي الكثير من المصاعب المؤكدة في هذه اللحظة الراهنة . فقد كان هناك الكثير من المصائب عندما يكون بالمقابل الكثير من الناس ذوي الدخل المحدود الضئيل . ويقول كراتش ارتفع دخل الفرد الاميركي في الواقع بصورة عامة بسبب الحرب العالمية ولكن في ارجاء القارة الاوروبية قاسى طبقة العلماء الكثير بينما الحرب نفسها اعطت كل فرد صفة عدم الثقة . ان مثل هذا المجتمع كان مقدورا له التأثير في اسلوب اجتياز المصاعب اكثر مما اعطى فكرة لطبيعة الكون . لقد كانت اجيال قليلة اكثر يأسا في القرن الثالث عشر علما ان الثقة التي يأسف لها كراتش كانت راسخة لدى كل شخص فيما عدا الامبراطور وبعض النبلاء العظماء من الايطاليين . وكما يقول روجر باكون× : من اجل خطايا الحكم الكثيرة في ايامنا هذه اكثر من اي وقت مضى ، فان الخطيئة لا تتمشى مع الحكمة . وعلى هذا دعونا نستعرض جميع الحالات في العالم ولنبحث بوضوح في كل مكان فاننا سنجد فسادا لا حدود له وقبل كل شيء سيكون هذا الفساد في الرأس ، كما ان الانحطاط هو الذي يدنس المجتمع بأسره والجشع ايضا سيد الجميع ، فاذا كان هذا هو واقع الرأس فكيف سيكون الحال بالنسبة للأطراف ؟ انظر الى الاعيان كيف انهم يسعون وراء الثروة ويهملون معالجة الارواح . دعونا نبحث الأمور الدينية فانني لا أستثني احدا مما اقوله . انظر كيف انحط الفرد والمجتمع من وضعهم الحقيقي ، ولقد اصبحت وصايا القديسين في ايامنا هذه فاسدة بصورة بشعة بالنسبة لكرامتها الأولية ، حيث ان معظم الكهنة مهتمون بالعظمة والخطايا والطمع ، وكذلك الحال لما يجتمع من اجله القادة في كل من باريزواكسفورد حيث يقلقون النائمين أجمع

× روجر باكون (١٢١٤ ـ ١٢٩٢) راهب فرنسيسكاني انكليزي ، من كبار علماء القرون الوسطى ومجددي الطريقة الاختبارية في العلوم ـ المترجم .

بحروبهم ونزاعهم وغير ذلك من الألعاب الشيطانية ولا أحد منهم يهتم لما يحدث ، سواء اكان بالعنف او الضرب ، شريطة ان ينفذوا مآربهم الدنيئة فيما يخص الوثنية وعبقريتهم البالية ،. وقد رأى روجر باكون في ذلك ان حياتهم كلها مخزية خارج نطاق العالم بجميع مسراته وثرواته وشرفه ، اذ بامكان جميع الناس ان يطلعوا على مؤلفات ارسطو×× وسنيكا××× وتوللي وابن سينا×××× والفارابي××××× وافلاطون×××××× وسقراط××××××× وسواهم ، وجميعها تدل على انهم توصلوا لأسرار الحكمة واكتشفوا جميع العلوم× . ورأى روجر باكون ان جميع العباقرة لم يحيوا العصر الذي وجدوا فيه . ولا أعتقد على الاطلاق ان هذا التشاؤم له سبب عيني ، بل اسبابه في الغالب هي الحروب والفقر وانتشار العنف . لقد زعم بعض الكتاب المتشائمين مثل السيد كراتش ان العصر الفيكتوري كان يعلي من قيمة الحب ، اما المعاصرون فعلى العكس قد هبطوا بقيمته كثيرا ، فلدى الشكوكيين من الفيكتوريين كان الحب يؤدي

× × ارسطو او ارسطوطاليس (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق . م) مؤدب الاسكندر ، فيلسوف يوناني من كبار مفكري البشرية ، تأثرت بوادر التفكير الغربي بتآليفه التي نقلها الى العربية التراجمة السريان وأهمهم اسحق بن حنين ـ المترجم .

× × × سينيكا (٢ ـ ٦٦) ولد في قرطبة (الاندلس) فيلسوف روماني ، مؤدب الامبراطور نيرون . قطع عرقا من عروقه ومات نزولا عند امر نيرون . استوحى مبادئه الفلسفية من الرواقيين ـ المترجم .

× × × × ابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧) ولد في اخشنة قرب بخاري وتوفي في همذان . حساب وطبيب ومن كبار فلاسفة العرب وائمة مفكريهم . من مؤلفاته المطبوعة القانون في الطب ، ولا يزال قسم من تآليفه مخطوطا في خزائن الكتب ـ المترجم .

× × × × × الفارابي (ابو النصر محمد) : (٨٧٣ ـ ٩٥٠) ولد في فاراب وتوفي في دمشق . من اعظم فلاسفة العرب . لقب بـ (المعلم الثاني) بعد ارسطو وذهب الى التوفيق بين فلسفته وفلسفة افلاطون فنشأت عنه الفلسفة الاسلامية الافلاطونية الجديدة ـ المترجم .

× × × × × × افلاطون (٤٣٠ ـ ٣٤٧ ق . م) من مشاهير اليونان . تلميذ سقراط ومعلم ارسطو طاليس . اساس فلسفته (الصور) قال ان الحقيقة التي يطلبها العالم ليست في الظواهر المنفردة والزائلة ولكن في الفكر السابق لوجود الكائن . من مؤلفاته الجمهورية والمحاورات . ـ المترجم .

× × × × × × × سقراط (٤٦٨ ـ ٣٩٩ ق . م) ولد في أثينا . فيلسوف يوناني علم في اثينا . قاوم تعاليم السفسطة فتحالف عليه اعداؤه وجروه امام الحكام وضغطوا عليهم فحكم عليه بشرب السم في السجن . ومن الاقوال التي نسبها العرب اليه : (اذا اقبلت الحكمة خدمت الشهوات العقول واذا ادبرت خدمت العقول الشهوات) ـ المترجم .

× مقتبسة عن كولتون من القديس فرنسيس الى دانتي صفحة ٥٧ ـ المؤلف

جانبا من وظائف الله الذي فقدوه . وفي مواجهة هذا الوضع تحول الكثيرون من اصلهم عودا الى التصوف مؤقتا ، والغوا انفسهم بازاء شيء اثار فيهم ذلك الاحساس بالاجلال الذي لا يدعيه شيء آخر ، واشعرهم في اعماق سرائرهم بالولاء الذي هو اهل له . والحب عندهم مثل الاله ، يتطلب جميع التضحيات ، وهو مثله ايضا يجزي المؤمن به باضفاء معنى غير قابل للتحليل حتى الان على ظاهرة الحياة . اما نحن المعاصرين فقد تعودنا اكثر من الفيكتوريين الكون الخالي من الاله ، ولن نعرف معنى الالحاد الحقيقي الا اذا كفرنا بالحب ايضا . ومن الغريب ان يبدو العصر الفيكتوري للشباب اليوم مختلفا عما كان يبدو لنا نحن الذي عشنا ذلك العصر ! واني لأتذكر جيدا سيدتين مسنتين وكل منهما من بيئة وعصر مختلف ، وقد عرفتهما جيدا في شبابي ، احداهما كانت تطهرية والاخرى فولتيرية . كانت الاولى تأسف لوجود عدة ابيات من الشعر تبحث في الحب الذي كانت تعتبره موضوعا غير ذي قيمة ، والثانية كانت تقول لا يوجد احد يمكنه ان يدينني بشيء ، ولكني دائما اقول ان أنتهاك الوصية السابعة (لاتزن) ليس في مثل سوء انتهاك الوصية السادسة (لا تقتل) . لأن السابعة موافقة الطريق الآخر ،وكلتاهما على الاجمال لا تشبهان تصور كراتش للعصر الفيكتوري ، الذي استقى معرفته ولا شك من بعض الكتاب غير المنسجمين مع بيئتهم في ذلك العصر ، واني لافترض احسن مثال لذلك روبرت برونيك×× حيث قال ان هناك مقاومة ذاتية تثبت ان شيئا خفيا يلف الحب كالتالي :

الشكر لله اعمق المعاني لخلائقه
فالافتخار من جهة النفس ، يواجه العالم في الاولى
وفي الثانية يظهر المرأة عندما يحبها .

هذا يؤكد ان الصراع هو الصفة الوحيدة الممكنة تجاه العالم اجمع . ولماذا ؟ ذلك لأن العالم طاغي ، وكما يقول برونيك لانه

×× روبرت برونيك (١٨١٢ ـ ١٨٨٩) شاعر انكليزي ـ المترجم

لا يقبلك حسب تقديرك الشخصي ، وعلينا ان نقول ان الزوجين يمكن ان يشكلا كما فعل برونيك مجتمعا خياليا مثمرا . فمن السار ان يكون هناك من يمتدح عملك سواء استحقيت هذا المديح ام لا ، وبدون شك شعر برونيك انه ذكي في ذلك . واذا تتبعنا بصراحة ما أعلنه فيتزجيرالد××× في ظرف غير مناسب وفي جرأة وبدون استغراب في (اورورالي AuroraLeigh) نرى ان الشك الكامل في قوة النقد هو في كلا الحالين مستغرب لانه محاط بالخوف والرغبة في تجنب اللذعات الصارمة في النقد . وبالنسبة لمعايير كراتش الحديثة فان الحب تلاشى في العصر الفيكتوري . واني شخصيا لم افقد قط ايماني بالحب ، على ان نوع الحب الذي يمكن أن أؤمن به مختلف عن الحب الذي اعجب به الفيكتوزيون ، فالحب الذي أؤمن به مفتوح العينين ومغامر ، ويتيح معرفة الخير من غير تناس للشر ، وليس فيه ادعاء للقداسة . لقد كانت هذه الصفة تضفي للحب نتيجة للتحريم المرتبط بالجنس ، وكان الفيكتوريون مقتنعين أن أغلب الجنس هو آثم ، ولا بد ربط صفات مبالغ فيها بنوع الحب الذي يمكن ان يقره . ولقد كان هناك جوع جنسي اكثر مما هو الآن وهذا مما دفع الناس بدون شك للمبالغة في أهمية الجنس كما جرى عليه حال النساك . اننا الآن في فترة مضطربة ونحن نرى الكثير من الناس طرحوا جانبا المعايير القديمة دون الحصول على المعايير الجديدة ، وهذا يفضي بهم الى متاعب شتى . ولما كان عقلهم الباطني لم يزل مؤمنا بالمعايير القديمة ، فلا غرابة ان تثمر الاضطرابات والمتاعب يأسا وندما ونفاقا ، ولا اخالني اظن ان عدد الاشخاص الذين يحدث معهم هذا هو كبير جدا الا انهم اغلب البارزين في عصرنا . وفي اعتقادي اننا لو اخذنا متوسط الميسورين من الشبان في أيامنا هذه وفي العصر الفيكتوري لتبين لنا أن سعادة المعاصرين بالحب اوفر من سعادة أجدادهم قبل ستين عاما . وان الايمان الحقيقي بقيمة الحب اليوم اوفر من ذي قبل . وما يقود الناس الى النفاق انما هو

××× ادوارد فيتزجيرالد (١٨٠٩ ـ ١٨٨٣) كاتب انكليزي ، ترجم رباعيات عمر الخيام الى الانكليزية ـ المترجم .

ارتباطهم بالمثل القديمة وطغيان هذه المثل العليا في اللاشعور . ، مع اغفال الاخلاقيات العقلانية التي يمكن ان يربط الناس بمقتضاها سلوكهم ، والعلاج لا يكمن في ندب الرأس والحنين الى الماضي بل في تقبل وجهات النظر الحديثة بجرأة واصرار ، مع التصميم على نبذ الخزعبلات من مكانها الخفي في اللاشعور .

وليس من السهولة القول بايجاز المرء تقديره للحب ، ولكني سأقدم على هذه المحاولة . فالحب يستحق التقدير في المقام الاول ، وان لم يكن هذا قيمته الكبرى ، من حيث كونه مصدرا للسرور في حد ذاته :

ايها الحب ، كم يسيء الناس اليك
فذاك يقول ان حلوك مر
في حين ان ثمرتك الغنية
لا يداني حلاوتها حلاوة

وواضح ان كاتب هذه الاسطر المجهول لم يكن يبحث عن حل للالحاد او عن مفتاح للكون ، بل كان يبغي المتعة الذاتية ، وليس الحب وحده مصدرا للسرور فقط ، بل ان فقدانه ايضا هو مصدر للألم . وفي المقام الثاني نقدر الحب لانه يزيد من سائر اللذات والمباهج الاخرى مثل الموسيقى وشروق الشمس على الجبال والبحر تحت ضوء القمر المكتمل . والرجل الذي لم يتح له التمتع بجمال هذه الاشياء مع المرأة التي احبها لم يختبر أقصى ما في هذه الاشياء من سحر ، يضاف الى هذا ان الحب قادر ان يحطم صدفة الانانية العنيفة ، لانه شكل من اشكال التعاون ، الاحيائي الذي لا بد فيه من انفعالات الطرفين معا لتحقيق الاغراض الغريزية لكل منهما . لقد كان في العالم في مختلف العصور فلسفات خفية مختلفة بعضها نبيل جدا وبعضها اقل نبلا . فالرواقيون والمسيحيون الاولون كانوا يعتقدون ان الانسان بامكانه ان يحقق اسمى خير ممكن للحياة الانسانية بقوة ارادته وحدها او على الاقل بدون عون بشري . واعتبر آخرون ان القوة هي نهاية الحياة ، وآخرون ايضا كان

كل هدفهم مجرد اللذة الشخصية ، وهؤلاء جميعا اصحاب فلسفات فردية بمعنى أن الخير في نظرهم يمكن تحقيقه في كل شخص بمفرده وليس بمجموعات صغيرة او كبيرة من الاشخاص . وتبدو لي وجهات النظر هذه كاذبة ، ليس فقط في النظرية الخلقية فحسب ، بل كتعبير عن الجانب الفاضل من غرائزنا ، والانسان يعتمد على التعاون وقد جهزته الطبيعة لذلك ، وان لم يكن ذلك بقسط كاف بالاجهزة الغريزية التي تظهر منها الصداقات المطلوبة للتعاون ، ومن جرب الحب بأي شكل من الشدة لن يقنع بفلسفة ترى ان الخير الاسمى مستقل غير خير المحبوب . وفي هذا الخصوص نرى شعور الآباء أعنف ، ولكن الشعور الابوي في اشده هو نتيجة الحب بين الابوين . انني لا أتظاهر هنا في ان الحب في عنفوانه هو مألوف ، ولكني أصر على ان الحب في اشده ينم عن القيم التي لولاه لبقيت مجهولة من القيمة ما لا ينسى من قبل الشكيين ، مع العلم ان الشكوكيين الذين لم يتمكنوا منه يزيفون عدم مقدرتهم هذه بالشكية .

الحب الحقيقي نار مضطرمة
يتقد باستمرار في العقل
لا يمرض ، لا يموت ، ولا يبرد
ولا يلتفت او ليدور من ذاته

واعود مرة أخرى الى ما قاله كراتش عن هذه التراجيديا لانه يحاور في هذا الصدد ، ولكن لا يمكنني ان اوافق على ان اطياف ابسن× هي دون الملك لير « لا يمكن المقارنة بين قوة التعبير التي من شأنها تحويل ابسن الى شكسبير . فالمادة التي ابدع بها مؤلفاته وفكرته عن كرامة الانسانية وشعوره بأهمية معاناة البشرية وتخيلاته الواسعة عن حياة البشر ، لم تكن متوفرة لأبسن ، لأنهما لم

× اعتبر هنريك أبسن الكاتب المسرحي النروجي (١٨٢٨ - ١٩٠٦) من أبرز الكتاب الذين عالجوا حرية المرأة ووضعوها على قدم المساواة مع الرجل ، وقد غير التفكير الغربي من تراث التقاليد الى القيم البشرية التي توزن بميزان العقل . وتتلخص فلسفته في قيمة الشخصية البشرية وضرورة استقلالها وتربيتها فنأخذ أنفسنا بالجد وأن نعتمد على العقل ونحيا الحياة الشريفة الضنية الراقية التي لا تشوبها رواسب الماضي - المترجم .

يكونا يعيشان في عصر واحد . ان الله والانسان والطبيعة لم يلتقوا في مجرى العصور المختلفة ، لا بسبب تصور الاعتقاد الديني في الفن الحديث الذي قادنا للبحث عن فكرة الشعوب ، لأن هذه الفكرة لحياة البشر كانت نوعا ما من عندنا ، بل تحت تأثير بعض التقدم الذي قادنا لتقبل الاعتقاد بالفن الذي يحكم فكرتنا » . ومما لا شك فيه ان ظروف الطراز القديم للتراجيديا التي تتناول الأمراء وحزنهم هي غير ملائمة لعصرنا ، وعندما نحاول ان نعامل بنفس الاسلوب احزان فرد مجهول فأن تأثير ذلك لن يكون بنفس الواقع . وسبب ذلك ليس في تخيلنا السوء في نظرتنا للحياة ، بل العكس تماما . وقد قال شكسبير×× :

عندما يموت الشحاذون لا يظهر النجم المذنب

بينما لموت الامراء تتقد السماوات ذاتها

لم يؤمن شكسبير بهذا المزيج تماما ، ولكنه عبر عن وجهة النظر العملية العالمية انذاك ، وقبلها بكل فخر العالم كما قبلها شكسبير شخصيا . وبالطبع فان موت سينا× الشاعر الكوميدي الذي رافق موت القيصر×× وبروتوس××× وكاشيوس×××× فقد كان فاجعة . ولكن الروعة في الموت الخاطف للفرد مفقود لنا ، لأننا أصبحنا ديمقراطيين لا بالمظهر الخارجي فحسب بل في جميع خطايانا . ان التراجيديا الكبرى في وقتنا هذا يلزمها التأثير الذاتي كما في المآسي الاخرى التي تؤثر بدورها في الفرد ، واني لاقدم مثلا على ما عناه أرنست

×× وليم شكسبير : رائد المسرحية الانكليزية . ولد في ٣ نيسان ١٥٦٤ في قرية ستراتفورد بانكلترا . وقد استطاع هذا العبقري شكسبير ان يجعل المسرحية الانكليزية تحيط بالحياة البشرية احاطة شاملة ، فمسرحياته بمآسيها وفكاهاتها ومهازلها هي سفر القلب الانساني الذي لم يتغير ولن يتغير . ففي مآسيه المعروفة يوليوس قيصر وهاملت وعطيل ومكبث و الملك لير وانطونيو وكليوباترا وكريوليناس وروميو وجوليت وتيمون الاثيني ، في هذه المسرحيات صور شكسبير غرائز الكائن الانساني ملجمة بلجام العقل ، او جامحة محطمة اللجام . واحاط بالاثام البشرية ، ورسم مسير القدر وهو يهدف الى غرضه ـ المترجم .

× هيلفيوس سينا : الشاعر الروماني في العصر الشيشروني المتأخر ـ المترجم .

×× يوليو قيصر (١٠٢ ـ ٤٤ ق . م) الجندي الروماني الكبير ورجل الدولة ـ المترجم

××× لوسيوس بروتوس : واحد من اول قنصلين . كتب رسائل فلسفية وأشعارا ـ المترجم

×××× افيديوس كاشيوس : قائد جيش روماني . ولد في سورية ـ المترجم

توليرxxxxx في الجمهرة البشريةMassemensch xxxxx ولا أعني أن مؤلفاته كانت من أجود الاعمال في العصور الماضية ولكني أعني انها بصراحة تقارن بسموها وروعتها الواقعية فيما يخص اعمال البطولة (وتبعد القارىء بالشفقة والرعب) كما قال ارسطو ، ولا تزال هناك عدة امثلة لهذا النوع الحديث من التراجيديا منذ ان اهمل الفن والتقاليد القديمة بدون ان يحل مكانهما أدب حديث يملأ هذا الفراغ . فحين نكتب التراجيديا ، على الانسان ان يشعر بالحزن كي يكون مدركا لواقع العالم الذي نعيش فيه لا بتفكيره فقط ، بل في دمه وأعصابه ، وقد بحث كراتش في جميع فصول كتابه وبفترات معينة منه عن اليأس ، ولكن جهود الفرد تظل لديه ملموسة في تقبله البطولي لعالمنا المعاصر ، الا ان العواصف عائدة في الواقع لكونه هو وأغلب رجال العلم لم يتعلموا بعد ليشعروا بتقلبات الماضي بالنسبة للجهود الحديثة ، فالطاقة موجودة ولكن ليس في حلقات علمية وفكرية . والحلقات العلمية ليس لها اية صلة في حياة المجتمع ، ومثل هذا الاتصال ضروري اذا كان شعور الناس يتطلع بعمق وموضوعية للأساليب التي يتقدم بها في كل من المآسي والمسرات . فالى جميع الشباب المدركين التائهين بتفكيرهم على أنه لا يوجد لهم اي عمل في العالم يقومون به ، اقول لهم اعطوا المحاولات للكتّاب وجربوا أن لا تكتبوا . اذهبوا الى العالم واصبحوا قراصنة بحار وملوكا في بورنيو وعمالا في روسيا السوفياتية .اعط نفسك متسعا حيث تحوز على الكفاءة المبدئية الصحية المطلوبة لأشغال كافة نشاطك . انني لا اطالب بهذا الاجراء لكل شخص ولكن لاولئك الذين يعانون من المرض الذي حلله كراتش ، واخالني بعد بضعة سنوات لهذا الوجود سيجد أهل الرأي السابقون خطأ تأخرهم عن الكتابة وحتى يحين ذلك الوقت ، سوف يلمسون أن كتابتهم لم تكن فاشلة .

---

xxxxx ارنست تولير (١٨٩٣ ـ ١٩٣٩) شاعر الماني . وضع كتاب الجمهرة البشرية عام ١٩٢١ وترجم الى الانكليزية عام ١٩٢٣ ـ المترجم

xxxxx ترجمتها الى الانكليزية فيرا مانيل تحت عنوان الجمهرة البشرية ـ المؤلف

الفصل الثالث
المنافسة

اذا انت سألت أي رجل في امريكا ، او اي رجال أعمال في انكلترا ، اي شيء تجده اكثر تعلقا بحب البقاء ؟ فسيقول :« الصراع من أجل الحياة » سيقول هذا بكل أخلاص لأنه يؤ من بما يقول . ففي الحس الحقيقي صحيح من وجه معين ، بيد انه من وجه آخر ، وهو وجه هام جدا ، خطأ محض . ان الصراع من أجل الحياة شيء قد يقع بطبيعة الحال ، وقد يحدث لكل واحد منا اذا كان الحظ غير محالفه . وحدث على سبيل المثال لفالك احد ابطال كونراد الذي رأى نفسه فوق سفينة مهجورة ، وكان هو وزميل له من بين البحارة يحوزون على سلاح حربي وليس هناك ما يأكلانه سوى الرجال الآخرين ، ولما انهى الرجلان الوجبات التي استطاعوا الاتفاق عليها بدأ صراع حقيقي في سبيل الحياة ، وقد ربح فالك ، ولكنه اصبح فيما بعد نباتيا . والذي صوره كونراد ليس ما يعنيه رجل الأعمال عندما يتكلم عن « الصراع في سبيل الحياة » فهذا تعبير غير دقيق التقطه واستخدمه لاعطاء الجلال لبعض الاشياء الذاتية التافهة . سله كم شخصا ممن عرفهم في طبقته مات جوعا ، وسله ماذا حدث لاصدقائه بعد ان هدم وضعهم . وكل شخص يعرف ان رجل الاعمال الذي خربت اعماله أحسن حالاً من حيث الرفاهية المادية ، ممن لم يكن في يوم من الايام غنيا ثم افلس . وهكذا فان الذي يعنيه الناس من الصراع في سبيل الحياة انما في الواقع الصراع في سبيل النجاح . والذي يخشاه الناس عندما يخوضون في صراع ليس أنهم سيفشلون في الحصول على افطارهم في الصباح التالي ، بل عدم تمكنهم من التفوق على جيرانهم .

ومن الغريب جدا ان نرى قلة من الناس يدركون انهم لم يقعوا في قبضة نظام آلي لا مهرب لهم منه . بل ان الذي يبقيهم على عجلة التعذيب انهم لم يلاحظوا ان العجلة لا ترفعهم الى مستوى اعلى . انني افكر بالطبع في حالة رجال الطبقة العالية من الاعمال المالية والتجارية الذين يملكون دخل جيد ، . وبامكانهم اذا اختاروا ان يعيشوا على ما لديهم ، بيد ان الاقدام على ذلك الصنيع يبدو لهم مجلبة للعار كالفرار من جيش يواجه العدو سواء بسواء ، مع العلم انك اذا سألتهم لاي هدف عام يشتغلون في عملهم ، فسيضيعون بالجواب متى فرغت جعبتهم من الاقوال المعادة التي في واقع اعلان الحياة العملية .

اذا تأملنا حياة مثل هذا الشخص وافترضنا أن عنده بيتا فاخرا وزوجة جميلة وأولادا جذابين ، فانه يستيقظ باكرا في الصباح ، بينما هم نيام ، ويسرع الى بيته حيث يتولى القيام بمهام تصريف أعمال مؤسسته ، وينتحل أسلوبا مرنا للكلام ، ويستجمع حكمته ومهارته ليؤثر على كل انسان ـ سوى آذن المكتب ! يملي الرسائل ويتحدث هاتفيا مع مختلف الرجال العظام ، يدرس السوق ، يتناول غذاءه مع شخص يزمع أو يأمل ان يزمع عقد صفقة معه ، ويثابر على هذا المنوال طيلة يومه ، ولما يصل الى البيت بعد الظهر يكون التعب قد ناله ، وفي فترة تهيئة العشاء يتظاهر هو وغيره من الرجال المتعبين أنهم في أحسن حال مع السيدات اللواتي لم تسنح لهن الفرصة بعد للشعور بالتعب ، واخيرا ينام ، ويتراخى التوتر بضع ساعات . ان حياة هذا الرجل العملية لها نفس سيكولوجية سباق المئة ياردة ، ولكن السباق الذي ينهك فيه لا غاية له الا القبر ، والتركيز الذي هو مناسب تماما للمئة ياردة يغدو في النهاية مفرطا جدا . ترى ، ماذا يعرف عن اطفاله ؟ في ايام الاسبوع تراه في مكتبه ، وفي ايام الآحاد يكون في حلبة الغولف . وماذا يعرف عن زوجته ؟ عندما يغادرها في الصباح تكون نائمة ، وخلال المساء تراهما منهمكين في الواجبات الاجتماعية التي تحول دون المحادثات الحميمة . وقد لا يكون عنده اصدقاء

من الرجال ذوي الاهمية ، وان كان له عدد من الاصدقاء يفتعل معهم انسا ولطفا يتمنى لو شعر بهما حقا . ولا دراية له بوقت الربيع والحصاد الا بمقدار تأثيرهما في السوق . ولعله رأى البلاد الاجنبية ، ولكن بعينين متبرمتين . كما ان الكتب تبدو له عديمة الفائدة والموسيقى عالية الشأن . وبعد مرور السنين يزداد انفرادا ويصبح اهتمامه اكثر اتساعا او تجف حياته خارج نطاق العمل . لقد رأيت الاميركيون الذين من هذا الطراز في اواخر منتصف حياتهم وهم يجوبون اوروبا مع الزوجة والبنات ، بعد أن أفلحن في اقناع المتواضعين على انه حان الوقت ليحظى بعطلة ويتيح لبناته فرصة مشاهدة العالم القديم . وتحيط به الأم والبنات وهن في غاية النشوة ، ويسترعين انتباهه الى كل جديد يلفت انظارهن ، وعميد الاسرة متعبا منهكا ، ذهنه مشغول بما عسى ان يكون جاريا الان في المكتب في هذه اللحظة ، او ما هي اخبار البسبول× ولم يتضح لهن على انه ضحية جشعهم ، كما ترضى الارملة الهندية عن رضا تام بان تحرق مع جثمان زوجها ، لأن المجد والدين هكذا يأمرانها ، فتجد في ذلك فخرا وزهوا . فان كان لا بد من اسعاد رجل الاعمال الاميركي ، فسبيل ذلك أولا ان يغير ديانته العملية . وما دام لا يرغب في النجاح فحسب ، بل يؤمن من اعماق فؤاده ان واجب الرجل السعي الى النجاح من أجل النجاح ، وان من لا يصنع ذلك فهو مسكين ، ففي هذه الحالة ستظل حياته مركزة اكثر مما ينبغي ، ومكدرة قلقة اكثر من اللازم . واذا اخذنا مثلا بسيطا في استثمار الاموال ، نرى كل اميركي في الغالب يحصل على ٨٪ من الاستثمار الجزافي المليء بالمخاطرة ، ويفضل ذلك على ٤٪ ومن مصدر مأمون مضمون . والنتيجة ان هناك الكثير من ضياع المال يسبب قلقاً مستمراً . والشيء الذي ارغب من جانبي الحصول عليه من المال هو الفراغ المؤمن بدخل كاف ، الا ان الانسان المثالي الحديث يرغب في الحصول من المال على مزيد من المال بهدف الوصول الى العظمة والتفوق على المنافسين له . ان المعدل الاجتماعي في

× البسبول : لعبة شعبية امريكية

اميركا غير محدود ودائم التقلب وبصورة مختلفة ومتباعدة . وأصبح الشعور بالجاه أصعب من أن يكون من متطلبات المجتمع التامة ، ومع ان المال قد لا يكفي لاضفاء العظمة على الشخص ، الا انه من الصعب ان يكون المرء هناك عظيما بدون المال . بل اكثر من هذا : المال الذي يجمعه المرء يعد هناك مقياسا لذكائه ، فالانسان الذي يجمع قدرا هائلا من المال رجل بارع ، اما من لا يجمع قدرا كبيرا من المال فهو غير بارع ، ولا احد يريد ان يشك به انه غبي . ولذا يشعر الانسان منهم عندما تكون السوق مهتزة بمثل ما يشعر به الفتى اثناء الامتحان .

واعتقد انه يجب اقرار فكرة ان عنصر الخوف الحقيقي ، وان كان عقلانيا ، من نتائج الدمار وكثيرا ما يدخل في تكوين مشاعر القلق والكرب لدى رجل الأعمال ، ويذكرني هذا ببطل رواية ارنولد بنيت « كلايهنغار » الذي صار فاحش الثراء بيد انه ظل الى آخر حياته يخشى ان يموت في ملجأ المعوزين . ومما لا شك فيه ان اولئك الذين عانوا كثيرا من الفاقة في طفولتهم تطاردهم اشباح الفزع من ان يقاسي ابناؤهم مثل ما قاسوه شخصيا ، ويشعرون أنه من الصعب ان تكفي ملايينهم لتحصين هؤلاء الابناء للصمود ضد هذه الكارثة . ومثل هذه المخاوف لا مفر لها في الجيل الاول ، بيد انه ليس من المحتمل ان تنقص حياة من لم يشعروا قط بالفقر المدقع ، وهؤلاء على اي حال قلة ولكل قاعدة استثناء .

ان جذور المتاعب تصدر من الاهتمام المتزايد للتسابق على النجاح التنافسي باعتباره مصدر رئيسي للسعادة ، ولا انكر ان الشعور بالنجاح يجعل ذلك أسهل للتمتع بالحياة . لنفترض ان رساما ظل مغمورا طوال شبابه ، خليق ان تزداد سعادته اذا ما لقيت مواهبه التقدير والاعتراف . كما اني لا انكر ان المال كفيل لدرجة كبيرة في زيادة سعادة الفرد ، ولكنني لا اعتقد انه اذا ما تجاوز هذا الحد المعين لا يكون عاملا على زيادة سعادته . وما اريد ان ابينه هنا هو ان النجاح ليس الا عنصرا واحدا من عناصر السعادة ، وسيكون الثمن غاليا جدا اذا ضحينا بجميع العوامل الاخرى للحصول عليه .

ان مصدر هذه المتاعب هي فلسفة الحياة السائدة في دوائر الأعمال . اجل لم تزل توجد في اوروبا حلقات اخرى لها شهرتها ومكانتها . ففي بعض اقطارها دوائر للارستقراطية ، وفي جميع اقطارها توجد المهن الحرة والثقافية والعلمية ، وفي معظمها ، فيما عدا الدول الصغرى ، يتمتع الجيش والبحرية باحترام عظيم . ولئن كان صحيحا ان في النجاح عنصرا من المنافسة ، مهما تكن مهنة الانسان ، بيد ان ما يحترم حقيقة ليس النجاح ، بل ذلك الامتياز او التفوق ـ ايا كان ـ الذي يفسر ذلك النجاح ، ويعزى اليه النجاح . ان رجل العلم قد يكسب المال او لا يكسبه ، ولكنه من المؤكد ليس اوفر احتراما من حيث هو رجل علم ، في حالة الثراء من علمه . وما من احد يفاجأ اذا اتضح له ان جنرالا او اميرالا مبرزا في عداد الفقراء ، فالفقر في مثل هذه الحالات يكون بحد ذاته شرفا . ولهذه الاسباب نرى في اوروبا التسابق في الصراع من اجل المادة محصورا جدا في حلقات معينة ، وربما هذه الحلقات ليست اكثر نفوذا او اكثرها حظوة بالاحترام . اما في أميركا فالمسألة على خلاف هذا ، حيث الخدمات تلعب جزءاً ضئيلاً في الحياة القومية ، مما يجعل مستوياتها او معاييرها مجردة من التأثير . ففي المهن العلمية مثلا ، لا يستطيع احد من خارجها ان يعرف هل هذا الطبيب يعرف الكثير عن العلاج ، او اذا كان هذا المحامي يعرف الكثير عن القانون ، ولذا سيكون من السهل الحكم على اقدار هؤلاء بالدخل الذي يمكن استنتاجه من مستوى معيشتهم . اما الاساتذة العلماء فليسوا سوى الخدم المأجورين لرجال الاعمال ، ولذا فاحترامهم في اميركا أقل من احترام زملائهم في الاقطار الأعرق بالعالم القديم . ونتيجة لهذا كله نجد ان صاحب المهنة الحرة في اميركا يقلد رجال الاعمال ، ولا يمثل نمطا مستقلا خاصا به كما هو حال زميله في اوروبا . ولذا فاننا نجد ان الطبقات الميسورة في اميركا خالية من كل ما من شأنه أن يخفف ويلطف الصراع السافر الذي لا هوادة فيه في سبيل النجاح المادي .

وبهذا يشعر الاولاد الاميركيون منذ سنواتهم الباكرة ان هذا هو الشيء

الوحيد الذي يهتمون به ، ولذا لا يرغبون في ازعاج انفسهم بأي نوع من التربية او التعليم لأنها خالية من القيم المادية . وكانت التربية تتراءى لهم بصورة كبيرة كأنها تدريب في امكانية الاستمتاع - اعني الاستمتاع بتلك الملذات المرهقة الراقية غير المتاحة تماما لمن لم يحصلوا على تربية او تعليم .

ولقد كانت من سمات (الجنتلمان) في القرن الثامن عشر الرغبة في التأمل بالادب والرسم والموسيقى . وقد تختلف في هذه الايام مع ذوقه ، بيد انه كان ذوقا أصيلا على الاقل . اما الرجل الغني في هذه الايام فانه من نوع مختلف تماما . فهو لا يقرأ أبدا . واذا كان يقتني مجموعات من اللوحات الفنية بقصد زيادة شهرته ، فاللذة التي يجنيها من هذه اللوحات ليست لذة النظر اليها ، بل لذة حرمان رجل غني آخر من اقتنائها ! واعتقد ايضا انه يكون جاهلا عاجزا عن اعطائها حقها المستحق ، كعجزه عن استيعاب سائر الفنون الأخرى . ونتيجة لكل هذا سيحتار فيما يعمله في وقت فراغه . وكلما أتسع تراثه فسيكون تكالبه للمال اكثر ، الى ان يصير ما يكسبه في خمس دقائق كل يوم اكثر من ان يعرف كيف ينفقه ! ويجد الرجل الفقير نفسه بهذا المقياس محروما من النجاح . وهذا بدون شك هو الوضع تماما طالما يمثل النجاح بحد ذاته هدفا للحياة . وما لم يتعلم الانسان كيف يتصرف بالنجاح بعد الحصول عليه ، فسوف يظل تحقيق النجاح سببا في جعله فريسة للاعياء والضجر .

ان طبيعة التفكير التنافسي تغزو بسهولة مناطق لا تنتمي اليها . خذ على سبيل المثال مسألة القراءة ، هناك شعوران لقراءة كتاب ما : احدهما ان تتمتع به ، والآخر التباهي بقراءته ، وقد اصبح هذا هو الشائع في اميركا : فالسيدات يطالعن (او يتظاهرن بمطالعة) كتب معينة شهريا ، وبعضهن يطالعن الكتاب كله ، وبعضهن يقرأن ، وفريق ثالث يطالعن خلاصته ، ولكن جميعهن يضعن هذه الكتب على موائدهن بدون ان يطالعن شيئا منها ، ولا يطالعن كتب الروائع على اي حال ، فلم يحدث في اي شهر ان وقع اختيار

نوادي الكتاب هناك على كتب هاملت او الملك لير× ولم يحدث في اي شهر انه صار مطلوبا معرفة شيء عن دانتي×× . والمطالعة التي يقمن بها هي بكتب عادية حديثة وليست لكتب نموذجية . وهذا ايضا من تأثير التنافس ، وربما كان ترك اغلب النساء المعنيات بعيدا عن مطالعة الكتب النموذجية ، اسوأ من مطالعة الكتب التي اختيرت من قبل علمائهن وكهنتهن وأساتذتهن .

ان التركيز على المنافسة في الحياة العصرية متصل بصورة عامة بفساد مستوى المدينة تماما كما حدث في روما بعد عهد الامبراطور اوغسطين× حيث اصبح الرجال والنساء غير جديرين بالتمتع بلذة الذكاء المتفوق . وفن الحديث العام مثلا ، وهو الفن الذي وصل الى الكمال في المنتديات الفرنسية في القرن الثامن عشر كان لم يزل موجودا الى خمسين سنة خلت×× ، وهو فن ممتاز جدا ، يحشد ارقى ملكات الناس للنشاط من اجل شيء سريع الزوال تماما ، وهو الجلسة او المناوبة . ولكن من ذا في ايامنا هذه يكترث لشيء من هذا القبيل ؟ وهذا الفن نفسه كان لم يزل مزدهرا في الصين الى ما قبل عشر سنوات××× ولكني اتصور ان الوطنيين قد ازالوه من الوجود الان ، كما ان معرفة الآداب الجيدة التي كانت تعم الناس المثقفين ، منذ خمسين أو مائة سنة مضت اصبحت الان محصورة بين قلة من الاساتذة العلماء ، وجميع المسرات الناعمة الهادئة اصبحت مهجورة . وقد صحبني مرة بعض الطلبة الاميركيين في الربيع للسير في غابة تحف بحرم معسكرهم ، وكانت مليئة بالازهار البحرية البديعة ، على انه لم يعرف فرد من مرشدي اسم واحدة منها . فما

× هذين الكتابين للشاعر الانكليزي وليم شكسبير ـ المترجم

× × دانتي اليجيري (١٢٦٥ ـ ١٣٢١) اعظم شعراء ايطاليا ومن رجالات الادب العالميين . خلد اسمه بملحمته الشعرية الكوميديا الالهية ـ المترجم

× اوغسطين (٦٣ ـ ق . م ـ ١٤ م) أول امبراطور روماني . على ايامه تمتع العالم بالسلم الروماني وولد المسيح في بيت لحم ـ المترجم .

× × كتب هذا الكتاب عام ١٩٣٠ ـ المترجم .

× × × لو طلب الى برتراند رسل ان يعيد كتابة هذا المقطع لما فعل ، فقد تراءت له الصين يوم زارها قبل خمس وستون عاما بالشكل الذي نوه عنه في كلامه ، ومما له دلالته في هذا المؤلف ، ان عقله وتفكيره تطورا مرحلة مرحلة الى أن اصبح على ما هو عليه الآن من نضج في التفكير وبعدالنظر لكافةالمسائل التي تجابه عصرنا المترجم

جدوى مثل هذه المعرفة التي لن تضيف شيئا الى دخل احد .

ان المشكلة ليست في الفرد ، وليس في امكان انسان واحد ان يمنعها في حالته الخاصة المفردة ، بل المشكلة تبرز من فلسفة الحياة المقبولة لدى الناس جميعا . وهي التي ترى في الحياة سباقا او مباراة او منافسة ، وفي هذا الاحترام فيها من يصيب الظافر المنتصر دون سواه . ووجهة النظر هذه تقود الى انماء مبالغ فيه للارادة على حساب الادراك والذكاء . وبهذا القول نكون قد وضعنا العربة قبل الحصان . فالاخلاقيون التطهريون Puritan كانوا يركزون دائما على الارادة ، مع العلم ان تركيزهم قبل ذلك كان على الايمان . وقد تكون العصور التطهرية Puritanism ×××× المتوالية انجبت سلالة ذات تضخم في العزيمة ، بينما أهملت وضمرت الحواس والذهن . ومثل هذه السلالة هي التي اعتنقت فلسفة التنافس لأنها انسب الفلسفات بطبيعتها . ومهما يكن الامر ، فالنجاح العظيم لتلك الديناصورات الحديثة التي تشبه مثيلاتها المنقرضة ، من حيث انها تفضل القوة على الذكاء ، قد جعلها تقلد طرازها ، حيث أصبحت مثالا للرجل الابيض في كل مكان ، ويبدو ان هذا الوضع سيستمر للمائة سنة القادمة . والذين ليسوا بهذا الشكل بأمكانهم اخذ راحتهم من فكرة ان الدينا صورات لن تنتصر بالنهاية حيث ضنت بعضها بعضا وورث المتفرجون الاذكياء مملكتها ! وديناصوراتنا العصرية تقتل بعضها بعضا ، ولا تنجب في المتوسط اكثر من ولدين لكل زواج يعقد . فهم لا يستمتعون بحياتهم استمتاعا كافيا لترغيبهم في انجاب الاطفال . وعند هذا تدل الفلسفة العنيفة المفرطة العنف التي استمدوها من اسلافهم المتطهرين على انها غير ملائمة للدنيا . فمن تجعلهم رؤ يتهم للحياة يشعرون بقسط ضئيل من السعادة بحيث لا يبالون بانجاب اطفال ، قوم مقضي عليهم بيولوجيا ، ولا بد قبل انقضاء وقت طويل جدا ، ان يعقبهم قوم اكثر منهم مرحا وحبورا .

× × × × التطهرية : فرقة دينية ظهرت في انكلترا في القرن السابع عشر ودعت الى التشدد في الدين والى الطهارة ، واضطهدت أسرة ستيوارت اصحابها فهاجروا الى امريكا وكانوا سببا في استعمارها ـ المترجم

واعتبار المنافسة شيئا رئيسيا في الحياة هو حكم قاس وصارم جدا وأمر يعتمد الى حد ما على قوة العضلات والعزيمة . فهي غير صالحة لاقامة اساس ممكن للحياة لأكثر من جيل او جيلين على الاكثر ، وينتج بعد هذا الوقت الطويل اعياء عصبيا ، وشعور مختلف للهزيمة ، وهما تشدان لذات في مثل عنف وصعوبة العمل الشاق (منذ ان اصبح الاسترخاء غير ممكن) . وينتهي الامر بانقراض السلالة نتيجة للعقم . ولا يتسمم العمل فقط من فلسفة التنافس بل تتسمم الراحة بمقدار متكافىء . وسنشعر بالاحترام لذلك النوع من الهدوء الذي يعيد للاعصاب راحتها ، وعلاج هذا كله رهن بالاعتراف بنصيب للاستمتاع الهادىء في النمط المثالي المتوازن للحياة .

الفصل الرابع

السأم والإثارة

لم يعط السأم - برأيي - كعنصر أساسي في السلوك البشري سوى اهتمام ضئيل مما يستحق ، واني لا اعتقد انه من القوى المحركة العظيمة في الحقبة التاريخية كلها وشأنه في وقتنا الحاضِر اكثر من اي عصر مضى . ويظهر ان السأم من السمات الفارقة المميزة للبشر ، وتبدو الحيوانات التي في الاسر قلقة ، تذرع اقفاصها ذهابا وجيئة ، وتتثائب ولكنها بوضعها الطبيعي لا تعرف السأم فيما اعتقد ، أو ما يجاريه ، فهي في اغلب الاوقات تتوقع ظهور الاعداء وتترصدهم ، او تبحث عن الطعام ، او عن الاعداء والطعام معا ، وتمارس الجماع في بعض الاحيان أو تحاول الاستدفاء . وفي اقصى لحظات شقائها لا اتوقع لها ان تكون في حالة من السأم ؛ واعتقد ان القردة العليا تشبهنا في ذلك ، ولكني لم امارس العيش معها ، ولذا لم تتح لي فرصة اختبار هذه المسألة ، ومن أساسيات السأم انها تحوي على فوارق كبيرة ما بين الظروف الحالية وبين الظروف الاخرى الاكثر ملاءمة ، والتي فرضت نفسها بدون تراود في الافكار . ومن اساسيات السأم ايضا ان تكون افكار المرء غير كاملة التشغيل . اني اتصور الهرب من الاعداء الذين يحاولون القضاء على حياة المرء غير سار ، ولكنه من المؤكد انه غير مسئم . والانسان خليق الا يشعر بالسأم اثناء تنفيذ حكم الاعدام فيه ما لم يكن متمتعا بشجاعة اسمى من شجاعة البشر . وعلى هذا المنوال لم يحدث لاحد ان تثاءب وهو يلقي خطبته الاولى في مجلس اللوردات ، باستثناء دوق ديفوشاير الراحل الذي حظي باجلال سائر اللوردات نتيجة لذلك ! فالسأم في جوهره رغبة مانعة في وقوع احداث ، ليست مستحبة

بالضرورة او سارة ، بل مجرد ظواهر تمكن ضحية السأم ان يغرق ما بين الايام . فنقيض السأم ليس السرور ، بل الاثارة .

ان الرغبة في الاثارة عميقة الجذور في تكوين البشر ، ولا سيما عند الذكور منهم . واعتقد انها كانت في مرحلة القنص أسهل قناعة مما اصبحت فيما بعد ، فان المطاردة كانت مثيرة ، والحروب ايضا مثيرة ، وكذلك الأمر بالنسبة للحب . قد يخطر لرجل بربري ان يدبر ارتكاب اعتداء على امرأة بينما يكون زوجها نائم بجانبها ، عالما ان مصيره الموت فورا ان استيقظ الزوج ووجدهما على هذا النحو . هذه الحالة اخالها ليست مضجرة ، ولكن مع ظهور الزراعة بدأت الحياة تفقد طلاوتها ، اللهم بالنسبة للارستقراطيين طبعا ، الذين كانوا وما يزالون في مرحلة القنص . اننا نسمع الكثير عن رتابة الحياة الصناعية ، ولكني احسب رتابة وملالة الزراعة بالأساليب القديمة لا تقل عظمة عنها . واني على نقيض معظم الناس ممن يقولون بان عصر الآلة سبب السأم في هذا العالم . فساعات العمل بين الكادحين والاجراء ليست موحشة ، وفي ساعات المساء تتيسر مسليات عصرية شتى كانت مستحيلة في القرية الريفية على النمط القديم . ولنأخذ ثانية التغيير الذي طرأ على حياة الطبقة دون الوسطى ، ففي الزمن السالف بعد العشاء ، عندما تفرغ الزوجة والبنات من مهماتهن ، يجلس الجميع في حلقة ويقضون ما يعرف باللحظات العائلية السعيدة . ومعنى ذلك ان يخلد عميد العائلة للنوم ، والزوجة تحيك الصوف ، وتتمنى البنات لو انهن متن اوكن في اقصى تيمبوكتو Xtimluktu حيث لم يكن يسمح لهن بالمطالعة او مغادرة الغرفة ، لأن المفروض ان يتحدث الوالد اليهن ، وهذه مسرة عظيمة لجميع الاطراف المعنية ، ولكنه شيء نادر الحدوث . وحين يواتيهن الحظ ويتزوجن تسنح لهن الفرصة كي يفرضن على بناتهن يفاعة لا تقل سآمة عن صباهن الموحش . واذا لم يتزوجن تحولن الى عانسات . وهو مصير لم يكن يقل تعاسة عما ينزله المتوحشون بضحاياهم . ولا بد لنا ان نجعل هذا نصب

× تيمبوكتو : المدينة الرئيسية في مستعمرة السودان الفرنسية . افريقيا الغربية الفرنسية ـ المترجم

اعيننا . ونحن نقيم العالم قبل المائة او المائة وخمسين سنة الماضية . وعندما يتوغل احدنا في غياهب الماضي يجد ان السأم أشد قسوة . ولنتصور رتابة الشتاء في احدى قرى العصور الوسطى حيث كان الناس عاجزين عن القراءة والكتابة لأنه لم يكن لديهم الا شموع تنيرهم في الظلام ، ودخان نارها يملأ الحجرة الوحيدة التي يعيشون فيها . وقد كان من الصعب اجتياز الطرقات ولذا كان من الصعوبة ان يرى المرء احدا من القرى الاخرى . ولا بد ان السأم كعنصر لا يقل عن اي عنصر آخر من بين اسباب ممارسة اقتناص السحرة ، لأن ذلك كان اللعبة الوحيدة التي يمكن بها احياء امسيات الشتاء .

اننا اقل خوفا مما كان عليه اسلافنا ، ولكننا أشد خشية من السأم . لقد تمكنا من معرفة الاعتقاد في ان السأم ليس جزءاً من جبلة الانسان الطبيعية ، بل يمكن تجنبه بالسعي الدائب وراء الاثارة . والبنات في ايامنا هذه يكتسبن معاشهن ، ومعظم دوافعهن الى ذلك ان العمل يتيح لهن السعي وراء الاثارة او التسلية في المساء ، وبذلك يفلتن من الوقت العائلي السعيد الذي كان مفروضا على جداتهن . ان كل فرد يستطيع ان يعيش في مدينة من مدن الولايات الامريكية ، واولئك الذين ليس لديهم سيارة أو حتى دراجة نارية لتنقلهم الى السينما يمتلكون بالطبع الراديو×× في بيوتهم ، والشباب والشابات يتواعدون ويقابلون بعضهم البعض بدون أي صعوبة مما كان عليه حال اسلافهم هكذا ! وكل خادمة بيت تستمتع بليلة واحدة كل اسبوع تنال بها نصيب دسم من الاستثارة اكثر مما تظفر به احدى بطلات جين اوستن××× خلال رواية بكاملها ، وكلما صعدنا في المستوى الاجتماعي صار السعي وراء الاثارة اشد قوة . واولئك الذين لديهم الامكانيات يتنقلون بأستمرار من مكان لآخر يحملون معهم حيث يذهبون البهجة والمرح راقصين شاربين ، ولكنهم لبعض الاسباب يتوقعون دائما التمتع بها اكثر في مكان جديد . ولا بد لاولئك

×× لم يكن التلفزيون قد ظهر الى الوجود حين كتب هذا الكتاب ـ المترجم

××× جين اوستن (١٧٧٥ ـ ١٨١٧) كاتبة انكليزية من آثارها الحب والود ـ المترجم

الذين يكدحون لكسب معاشهم من معاناة بعض السأم في ساعات العمل ، اما من لديهم كفايتهم من اعمال بحيث يتحررون من الحاجة الى العمل فمثلهم الاعلى هو الحياة الخالية من السأم تماما . وانه لمثل اعلى نبيل ، ولا يمكنني ان اعيبه ، ولكني أخشى ان يكون كسائر المثل العليا أصعب في التحقيق مما يحسب المثاليون ، ومهما يكن من شيء ، فالصباح يبدو مملا بالقياس الى متعة المساء السابق ، وهناك مرحلة اواسط العمر ، وربما ايضا مرحلة الشيخوخة . ان الناس تفكر وهي في سن العشرين ان الحياة الحقيقية ستكون بعد الثلاثين . واني وانا في سن الثامنة والخمسين لا آخذ بهذا الرأي بصورة من الصور . ولعله من الحماقة والغفلة ان ينفق المرء رأسماله الحيوي مثلما ينفق رأسماله المادي . وقد يكون شيء من الاثارة عنصرا ضروريا من عناصر الحياة . والرغبة في النجاة من السأم رغبة طبيعية يعرضها جميع اجناس البشر كلما سنحت لهم الفرصة لذلك . وعندما ذاق المتوحشون الكحول لأول مرة على أيدي الرجال البيض وجدوا فيها اخيرا مهربا او خلاصا من سآمة الشيخوخة ، وكانوا ، ما لم تتدخل الحكومة لمنعهم ، يسكرون ... يبدون حتى الموت . وقد كانت الحروب والغزوات والقتل جميعها جزءا من محاولات الفرار من السأم ، حتى المشاجرات مع الجيران كانت مخرجا من السأم افضل من لا شيء . اذا السأم عنصر حيوي لدى الاخلاقي ، لأن نصف الآثام التي تُقدم عليها البشرية على الاقل سببها خشية السأم .

على ان السأم لا يمكن ان يعد شراً خالصا ، . فهناك نوعان من السأم ، اولهما مثمر والثاني عقيم . اما السأم المثمر فمصدره غياب العقاقير او عدم تعاطيها ، واما العقيم فمصدره غياب الانشطة الحيوية ، . ولا يمكنني القول ان العقاقير لا تقوم بدور جيد في الحياة اطلاقا . وهناك مناسبات يصف فيها طبيب حكيم المخدر . وإعتقد ان هذه المناسبات اكثر مما يخاله انصار التحريم البات . لكن الادمان على العقاقير المخدرة لا يجوز قطعا ان يترك للدوافع والميول الطبيعية بغير رادع او وازع ، وليس بمقدوري اقتراح علاجا للسأم الذي يغمر به

من تعود العقاقير او المخدرات حينما يحرم منها سوى الوقت . وما ينطبق على العقاقير والمخدرات ينطبق ايضا ضمن حدود معينة على جميع انواع الاثارة . ان حياة مليئة بالاثارة هي حياة منهكة تحتاج باستمرار الى منبهات اقوى تحدث الاثارة التي ساد الاعتقاد بانها جزء أساسي من اللذة . والانسان الذي تعود على الاثارة المفرطة ، مثله مثل الشخص المريض المتلهف للفلفل ، حتى أصبح في النهاية قادر على تذوق كمية من الفلفل التي تدفع أي شخص لاختناقه . وثمة عنصر أساسي للسأم لا يمكن فصله عن تجنب المزيد من الاثارة . وكثرة الاثارة لا تضر الصحة فحسب ، بل تضعف لذة تذوق جميع انواع الاثارة . وتحل الدغدغة محل الاكتفاء العضوي ، والبراعة محل الحكمة ، والمفاجآت الحادة محل الجمال . ولا ارغب ان امضي الى حد التطرف في الاعتراض على الاثارة ،فقدر معين منها صحي ، ولكنها ، شأنها في ذلك شأن كل شيء آخر ، مسألة كم . فقدر قليل من الاثارة يحدث رغبة ملحة او توقا شديداً ، وزيادة منها يحدث الاعياء او التعب . ومن المقومات الاساسية للحياة السعيدة اذن ان تتوفر للمرء قدرة معينة على تحمل السأم ، وهذه القدرة من الامور الواجب تعليمها للصغار .

ان جميع الكتب القيمة تحتوي على فصول مضجرة ، وجميع الحيوات العظيمة تحتوي في جوانبها على فترات ذات اهمية . تصور تعليق احد الناشرين الامريكيين الحديثين على العهد القديم لو افترضنا انه مخطوط عرض عليه لأول مرة ، وليس من الصعب التكهن ماذا ستكون ملاحظاته اذا كان في المقدمة على سبيل المثال (سيدي العزيز) فأنه سيقول « هذا الفصل تنقصه الاثارة ، ويفتقر الى ايضاح ، وليس بامكانك ان تتوقع من القارىء أن يهتم بمجرد سطر من الاسماء العادية لأشخاص تخبره عنهم القليل . لقد بدأت قراءة قصتك بأسلوب جيد ، وفي البداية كنت متأثراً جداً وشغوفاً ، وسيكون لك الرغبة المتزايدة لتلاوتها كلها . اختار النقاط الهامة واحذف الامور التي لا حاجة لها ، واعيد لي مؤلفك بعد ان تكون قد اختصرته لحد معقول» . وهكذا يمكن ان يقول

الناشر الحديث لأنه يدرك خشيه القراء الجدد من الأعباء ، وأنه سيقول نفس اشيء بالنسبة الى الكلاسيكيات الكونفوشيوسية ، والى القرآن الكريم والرأسمال لكارل ماركس× ، وجميع الكتب القيمة الاخرى التي ثبت انها أحسن ما كتب . ولا ينطبق هذا على الكتب فحسب ، بل ان الروايات العظيمة ايضا فيها فقرات مضجرة . والرواية التي تتألق من اولها الى آخرها من المؤكد انها ليست كتابا عظيما . وكذلك الأمر بالنسبة لحيوات الفطاحل من الناس حيث لا تكون مثيرة الا في لحظات عظيمة قليلة . وكان سقراط خليقا ان يستمتع بمأدبة بين الحين والحين ، ولا بد انه استمد رضا عظيما من خلال حواره بينما كان السم يأخذ طريقه الى جسمه ، ولكنه عاش معظم حياته في هدوء مع زوجته اكزنتية Xanthippe××،وكان ينهل علمه بعد الظهر ، وربما قابل القليل من الاصدقاء بالصدفة . ويقال ان كانت××× لم يبعد أكثر من عشرة اميال عن كونسبرغ Konigsberg×××× طيلة حياته ، . وبعد طواف داروين حول العالم قضى بقية حياته في بيته الخاص . وقرر ماركس بعد ان اذكى بضع ثورات ان يقضي بقية حياته في المتحف البريطاني . وخلاصة القول ان الحياة الهادئة سمة من سمات الرجال العظام ، وأن ملذاتهم لم تكن من النوع الذي يظهر مثيراً بالنسبة للغير . وما من انجاز عظيم يمكن تحقيقه بدون عمل دائب مستغرق وشاق ، وهكذا لا تبقى من قوة الفرد باقية كبيرة لانواع اللهو او التسلية المجهدة ، باستثناء ما يستخدم لتجديد الطاقة البدنية اثناء العطلات ، وكمثال على ذلك تسلق جبال الالب .

ويمكن ان تخدم المقدرة كمثال للتمتع بحياة متفاوتة البعد ، فهي احدى المهات الواجب اكتسابها في الطفولة . ويقع على الآباء العصريين القسم الأكبر

× كارل ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) اشتراكي الماني وفيلسوف . من آثاره الرأسمال ـ المترجم

×× اكزنتية : زوجة سقراط ، ضرب المثل بفظاظتها .

××× عمانويل كانت (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) فيلسوف الماني . ولد في كونسبرغ . من آثاره نقد العقل المجرد ـ المترجم

×××× كونسبرغ : عاصمة اقليم بروسيا الشرقية في المانيا ـ المترجم

من اللوم في هذا الصدد ، لأنهم يزودون اطفالهم بالكثير من انواع التسلية العابرة مثل المناظر والاشياء الجيدة للأكل ، ولا يدركون اهمية تشابه الايام على الطفل سوى في بعض المناسبات النادرة . ان ملذات الطفولة ينبغي ان تكون اساسا يقتبسه الطفل مما يحيط به من خلال بعض الجهد والابتكار . أما المسرات المثيرة التي لا تشمل في نفس الوقت بذل جهد مثل المسرح ، فينبغي ان تكون نادرة جدا . فالاثارة في طبيعتها مثل المخدر او العقار ، بمعنى ان الطلب عليها يزداد باطراد مع معاودة ممارستها ، والسلبية الجسمية اثناء الاثارة أمر معاكس للغريزة . فالطفل ينمو جيدا عندما يترك النبات الصغير في نفس التربة بدون ازعاج . وان السفر الكثير وتنوع الأنطباعات ليسا مقيدين للحدث ، ويسببان له اثناء نموه عدم القدرة على تحمل الرتابة المثمرة . ولست اعني بهذا ان للرتابة اي مزايا خاصة ، بل أعني فقط ان الاشياء الجيدة المعينة تكون غير ممكنة ما لم يكن هناك قدر معين من الرتابة . خذ مثلا مقدمة وردزورث× حيث هي واضحة لكل قارىء . ان القيمة في أفكار وشعور وردزورث غير ممكنة لشاب من السفسطائيين من ابناء المدن . وسيتحمل الولد او الشاب الذي لديه أهداف انشائية جادة قدرا كبيرا من الرتابة اذا وجد انها ضرورية للوصول الى غايته . ولكن الاهداف الانشائية او الاغراض الجادة البناءة لا تأتي بسهولة في ذهن الفتى اذا كان يعيش حياة لهو وتشتت ، ذلك ان افكاره في هذه الحالة ستكون متجهة على الدوام ناحية اللذة التالية اكثر من اتجاهها الى انجازات كبيرة . ولهذه الاسباب فان الجيل الذي لا يستطيع تحمل الأعباء سيكون جيلا من الاقزام ، لأنه جيل من الرجال الذين فصلوا عن عملية التقدم او التطور البطيء ، فذوى ووهن كل دافع حيوي ، كما هو حال الازهار المقطوفة الموضوعة في زهرية للزينة .

واني لا أحبذ لغة الالغاز لكني لست ادري كيف اعبر عما اعني بدون استخدام عبارات تبدو أنها شاعرية اكثر ، مما تبدو عبارات علمية . ومهما كانت

× وليم وردزورت (١٧٧٠ ـ ١٨٥٠) شاعر انكليزي ، من مؤلفاته الناسك ـ المترجم

رغبتنا في التفكير فنحن مخلوقات الأرض ، وحياتنا جزء من حياة الأرض ، ونحن نستمد غذاءنا منها ، شأننا في هذا شأن الحيوانات والنباتات . وايقاع دوران الارض بطيء ، والخريف والشتاء ضروريان لها ضرورة الربيع والصيف ، والراحة جوهرية فيها مثل الحركة . ويلزم للطفل ، اكثر مما يلزم للرجل ، ان يحتفظ ببعض الصلة مع مد وجزر الحياة الأرضية . وقد تكيف الجسم البشري عبر الأجيال على هذا الشكل ، وأوضح الدين شيئا من هذا في احتفالات عيد الفصح . لقد رأيت طفلا عمره سنتان كان يعيش في لندن ، أخذ لأول مرة للمشي في ضاحية خضراء . وقد كان الفصل شتاء ، وكل شيء مبلل وموحل ، ولم يكن هناك في نظر البالغ أي شيء يستوجب الفرح والسرور ، ولكن هذا الطفل نشأ عنده شعور غريب بالبهجة ، فركع على الارض المبللة ، ووضع وجهه على العشب وصدرت منه صيحات البهجة والحبور ، وكان سروره بدائياً بسيطا ، فالحاجة العضوية التي اشبعت عميقه جدا ، حتى ان من ضمرت لديهم او جاعت طويلا هذه الحاجة العضوية قلما يكونون اصحاء . وكثير من الملذات التي يمكن ان نعد المقامرة مثلا جيدا لها ، ليس فيها هذا الاتصال مع الأرض . ومثل هذه الملذات متى انقطعت تركت لدى الانسان شعورا ترابيا بالسخط وجوعا لايدري بالضبط ما هو ، كما ان هذه الملذات لا تأتي بشيء يمكن أن يسمى فرحا . اما الملذات التي تصلنا بحياة الأرض ففيها شيء يرضي اعماقنا ، ومتى انقطعت بقيت لنا السعادة التي جلبتها لنا ، مع العلم ان شدتها اثناء ممارستها والاستمتاع بها كانت اقل من تلك المسليات المثيرة الاخرى ، وبرأيي تسري الفوارق على جميع الاشياء بدون استثناء من أبسط شيء الى اكثر المهن تحضرا . فالطفل الذي تحدثت عنه ، ابن السنتين ، ابدى اشد الاسس الدولية الممكنة لأتحاد الحياة مع الأرض ، بيد ان مخيلة ارقى من هذه ترى في الشعر . فما يجعل شعر شكسبير الغنائي فائق المستوى انه مليء بمثل هذا المرح الذي جعل ذاك الطفل ابن السنتين يعانق العشب ويقبله . تأمل قطعتي « اصغي ، اصغي ، اللهو » أو « تعالوا الى هذه

الرمال الصفراء » وستجد في هذا الشعر التعبيري الحضاري نفس الشعور الذي لم يستطع الطفل التعبير عنه الا بصيحات نصف عجماء . ولك ايضا ان تتأمل الفرق بين الحب فقط ومجرد الجاذبية الجنسية . فالحب تجربة يتجدد وينتعش فيها وجودنا الكلي كما هو الوضع بالنسبة للنبات بالمطر بعد الجفاف . أما في الممارسة الجنسية بدون حب فلا يوجد شيء من هذا ، ومتى انتهت اللذة الوقتية لم يبق للانسان سوى التعب والاعياء والاحساس ان الحياة تافهة . ان الحب جزء من حياة الأرض ، واما الجنس بدون حب فليس جزءاً من حياة الأرض .

ان النوع الخاص من السأم الذي يقاسي منه سكان المدن العصريون مرتبط ارتباطا حميا بانفصالهم عن حياة الأرض ، مما يجعل حياتهم حارة ترابية وعطشى مثل الحجاج في الصحراء . اما الاغنياء فهم يعانون من خوف السأم أكثر مما يعانون من السأم نفسه ، ومن خوفهم من السأم المجدي يقعون في سأم أسوأ . والحياة السعيدة ينبغي الى مدى بعيد ان تكون حياة هادئة ، لأن في الجو الهادىء فقط تكمن الحياة السعيدة الحقيقية .

الفصل الخامس
التعب

يتكون التعب من انواع عديدة ، البعض منها يكوّن عقبات محزنة للسعادة اكثر من غيرها . وان التعب الجسماني المحض ، بدون ان يكون مفرطا ، اقرب الى ان يكون سببا من اسباب السعادة وهو يفض الى النوم الهادىء والقابلية الجيدة لتناول الطعام ، ويضفي الطعام او النكهة على الملذات والمسرات المتاحة في العطلات . وحين يكون التعب الجسماني مفرطا فانه يغدو شرا وبيلا . والفلاحات في جميع المجتمعات غير المتقدمة يهرمن في سن الثلاثين من عمرهن ، لأن العمل المنهك قد اعياهن . والاطفال في اول عصر الصناعة تأثر نموهم وكثيرا ما قضى على حياتهم كثرة العمل في سنوات عمرهم الاولى ، ولا يزال هذا يحدث في الصين واليابان حيث التصنيع لم يزل حديث العهد ، كذلك الى حد ما في الولايات الجنوبية من أمريكا . ان العمل الجسماني عندما يتخطى حدوده يكوّن عذابا قاسيا ، وكثيرا ما وصل التجاوز الى الحد الذي يجعل الحياة لا تطاق تقريبا . وفي أهم الأجزاء المتقدمة من العالم الحديث قل العمل الجسماني نوعا ما بسبب التحصينات المتقدمة انما هو أرهاق الاعصاب ، وهو نوع مستغرب الى حد انه منتشر جدا بين الطبقة الراقية ، ويقل ظهوره في اوساط الكادحين منه بين صفوف رجال الاعمال والمفكرين .

أن تجنب أرهاق الاعصاب في عصرنا الحاضر شيء عسير جدا . فالعامل في المدينة يتعرض في المقام الاول للارهاق طوال ساعات العمل ، ثم في الوقت الذي يقضيه ما بن العمل والبيت يتعرض للضوضاء . اجل انه يتعلم الا يسمع

معظمها بوعيه ، اي لا يشعر بسماعها ، بيد انها مع ذلك تنهكه ، بسبب الجهد اللاشعوري الذي يبذله كيلا يسمعها . وهناك نوع آخر يسبب التعب بدون ان نشعر به ، وهو الحضور المستمر للغرباء . فالغريزة الطبيعية للانسان مثل باقي غرائز الحيوانات الاخرى هي في تحري كل غريب من فصيلته بقصد تقدير هل يسلك معه اسلوب الصداقة او العداء ؟ وهذه الغريزة يتعود عليها اولئك الذين يسافرون تحت الارض في ساعات الازدحام، ونتيجة لهذه العادة يشعرون بغضب عام ضد جميع الغرباء الذين يتصلون بهم هذا الاتصال اللاارادي . ثم هناك الاسراع لادراك قطار الصباح ، مع ما ينجم عن ذلك من سوء الهضم . ويترتب على هذا انه عندما تحين ساعة بدء العمل اليومي في المكتب يكون هذا الشخص قد انهك اعصابه بالفعل ، وصار ميالا للنظر الى الجنس البشري نظرة سخط وضيق ! ويصل رب العمل الى حالة نفسية شبيهة بهذا ، فلا يساعد ذلك على تبديد او تغيير حالة الموظف النفسية ، ومن جهة اخرى يؤدي خوف الطرد من العمل على التصرف بما يوحي بالاحترام . ، فيضيف ذلك الى توتره العصبي . واذا سمح للموظفين مرة في كل اسبوع بشد اذني رب العمل او جذب انفه ليبينوا له وجهة نظرهم فيه ، فان حالتهم العصبية تركد وتستريح ، ولكن هذا الحل يحل مشكلة الرئيس العصبية لانه ايضا لا يخلو من المتاعب . ففي مقابل خوف الفصل من العمل بالنسبة للموظف نجد خوف الافلاس بالنسبة لرب العمل . اجل ان بعضهم من الضخامة بحيث يرتفعون فوق هذا الخوف ، ولكن كي يصلوا الى مركز كبير من هذا النوع كان عليهم ان يمروا عبر سنوات وسنوات من الصراع الفعال ، كانوا فيها يقظين لكل الاحداث التي تجري في جميع ارجاء العالم ، وان يفشّلوا مكائد جميع منافسيهم . ونتيجة لهذا كله تصبح أعصاب الانسان محطمة تماما عندما يتحقق النجاح الكامل ، وهكذا يتعود على القلق والهم ، بحيث لا يستطيع التخلص منهما بعد انقضاء اوانهما .
وهناك بالطبع اشخاص ورثوا الغنى العريض والاعمال الكبيرة ، على انهم ينجحون عادة في ان ينشئوا لانفسهم قلقا او هموما شبيهة تماما بالهموم التي كان

من الممكن ان يصابوا بها لو لم يولدوا اغنياء . وفي الرهان والمقامرة يقعون في غضب وسخط آبائهم ، وبقلة نومهم من أجل ملذاتهم يضعفون صحتهم ، وعندما يحين الوقت ليستقروا ، يصبحون غير قادرين على الاستمتاع بالسعادة كما كان آبائهم من قبل . ان اغلب المعاصرين ، سواء بارادتهم او بغير ارادتهم ، يعيشون حياة محطمة للاعصاب ، وهم باستمرار اشد تعبا وارهاقا من ان يقدروا على الاستمتاع .

ولنترك جانبا هؤلاء الناس الاغنياء الذين هم مجرد اغبياء ، ودعونا نعتبر الحالات العادية لاولئك الذين يكون عملهم مقرونا بالعمل المجهد الشاق لتحصيل العيش . ان الارهاق في مثل هذه الحالات عائد في المدى الكبير الى القلق او الهم ، ويمكن منع القلق باعتناق فلسفة افضل للحياة ، وبشيء من الانضباط او الترويض العقلي . ولعل اغلب الرجال والنساء لديهم نقص كبير في السيطرة على أفكارهم . وأعني بهذا أنه ليس بامكانهم التوقف عن التفكير في الموضوعات المقلقة في الاوقات التي لا يمكن فيها اتخاذ اي اجراء فيما يتعلق بتلك الموضوعات . والرجال يحملون معهم هموم اشغالهم الى الفراش ، وفي ساعات الليل ، وبدلا من اكتساب قوة جديدة لمواجهة المشاكل في الغد ، نجدهم يراجعون المرة تلو المرة في مشكلات ليس بامكانهم عمل شيء لها في الوقت الراهن ، . وهم في تفكيرهم هذا لا يتبعون طريقة تساعدهم على انتهاج خط سليم للسلوك في الغد ، بل أسلوب نصف جنوني تتسم به تأملات الارق المضطربة . ولا بد ان يعلق بهم في الصباح شيء من جنونهم الليلي ، فيحجب حكمتهم بتحطيم طبعهم ويجعل كل عقبة مثيرة للغضب . ان الرجل العاقل لا يفكر بمشاكله الا عندما يكون هناك جدوى من ذلك ، اما في الاوقات الاخرى فيفكر في أشياء أخرى ، او اذا كان الوقت ليلا فانه لا يفكر بشيء على الاطلاق . ولا اعني بهذا القول انه من الممكن أثناء ازمة كبرى ، كأن يكون الدمار متوقعا او عندما يكون هناك سبب قوي لشك الرجل في كون زوجته تخونه ، ان يتمكن المرء ، باستثناء قلة من ذوي العقول الرذينة ، أن يكف عن

التفكير في هذه المتـاعب عندما يجد انه لا سبيل الى عمل شيء بصددها ، على اني اريد القول انه من الممكن الكف عن التفكير في المتاعب العادية التي تقع في الايام العادية ، اللهم الا في الاوقات التي تتحتم فيها مواجهتها ، ومن المدهش الى حد بعيد ان السعادة والكفاءة يمكن زيادتهما ، بتدريب العقل السليم على الترتيب والنظام بحيث يفكر بما فيه الكفاية في امر ما في الوقت الملائم ، فهذا افضل من التفكير غير المتجانس في هذا الامر في الوقت غير المناسب ، أو في جميع الاوقات بدون تمييز . فعليك متى تم الحصول على جميع المعلومات المتعلقة بالموضوع ان توجه اليه افضل تفكير تستطيعه ، ومن ثم اتخذ قرارك بحـزم . وحين تتخذ القرار لا تعود عنه اللهم الا اذا وصل الى علمك عنصر جديد او قول حديث يغير الصورة ، وانه لشيء مرهق للمرء حين لا يستقر على رأي او قرار ، وليس هناك ما هو أشد عمقا من ذلك ايضا .

ان العديد من الهموم المقلقة يمكن تقبلها عند ادراكنا عدم اهمية الموضوع الذي يسببـه القلـق الشـديد . لقـد قدمـت بشبابـي عددا لا يستهـان به من المحاضرات العامة ، وفي باديء الامر كان كل جمهور من السامعين يفزعني ، فكان توتر اعصابي يجعلني اتكلم برداءة وتأتي خطبتي مشوهة جدا ، وكنـت اخشى من هذا المأزق كثيرا ، حتى انني كنت دائما اتمنى ان تكسر رجلي قبل الاقدام على تقديم المحاضرة ، وحال انتهائهـا اكون مرهقـا من عنف التوتـر العصبي . وتدريجيا ، عودت على الشعـور أنـه لا فرق اذا تكلمـت جيدا او رديئا ، فسوف يظل الكون على ما هو عليه ولن تخرب الدنيا في كلا الحالتين . ووجدت أنه كلما قل اهتمامي اذا تكلمت جيدا او رديئا ، كلما قل الكلام الرديء الذي اتكلمه ، وهكذا اخذ التوتر العصبي يقل تدريجيا حتى وصل تقريبا الى نقطة التلاشي . ولا شك ان قسما كبيرا من ارهاق الاعصاب يمكن معالجته على هذه الطريقة ، حيث اعمالنا ليست هكذا هامة كما نفترض عادة ، فنجاحنـا وفشلنا لا اهمية كبيرة لهما بعد كل شيء . وحتـى الاحزان الكبـرى يمـكن تخفيفها ، والمتاعب التي تظهر لنا كأنها ستضع نهاية لسعادة الحياة تضمحل مع

مرور الزمن الى ان يصبح من المستحيل ان نتذكر قساوتها الشديدة . ولكن فوق هذه الاعتبارات المركزية الذات تبقى الحقيقة في ان ذات الفرد ليست جزءا كبيرا من العالم . والانسان الذي بامكانه ان يركز افكاره وآماله على شيء اسمى لنفسه او يتجاوزها سيجد شيئا من السلام في متاعب الحياة العادية . وهذا شيء مستحيل على الاناني او الذاتي المحض .

اذا اخذنا علم صحة الاعصاب نرى انه اهملت دراسته اكثر مما ينبغي . اجل ان علم النفس الصناعي قد قام بتحريات تحليلية للارهاق واثبت حسب احصائيات دقيقة انه اذا ثابرت على عمل شيء ما مدة طويلة ، طولا كافيا شعرت بالتعب والارهاق ، وهي نتيجة يمكن الوصول اليها بدون الاشغال العلمي . ودراسة التعب التي يقوم بها النفسانيون تركزت بصورة رئيسية في التعب العضلي . وان كان هنا ايضا عدد معين من الدراسات حول التعب لدى اطفال المدارس ، ولكن هذا كله لا ينصب على المشكلة الرئيسية ، فالنوع الهام من التعب انفعالي او عاطفي دائما في الحياة الحديثة . والتعب الذهني المحض - شأنه في هذا شأن التعب العضلي المحض - يجد علاجه في النوم . وان اي شخص لديه قدر كبير من العمل الذهني الخالي من الانفعال - وعلى سبيل المثال مدقق الحسابات - يزول في نومه الليلي التعب الذي جرى له في ذاك اليوم . والضرر المعذو الى ارهاق العمل قلما يكون راجعا الى هذا السبب بالذات ، بل لنوع من القلق او الهم او الكرب . والمشكلة في التعب الانفعالي انه يتدخل ويتداخل مع سائر انواع التعب . وكلما زاد تعب المرء انفعاليا زادت صعوبة تمكنه من وقف هذا التعب . ومن العلامات التي تظهر عند قرب الانهيار العصبي الاعتقاد في أن عمل المرء هام لدرجة مفزعة ، واذا اخذ استراحة كافية ستجلب له أنواع المآسي . ولو كنت طبيبا لوضعت اجازة راحة لاي مريض يعتقد ان عمله هام . فالانهيار العصبي الذي يظهر انه ناتج عن العمل انما هو في الواقع - وفي جميع الحالات التي عرفتها شخصيا - ناتج عن بعض الاضطراب الانفعالي الذي يحاول المريض الهرب منه عن طريق الانهماك في

عمله . فهو يمقت ان يتحرك عمله لانه اذا فعل ذلك لم يعد لديه ما يسليه او يصرفه عن الافكار بسوء طالعه ، اي كانت هذه الافكار . وبالطبع قد يكون هذا الاضطراب ناشئا عن الافلاس ، وفي هذه الحالة يكون عمله بصورة غير مباشرة مقترنا بالقلق او الهم . ولكن ، حتى هذا القلق من المحتمل ان يقوده ليعمل طويلا حتى يختفي ادراكه ويأتي الافلاس ، وهكذا يسرع الافلاس اليه اكثر مما لـو عمل ساعات أقل . فالاضطراب الانفعالي في جميع الظروف وليس العمل هو الذي يسبب الانهيار .

وسيكولوجية القلق ليست بسيطة كما يخيل للمرء . لقد تحدثت فعلا عن النظام العقلي في عـادة التفكير في الأشياء في وقتها المناسب . وهذا له أهمية لانه يمكن المرء في البدء من اجتياز مرحلة عمله اليومي بأقل التـكاليف الـذهنية ، ولانه ثانيا يقدم علاجا للارق ، ولانه ثالثا ينمي كفاءة المرء وقدرته عند اتخاذ القرارات . الا ان هذه الاساليب ليست من النوع الذي يمس ما دون الشعور او اللاشعور ، وعندما يكون هناك اضطراب خطير لا شيء من هذه الاسـاليب يمكن ان يكون مجديا ما لم يتوغل الى ما تحت مستوى الوعي او الشعور . وهناك عدة دراسات قام بها النفسـانيون عن عمـل الشعـور في اللاشعـور . ولـكن اللاشعور له اهمية كبيرة في مسألة الصحة النفسية او الصحة العقلية ، ولا بد لنا من فهمه ان اردنا للمعتقدات او القناعات العقلانية ان تجيد عملها في مملكة اللاشعور . وينطبق هذا بصورة خاصة في شأن القلق او الهم . فمن السهل ان يقول الانسان لنفسه ان هذه الكارثة او تلك لن يكون وقوعها مزعجا جدا . ولكن ما بقي هذا المعتقد في رحاب الشعور الواعي فحسب ، فان تأثيرهـا في ساعات الليل يبقى معدوما ، ولن يمنع رؤ ية الاحلام المزعجة . وفي اعتقادي ان الفكرة الواعية او الشعورية يمكن غرسها او زرعها في اللاشعـور . ومـن الممكن القيام بعملية الدفن هذه عن سبق اصرار ، وبهذا ينساق اللاشعور الى القيام بالعديد من الأعمال النافعة . لقد وجدت مثلا اذا كان علي ان اكتب عن موضوع ما صعب ، علي أن افكر به جديا وأوجه اهتمامي الكلي اليه لساعات

قليلة أو ايام قلائل ، وبعد انتهائي من التفكير اصدر اوامري ـ ان صح القول ـ كي يمضي العمل تحت الأرض ، وبعد اشهر اعود اليه بوعيي فاجد ان العمل كله قد انجز . وكنت قبل اكتشافي هذه التقنية اقضي تلك الشهور الفاصلة بين التفكير والتنفيذ في قلق وهم ، لأني لم أكن احرز في هذه الفترة الفاصلة اي تقدم ، ولم يكن هذا القلق يقرب أوان حل المشكلة ، بل كان الزمن الفاصل يضيع سدى ، بينما استطيع الان ان اخصصه لاعمال اخرى . ويمكن احراز التقدم بطرق وأساليب عديدة بالنسبة لانواع القلق والهم . فعندما تتهددك كارثة ، فكر بامعان ما هو اسوأ ما يمكن حدوثه ، وما دمت قد واجهت هذه الكارثة المحتملة من سوية الامر الذي سيحدث ، اعط نفسك اسبابا سليمة للتفكير ، وستجد بعد كل هذا ان الكارثة ليست بهذا الامر المزعج ، حيث يتعرض لمثلها كل شخص له أهمية كونية . وعندما تأخذ الامر بهذه الجدية وتوجه لذاتك الامكانيات التي لديك ، « لن تتأثر بالامر لدرجة كبيرة » وستجد ان قلقك خف الى حد اعتيادي جدا ، ومن الممكن ان تلمس النجاح في تكرار ذلك مرات . وفي النهاية اذا لم تجابه مانعا لهذا ، ستجد ان قلقك اختفى كليا وحل مكانه نوع من الانتعاش . وهذا القسم اكثر تقنية لتجنب الخوف . والقلق نوع من الخوف ، وجميع اشكال الخوف ينتج عنها التعب او الارهاق . والانسان الذي يتعلم ان لا يشعر بالخوف سيجد تعب الحياة اليومية وقد تضاءل كثيرا . ويظهر الخوف الان باشد اشكاله الضارة عندما تكون هناك مصاعب لا نواجهها . وفي لحظات متناثرة تطفر الى عقولنا افكار مفزعة ، وتتوقف هذه الافكار في نوعياتها على الشخص ذاته ، وفي اغلب الاحيان يكون عند كل شخص ضرب من الخوف الكامن المتربص به ، فهذا خوفه يتجلى له بالسرطان ، وآخر خوفه كارثة مالية ، وثالث خوفه الكامن اكتشاف بعض الأسرار المخزية ، ورابع متألم خوفه الكامن او عذابه المقيم هو الحسد والغيرة ، وخامس ينتابه في الليل او يراود احلامه ان نار الجحيم التي حدثوه عنهـ في طفولته قد تتحقق بحذافيرها . ولعل جميع هؤلاء الناس

استخدموا الاسلوب الخاطىء للتصرف بمخاوفهم . فعندما تتوارد لاذهانهم يحاولون ان يفكروا بشيء آخر ، أو يبعدوا أفكارهم بالتسلية او بالعمل او بأي شيء آخر . ونرى الان ان كل نوع من الخوف ينمو لسوء عدم مواجهته ، والجهود التي تبذل لتحويل تفكير المرء من هذا الفزع الملازم له انما هي ضريبة تدفع لهول هذه الاشباح التي نصرف النظر عنها . على ان الطريقة المثلى للتعامل مع كل نوع من المخاوف ان نفكر فيه عقلانيا وبهدوء وبتركيز شديد ، الى ان يصبح عاديا لنا تماما . وفي نهاية الامر تذهب هذه الالفة بحدة الخوف ، ويصبح الموضوع كله ضمن دائرة السأم ، وتبتعد افكارنا عنه تلقائيا ، لا بمجهود ارادي كما ذكرنا ، بل عن عدم الاخذ بالموضوع . وان وجد المرء نفسه ميالا للتفكير المكتئب في اي موضوع ، مهما كان نوعه ، فخير ما يصنعه دائما ان يفكر فيه بصورة طبيعية ، او بمعنى اخر ، ان يرغم نفسه على عمق التفكير فيه ، الى ان يفقد الهوس الكئيب بهذا الموضوع قوته وأهميته .

واذا نظرنا الى الاخلاق الحديثة نرى ان نقص الاهتمام بها مسألة الخوف هذه ، فمن الامور المسلم بها ان الشجاعة السليمة ، ولا سيما في الحروب ، مطلوبة من الرجال . ولكن اشكالا اخرى من الشجاعة غير متوقعة منهم ، اما النساء فلا نتوقع منهن اي نوع من الشجاعة . وعلى المرأة الشجاعة ان تخفي كونها شجاعة اذا كانت تود التقرب من الرجال . وكذلك يساء الظن بالرجل الذي لديه الشجاعة بكل شيء عدا الشجاعة في مواجهة الخطر المادي او البدني . فعدم الأخذ بالرأي العام مثلا يعد بمثابة تحد ، والجمهور يعمل كل ما يستطيعه لمعاقبة المرء الذي يستهين بسلطانه ، وهذا كله نقيض لما ينبغي ان يكون . بل يجب ان نأخذ اي ضرب من الشجاعة ، في الرجال والنساء على السواء ، موضع التقدير ، على قدر تقديرنا بالشجاعة المادية لدى الجندي المحارب . وشيوع الشجاعة المادية لدى الشبان هي برهان على ان الشجاعة يمكن استحداثها استجابة للرأي العام الذي يتطلبها . واذا ما زودنا الشخص بمزيد من الشجاعة قل قلقه وهمه ، وبالتالي قل تعبه وارهاقه ، لان نسبة كبيرة

من الارهاق العصبي الذي يقاسي منه الرجال والنساء حاليا ، عائدا الى المخاوف الشعورية او اللاشعورية .

ان حب الاثارة مصدر دائم للارهاق ، واذا استطاع انسان ان يقضي فراغه بالنوم سيبقى محتفظا بلياقته ، ولكن ساعات عمله كئيبة مملة ، لذا يشعر بحاجة الى اللذة اثناء ساعات فراغه ، والمشكلة ان اللذة التي يكون من السهل الحصول عليها واكثرها جاذبية بمظهرها ، هي من النوع الذي ينهك الاعصاب . والرغبة في الاثارة عندما تتجاوز نقطة معينة تكون علامة اما على استعداد ملتو ، واما على شخص غريزي . واغلب الناس في ايامهم الاولى لزواجهم السعيد لا تشعر بحاجة الى الاثارة ، ولكن غالبا ما يؤ جل الزواج في العالم الحديث لمدد طويلة جدا حتى اذا صار ممكنا من الناحية المالية ، تكون الاثارة قد تحولت الى عادة لا تعيش جدتها الا لمدة قصيرة بعد الزواج . واذا سمح الرأي العام للناس بالزواج في سن الحادية والعشرين من غير ان تترتب على ذلك اعباء مالية كالتي يتطلبها الزواج حاليا ، فالعديد من الرجال سوف لا يسلكون طريق طلب الملذات التي تضارع في ارهاقها ارهاق العمل الذي يمارسونه . وان جعل ذلك ممكنا هو نوع ما غير اخلاقي كما ظهر ذلك من عقيدة القاضي لندسي الذي عانى الكثير من العار من خلال مهنة طويلة شريفة ، لاجل الذنب الوحيد الذي ارتكبه في رغبته حماية الشبان من التعاسة التي وصلوا اليها نتيجة لعزوبيتهم المتأخرة . وسوف لا استطرد في هذا الموضوع لانه يدخل ضمن باب الحسد ، الذي سأعالجه في الفصل التالي .

وبالنسبة للفرد الذي ليس بامكانه تغيير القوانين والانظمة التي يعيش ضمنها ، من الصعب عليه ان يواجه الموقف الذي خلقه وارسى دعائمه الاخلاقيون . ومن المستحسن ان نعي ان اللذات المثيرة ليست طريقا الى السعادة ما دام هناك مسرات مقنعة اكثر لا يزال غير مكترث بها . فالانسان سيجد صعوبة في تحمل الحياة بدون الاستعانة بالاثارة . والشيء الوحيد في مثل هذا الوضع الذي بامكان الانسان العاقل عمله هو اعطاء نفسه حدا

معينا ، لا أن يسمح لنفسه ان ينغمر في الملذات المنهكة التي تسبب الاضرار بصحته وتمنعه عن العمل . ان العلاج الجذري لمتاعب الشباب تنحصر في تغيير الاخلاقيات العامة . وعند ذلك سيعمل الشاب حسنا لتنعكس عنده الرغبة في ان يصل بالنهاية الى وضع يسمح له بالزواج ، وانه من الغباء ان يعيش قبل الزواج حياة تجعل سعادته في الزواج مستحيلة ، وهذا ما يمكن ان يحدث نتيجة لضعف اعصابه وفقدانه القابلية للملذات والتعب والارهاق .

ومن العلائم السيئة للارهاق العصبي انه يكون بمثابة حاجز بين الانسان والعالم الخارجي . فالانطباعات تصل اليه مغلقة ومبهمة ، ولا يلاحظ الناس الا اذا استثارته منهم انواع من الميل او الطرائف ، ولا يشعر بلذة من وجباته ، ولا من اشعة الشمس ، بل ينصرف الى الاهتمام العميق بموضوعات قليلة غير مبال بسائر الاشياء الاخرى . وهذا الوضع يجعل من المستحيل عليه ان يركن . وهكذا فان التعب او الارهاق يزداد بصورة مستمرة الى ان يصل الى درجة يحتاج معها حتما الى علاج طبي . وهذا كله في جوهره عقوبة له لانه فقد الاتصال بالارض ، ذلك الاتصال الذي تطرقنا اليه في الفصل السابق . ولكن كيف لمثل هذا الاتصال ان يبقى في المجموع الهائل لسكان مدننا الشاسعة الحديثة . ان ذلك ليس من الامور السهلة . ولهذا نجد أنفسنا على حدود مشاكل اجتماعية كبيرة ، ليس من غايتي بحثها في هذا الفصل .

الفصل السادس
الحسد

بالاضافة الى القلق ، ربما كان الحسد اقوى عوامل التعاسة . وعلي القول ان الحسد هو احد اهم الانفعالات الانسانية رسوخا وشيوعا . وهو ملازم للاطفال قبل بلوغهم السنة الاولى من عمرهم ، وعلى المربين ان يعالجوه برقة واحترام بالغين . فأدنى تفضيل لأحد الاطفال على حساب الاخر يلاحظها الطفل ويسخط عليها ويستاء منها . وتوزيع العدالة المطلقة الصارمة غير المتحولة يجب ان يكون دستور كل من يشرف على تربية الأطفال . ولكن الاطفال ليسوا اكثر صراحة الا بمقدار قليل جدا من الكبار من حيث التعبير عن الحسد والغيرة (التي هي شكل من اشكال الحسد) . والحسد منتشر شائع بين الكبار شيوعه بين الاطفال . خذ مثلا خادمات المنازل : انني لا ازال اذكر كيف ان احدى خادماتنا المتزوجات لما اصبحت حاملا ، قلنا انها ينبغي الا ترفع الاحمال الثقيلة ، وتعهدنا لها بالقيام بأي عمل من هذه الأعمال . وكانت النتيجة المباشرة لذلك انه لم تعد تقبل واحدة من الخادمات الاخريات بأن تحمل احمالا ثقيلة . ان الحسد من أسس الديمقراطية . فهرقليطس× Heraclitus قال بأنه لا بد من شنق جميع سكان مدينة افسوس×× Ephesus لانهم اقروا « ان لا يكون احدهم هو الاول والرئيس عليهم » . فالحركة

× هرقليطس : فيلسوف يوناني ، ولد في افسوس (٥٧٦ ق . م - ٤٨٠ ق . م) ومما يميز مولده ، اصل حياته الفريدة . من اقصى استعماق لفلسفته في احتقاره للجنس البشري . وقد اطلق عليه لقب الفيلسوف السوداوي - المترجم .

×× افسوس مدينة تقع اليوم في تركيا والى اهلها ارسل الرسول احدى رسائله . وفيها عقد المجمع الثالث المسكوني سنة ٤٣١ . وفي ضواحي هذه المدينة جرت حادثة اهل الكهف المعروفة - المترجم .

الديمقراطية في الدول الاغريقية لا بد ان تكون وليدة هذا الشعور . ويصدق نفس الشيء على الديمقـراطية الحديثـة . وهنـاك نظـرية مثـالية تجعـل من الديمقـراطية افضـل شكل للحكومـة ، واعتقـد ان هذه النظـرية صحيحـة وجيدة . ولكن ليس هناك مكان في السياسة العملية تقوى فيه النظريات على أحداث تغييرات كبيرة . وعندما تقع مثل هذه التغيرات الهامة تكون النظريات التي تبررهـا عبـارة عن تغـطية لانفعالها. والانفعـال الـذي امـد النظـريات الديمقـراطية بالقـوة هو بدون شك انفعـال الحسـد . اقـرأ مذكرات مدام رولان xxx التي صورت كثيرا على انها امرأة نبيلـة ملهمـة كرسـت حياتهـا لشعبها ، ستجد ان الذي جعل منها ديمقراطية متحمسة انهم ادخلوها الى قاعة الخدم عندما كانت تزور قصر احد الارستقراطيين .

والـواقـع أن الحسـد يلعـب دوراً خارقـا بـين النسـاء المحترمـات فـي العـادة . فـإن اتفق لـك انك كنت في المـترو ، ومـرت في دهليز العربـة امـرأة حسـنـة الهنـدام ، لاحـظ عندئـذ عيون النسـاء الأخريـات ،

فستجد ان كل واحدة منهن باستثناء من هن أحسن منها هنداما ، يوجهن انظارهن الفضولية الى تلك المرأة ويحاولن جاهدات أن يجدن فيها نقصا او عيبا . فحب تناقل الفضائح هو التعبير عن العداء العام : فكل قصة تتناول امرأة اخرى تؤخذ على اعتبار انها قصة صحيحة مهما كانت الدولة واهية ،

وكبار الخطاة ايضا يثيرون حسدا خفيا ، يدفع الناس ، حتى غير الفضلاء منهم ، الى التنديد بهم والرغبة في معاقبتهم على آثامهم . وهذا النوع من الفضائل هو بدون شك ثوابها . ولا بد من ملاحظة نفس الشيء بين الرجال ،

والفارق ان كل أمرأة تعتبر النساء الاخريات منافسات لها . بينما لا يشعر الرجال بمثل هذا الشعور الا بالنسبة للرجال الذين هم من نفس المهنة ، فهل

× × × جين ماري رولان : مدام رولان (١٧٣٤ ـ ١٧٩٣) سياسية فرنسية وست صالون ـ المترجم

شعرت بأنك كنت حكيما عندما اطريت فنانا امام فنان آخر ؟ وهل امتدحت سياسيا لسياسي آخر في نفس الحزب ؟ او عالمابالآثارالمصرية الى عالم آخر ؟ فان فعلت ذلك فالاحتمال مائة مقابل واحد ان تكون قد اثـرت عاصفـة من الغيرة . . وفي الرسائل المتبادلة بين ليبنزLeibeniz ×وهيوجيز Huyghens ×× هناك رسائل عديدة تبدي الاسف على اصابة نيوتن××× بالجنون . وقد ذكر في رسـائلهما بأن « لا شيء يضـير من عبقريتـه التـي لا تضاهي سوى فقـدان عقله » . وكان هذان العالمان يذرفان دموع التماسيح في رسائلهما المتبادلـة في انشراح جلي ! والواقع ان الحدث الذي كانا يتظاهـران بأبـداء الأسف عليه ويندبانه في رياء لم يكن له نصيب من الصحة ، وكان ظهور شيء على السطح كفيل لاظهار هذه الشائعة .

فمن بين خصائص الطبيعة البشرية العادية ، يعتبر الحسد اسوأها حظا . فالحسود لا يكف عن الحاق الضرر على من يحسده كلما استطاع الى ذلك سبيلا دون ان يخشى عقابا . ، وهو يشعر شخصيا بالاسى يعصر قلبه نتيجـة لهـذا الحسد .فبدلامن ان ينال اللذة او السرور بما في حوزة يده ، يحصد الالم بما في حوزة الآخرين . فاذا استطاع الى ذلك سبيلا فلن يدخر وسعـا في حرمـان الاخرين من اية مزاياهم ، فهو يعتبر حرمانهم منها كسبا له اغدق عليه تلك المزايا الشخصية . فاذا سمح لهذه الذاتية ان تنطلق من عقالها تصبح شديدة الخطر لجميع المزايا الحميدة والمهارات النادرة حتى ما تمثل منه في الاستخدام المفيد لكافة البشر . انه يقول لماذا يعمد الطبيب الى الذهاب لزيارة مرضاه في سيارة بينما يذهب العامل الى عمله سيرا على الاقدام ؟ ولماذا نسمح للباحث العلمي ان يقضي وقته في غرفة دافئة بينما على الاخرين ان يواجهوا تقلبـات الطقس ؟ ولماذا يعفى الموهوب الذي لموهبته الفذة نفع واهمية للناس جميعا ، من عناء خدمة نفسه في بيته ، او لماذا يحظى بالتقدير العام والتبجيل ؟ مثل هذه

× ويلهام ليبنز (١٦٤٦ ـ ١٧١٦) فيلسوف وعالم رياضي ـ المترجم

× × كريستيان هيوجنز (١٦٢٩ ـ ١٦٩٥) عالم رياضي للماني ، فلكي وعالم طبيعي ـ المترجم

× × × سير اسحق نيوتن (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧) فيلسوف طبيعي انكليزي ، مكتشف الجاذبية الارضية ـ المترجم

الأسئلة يوجهها الحسود لنفسه ولا يجد عنها جوابا مقنعا . ولحسن الحظ هناك في الطبيعة البشرية عاطفة بديلة ، ونعني بذلك عاطفة الاعجاب ، ومن يرغب في زيادة العاطفة البشرية عليه ان يتمنى زيادة الاعجاب والتقليل من الحسد .

ولكن ما هو علاج الحسد ؟ هناك علاج للقديس في نكران الذات ، وان يكن الحسد او الغيرة غير مستبعدين عن القديسين احيانا . واني لأشك فيما اذا كان القديس سمعان العموديST. Simeon Stylistes كان يشعر بسرور تام لو انه سمع عن قديس آخر ، استطاع ان يقف على عمود اطول منه حتى ولو كان ذلك العمود اقل عرضا . ولكن لندع القديسين جانبا ونخرجهم من حسابنا ، فالعلاج الوحيد للحسد لدى الرجال والنساء العاديين هو السعادة ، ولكن الصعوبة هنا ان الحسد نفسه عقبة كأداء في طريق السعادة . واعتقد ان الحسد وليد الشقاء والمتاعب في الطفولة . فالطفل الذي يجد أخا او اختا مفضلا عليه امامه نشأ فيه الحسد ، وعندما يكبر ويدخل مضمار العالم يبدأ في البحث عن المظالم التي هو من عداد ضحاياها، وسرعان ما يدركها على الفور في حالة وقوعها أو يتخيلها اذا لم تقع فعلا . مثل هذا الرجل شقي بدون ادنى ريب ، ويصبح مصدر ازعاج لاصدقائه الذين لا يمكن ان يكونوا من الحرص والحذر التامين بحيث يتجنبون الاساءات الخيالية ايضا . ومتى بدأ يعتقد ان لا احد يحبه ، يسبغ سلوكه شيئا من الحقيقة على اعتقاده هذا . وهناك سوء طالع آخر في عهد الطفولة يترك نفس الأثر وهو وجود والدين دون تحليهم بالعطف الابوي القوي ، من غير ان يكون له اخ او اخت موضوع محاباة . ، يبدأ الطفل يتصور بأن الاطفال في العائلات الاخرى يتمتعون بحب والديهم اكثر مما يتمتع هو بكثير . وهذا سيقوده الى كره الاطفال الآخرين ووالديه . وعندما يكبر يشعر

× القديس سمعان العمودي ولد في النصف الثاني من القرن الرابع في ضواحي انطاكية . انزوى في احد اديرة انطاكية متزهدا . ثم ابتنى له عمودا ضخما بين حلب وانطاكية اقام فيه اربعين سنة مبالغا في التقشف ، ثم احيط هذا العمود بقلعة سمعان التاريخية وهي قريبة من حلب وقد ضمت اربعة كنائس ـ المترجم .

انه بمثابة اسماعيل Ishmael ×× الابن المحروم المنبوذ . فبعض انـواع السعـادة عبارة عن حق من حقوق الميلاد ، والحرمان منها يحول الحياة الى مرارة وشقاء .

ولكن الحسود قد يقول : « ما جدوى القول بأن علاج الحسد هو السعادة ؟ فأنا لا يمكنني العثور على السعادة مع دوام شعوري بالحسد ، وتقول لي بأنني لا استطيع ان اتخلص من الحسد الا بعد ان اجد السعادة » . ولكن الحياة الواقعية لا تنطوي على مثل هذا المنطق ، فمجرد ادراك المرء اسباب مشاعر حسده عبارة عن خطوة واسعة يخطوها هذا الانسان نحو علاجه ، وعـادة التفـكير بمنطـق المقارنات عادة ضارة وخطرة . فعندما يحدث اي شيء سار فلا بد من الاستمتاع به الى اقصى حدود الاستمتاع دون الاخذ بالتفكير ان هذا الشيء ليس سارا مثل الذي لم نحصل عليه . فالحسود يقول : أجل انه ليوم مشرق مشمس ، ويوم من ايام الربيع . فالطيور تغرد والزهور اخذت تتفتح ولكنني اعلم ان الربيع في صقلية Sicily ××× اجمـل الف مرة من ربيعنـا هذا وان الـطيور في غابـات هليكون Helicon ×××× اعذب انشادا من طيورنا ،وان زهور شارون اجمـل بكثير من تلك التي في حديقتي » . وعندما تجول في خاطره هذه الافكار يشعر بان الشمس غدت معتمة ، وان تغريد الطيور لا معنى لها ولا تستحق ازهاره النظر اليها . فجميع مباهج الحياة ومسراتها الاخرى تصبح هي الاخرى بدون معنى لديه فهو خليق ان يقول لنفسه : « اجل ان حبيبتي جميلة واني احبها وهي تحبني ، ولكن اليست ملكة سبأ اجمل منها وابهى ! آه لو كانت لي الفرص التي اتيحت للملك سليمان » . ان جميع هذه المقارنات تدل على الغباء وقصر النظر . فسواء كانت ملكة سبأ أو احوال الجيران هما السبب في هذا التذمر وعدم الرضا فكلاهما بدون جدوى . فالرجل الحكيم حقا لا يقل فرحه بما لديه لان شخصا آخر اوتي ما يفوقه . فالحسد في الواقع شكل من اشكال الرذيلة . وهذه الرذيلة

×× اسماعيل : ابن ابراهيم من جاريته هاجر ـ المترجم

××× صقلية : جزيرة ايطالية كبيرة مساحتها ٩٩٢٥ ميل واقعة في البحر الابيض المتوسط ـ المترجم

×××× هليكون : سلسلة جبال في اليونان ، تقع بين بحيرة كوبيس وخليج كورنيث ـ المترجم

جانب منها خلقي والجانب الآخر ذهني ، وهي عبارة عن عدم رؤ ية الاشياء في ذاتها ومن حيث هي ، بل من حيث علاقتها بغيرها . ولنفرض مثلا اني اكسب راتبا يكفي لسد جميع حاجاتي ، فعلي ان اكون قانعا راضيا به ، ولكني اسمع ان شخصا ليس افضل مني يتقاضى ضعف ما اتقاضاه . واذا كان من طبعي الحسد فسرعان ما افقد الرضى والقناعة فيما اكسب ويأخذ الحسد ينهش قلبي بسبب تفكيري بالظلم الذي لحق بي . والواقع ان علاج كل هذا هو التنظيم العقلي وعدم التفكير بالافكار غير المجدية . ولكن ما الاجدر بالحسد من السعادة ، بعد كل هذا ؟ فاذا استطعت ان اشفي نفسي واتخلص من الحسد يمكنني الحصول على السعادة وبذلك انقلب من حاسد الى محسود . والرجل الذي راتبه ضعف راتبي يتعذب بدون شك لدى تفكيره بأن شخصا آخر يتقاضى ضعف ما يتقاضاه وهكذا دواليك ، فاذا ما ارتقيت للمجد يمكنك ان تحسد نابليون ولكن نابليون حسد قيصر وقيصر بدوره حسد الاسكندر والاسكندر في عقيدتي حسد هرقل الذي لا وجود له . ولهذا لا يمكنك الهرب من الحسد بواسطة النجاح فقط ، فهناك في التاريخ او الاساطير دائما رجل بلغ شأواً من النجاح لم تبلغه . ويمكنك التخلص من الحسد بالتمتع في مسرات الحياة السانحة لك ، وبقيامك بالعمل المنوط بك عمله وبتجنبك المقارنات التي تمر في خيالك فتصور لك الكذب حقيقة ، وان تكون سعيدا اكثر مما انت حقا .

والتواضع الزائد عن حده له علاقة وثيقة بالحسد . فالتواضع يعتبر فضيلة ، من ناحيتي ×وأنا أشك في ضرورة اخذ اشكاله المتطرفة بعين الاعتبار . فالناس المتواضعون يحتاجون الى قدر كبير من الثقة بالذات فهم غالبا لا يجسرون على القيام بالمهام التي هم اكفاء للقيام بها . ذلك ان المتواضعين يعتقدون ان الآخرين ممن حولهم اكثر منهم بريقا ولمعانا ، وبذلك يكونون تربة خصبة لمشاعر الحسد ، وبالتالي للشقاء والحقد ، ولكنني اعتقد من طرفي ان هناك الشيء الكثير الذي يمكن القيام به لحمل ولد من الاولاد على الاعتقاد بانه ولد

صالح . ولست اعتقد ان هناك طاووسا يحسد طاووسا آخر على جمال ذيله ، ذلك لأن كل طاووس مقتنع بأنه يمتلك اجمل الذيول في العالم . ونتيجة لهذا نعتبر ان الطواويس طيور مسالمة . تصور كيف تكون حياة الطاووس شقية لو ربوه على اساس انه من الشر والرذيلة ان يكون رأيه في نفسه حسنا . لو حدث هذا لكان الديك الرومي خليقا كلما رأى طاووسا آخر ينشر ذيله ان يقول لنفسه : « ينبغي الا اتصور ذيلي اجمل من ذاك فذلك الغرور بعينه ، ولكن آه ! كم اتمنى ان يكون ذيلي اجمل منه . ان ذلك الطائر مقتنع ببهائه ؟ فهل انتف بعضا من ريشه ؟ انني خليق عندئذ الا اخشى المقارنة به » . او ربما ينصب له فخا او كمينا ويتهمه بانه مستحق للعقاب لانه سلك سلوكا لا يليق بطاووس فاضل حسن التربية . ومن ثم يعتقد بصورة تدريجية بالمبدأ القائل ان الطواويس ذات الذيل الجميل تكون في معظم الاحوال شريرة ، وان على الحاكم العاقل في مملكة الطواويس ان يرفع مكانة الطائر المتواضع الذي ليس في ذيله الا ريش متناثر . ومتى استقر هذا المبدأ ، بدأ اعدام افضل الطيور ريشا وذيولا ، ويصبح الذيل الجميل مجرد ذكرى عفى عليها الزمن ! وهكذا يلبس الحسد المنتصر لبوس الفضيلة الخلقية . ولكن عندما يعتبر كل طاووس نفسه ابدع من سائر الطواويس ، فلا يكون هناك حاجة لمثل هذا الكبت . فكل طاووس يتوقع الفوز بالجائزة الاولى عند المقارنة ، وكل واحد منها معتد بريشه كما لو كان قد حصل فعلا على الجائزة .

والحسد مرتبط ارتباطا وثيق الصلة بالمنافسة . فنحن لا نحسد احدا على شيء نتخيل انه صعب الوصول اليه . ففي العصر الذي كان فيه السلم الاجتماعي ثابتا ، لم تكن الطبقات الدنيا تحسد الطبقات العليا ما دام الفاصل بين الاغنياء والفقراء شيئا يعتقد الناس انه ترتيب رباني . والشحاذون لا يحسدون اصحاب الملايين مع انهم بالطبع يحسدون الشحاذين الآخرين الاكثر منهم في التسول . فعدم استقرار الوضع الاجتماعي في العصر الحديث ، وعقيدة المساواة التي تنطوي عليها الديمقراطية والاشتراكية قد وسعت من مدى الحسد

وحدوده . وقد يعتبر هذا عندئذ شرا ولكنه شر لا بد من تحمله حتى نصل الى نظام اجتماعي اكثر عدالة . ومتى نظر الناس الى عدم المساواة نظرةعقلية ، عدوه ظلما ، الا اذا استند الشخص الى تفوقه المعنوي . وحين يرى الناس ان الاوضاع ظالمة فلا سبيل الى معالجة الحسد الناجم عن ذلك الا بازالة هذا الظلم . وطالما عصرنا عصر يلعب فيه الحسد اعظم الادوار ، فان الفقراء يحسدون الاثرياء والأمم الفقيرة تحسد الامم الغنية،والنساء يحسدن الرجال ، والنساء الفاضلات يحسدن النساء اللواتي وان كن غير فاضلات الا انهن لم يعاقبن على رذيلتهن . ومع ان الحسد هو القوة الدافعة الرئيسية التي تؤدي الى العدالة بين الطبقات المختلفة ، والامم المختلفة ، والاجناس المختلفة ، غير انه لا بد من القول بأن نوع العدالة المتوقعة نتيجة للحسد يحتمل ان تكون اسوأ الأنواع ، ونعني بذلك انه عبارة عن تقليل مناعم ولذات المحظوظين بدلا من ان يزيد في مسرات غير المحظوظين . فالعواطف التي تزرع الفوضى والاضطراب في الحياة الخاصة ، تؤدي الى الفوضى والاضطراب في الحياة العامة ايضا . فلا يظن انه بالامكان الحصول على نتائج طيبة من شيء شرير كالحسد ، وعلى اولئك الذين يرغبون في احداث تغييرات عميقة الجذور في نظامنا الاجتماعي وهم مدفوعون بالمثل العليا ، ان يأملوا بأن تقوم قوى اخرى غير الحسد لاحداث هذه التغييرات .

وجميع الاشياء الرديئة وثيقة الصلة بعضها ببعض ، واي شيء منها يحتمل ان يكون سببا في اي شيء من سائرها . وغالبا ما يكون التعب او الارهاق وليد الحسد . فعندما يشعر الانسان بأنه غير كفء للقيام بعمل ما يشعر بعدم رضى عام قد يتخذ صورة الحسد نحو اولئك الذين لا يتطلب عملهم مشقة ، واحدى وسائل التقليل من الحسد تكون في تقليل انقاص التعب والارهاق ، ولكن الافضل من ذلك كله استقرار الحياة التي تشبع الغريزة وترضيها . فالكثير من الحسد الذي يبدو مهينا محضا له اصل جنسي . والرجل السعيد في زواجه واطفاله قد لا يشعر بالحسد نحو الناس الاخرين لانهم اغنى منه او انجح ،

طالما يملك ما يكفيه لتنشئة اولاده على الشكل الذي يشعر بأنه الشكل الامثل . فعناصر السعادة البشرية بسيطة للغاية ، بحيث يعجز المحذلقون عن ان يقولوا فيما عداها ما الذي ينقصهم فعلا . فالنساء اللواتي تحدثنا عنهن في السابق واللواتي يحسدن كل امرأة حسنة الهندام ، هن بالتأكيد غير سعيدات في حياتهن الغريزية . والسعادة الغريزية نادرة في العالم الذي يتكلم الانكليزية ، ولا سيما بين النساء ، فالمدينة من هذه الناحية تبدو وكأنها ضلت طريقها . واذا اردنا التقليل من الحسد فلا بد من ايجاد الوسائل لمعالجة هذه الحالة . وإذا لم نتمكن من ايجاد هذه الوسائل تكون حضارتنا في خطر السير قدما في طريق الدمار في دوامة من الحقد . ففي الايام السابقة كان الناس لا يحسدون الا جيرانهم ، وذلك لانهم كانوا لا يعرفون اي شيء عن سواهم . اما الان ، وبواسطة التربية والصحافة ، اخذوا يعرفون الكثير بصورة تجريدية عن طبقات عريضة وفئات كبيرة من البشر ولا يعرفون عن افراده شيئا . وعن طريق الافلام السينمائية يخالون انهم يعرفون كيف يعيش الاغنياء ، ومن خلال الصحف يعرفون الشيء الكثير عن شرور الامم الاجنبية ومفاسدها . وعن طريق الدعاية يعرفون الشيء الكثير عن الذين يمارسون التفرقة العنصرية ضد من يختلفون عنهم من حيث لونهم . فالصفر يكرهون البيض والبيض يكرهون السود . وجميع هذه الكراهية قد تثيرها في رأيك الدعاية ، ولكن هذا التفسير سطحي بعض الشيء . فلماذا تنجح الدعاية في اثارة الاحقاد والضغائن وتفشل اذا ما ارادت نشر احاسيس الود ومشاعر المحبة ؟ والسبب في ذلك هو ان القلب البشري طالما اثرت فيه الحضارة الحديثة يميل الى الكراهية أكثر من ميله الى المودة والصداقة . وهو ميال الى الكراهية لانه ساخط ، ولانه يشعر انه في اعماقه وربما لا شعوريا قد فاته معنى الحياة ، وان الاخرين ربما كانوا حاصلين على ما لم يحصل عليه من المتعة . فمجموعة الملذات والمسرات الايجابية في حياة الانسان العصري اعظم بلا أدنى شك مما يماثله في المجتمعات البدائية ، غير ان الشعور بما قد يجيء به المستقبل قد ازداد اكثر من ذي قبل . فعندما تأخذ اولادك الى

حديقة الحيوان قد تلاحظ في عيون القردة تعاسة عظيمة غريبة وذلك عندما لا تقوم ببعض الالعاب الرياضية او بتكسير الجوز . وقد يخطر لنا انهم قد يعانون من الاسى والتحسر لانهم كانوا ينبغي ان يكونوا بشرا مثلنا ولكنهم لا يعرفون السر في ذلك . ففي طريق النشوء والارتقاء ضلوا طريقهم ، اما ابناء عمهم فساروا قدما بينما تخلفوا هم . ويبدو ان مثل هذا الهم والغم شق طريقه الى قلب الانسان المتحضر ، فهو يعرف ان هناك ما هو افضل منه في متناول يده تقريبا ، الا انه لا يعرف اين ينشده ولا كيف يجده . وفي غمرة يأسه يثور على اخيه الانسان الذي ضل هو الاخر وذاق الشقاء . لقد وصلنا في التطور الى مرحلة ليست المرحلة الاخيرة ، ولكن علينا ان نمر بها بسرعة ، واذا لم نفعل ذلك سيهلك معظمنا في الطريق وسيضل الاخرون في غابة من الشك والخوف ، بيد ان الحسد مع انه شر وخطير الاثار والنتائج ، لا يكون مصدره كله الشيطان . انه جزئيا التعبير عن الم بطولي ، هو ألم اولئك الذين يسيرون في الظلام على غير هدى ، وربما كانوا في الطريق الى مكان افضل للراحة . وربما كانوا في الطريق الى الموت والدمار . وفي غمرة هذااليأس بايجاد الطريق الصحيح ، على الانسان المتحضر ان يوسع قلبه كما يوسع عقله . عليه ان يتعلم كيف يتخلى عن الانانية حتى يحظى بحرية الكون .

الفصل السابع
الشعور بالاثم

تناولنا في الفصل الاول بعض الجوانب عن الشعور بالاثم ، اما الان فاننا نبحث الموضوع باسهاب ، كونه من اهم الاسباب النفسية الجوهرية في تعاسة حياة البالغين .

هناك علم نفس ديني تقليدي للاثم لا يمكن لاي عالم نفسي حديث ان يقبله . فقد كان البروتستانت يقولون ان الضمير يكشف لكل انسان ما هو الاثم ، اذا ما شعر بالاغراء او الغواية لفعله . واذا اقترف مثل هذا العمل قد يختبر احد شعورين مؤلمين ، احدهما ويدعى الندم ولا يترتب عليه فضل والاخر يسمى التوبة ، وهو يؤدي الى محو الذنب ، ففي البلدان البروتستانتية حتى اولئك الذين فقدوا ايمانهم الديني استمروا لبعض الوقت على قبول النظرية الارثوذكسية في الاثم مع تعديل صغير او كبير فيه . اما في ايامنا هذه فالفضل يرجع جزئيا الى التحليل النفسي في تحولنا الى الرأي المناقض لهذا تماما . فلا يرفض غير الارثوذكس النظرية القديمة في الاثم فحسب ، بل يعتبر الكثير من الارثوذكس هذا الرفض صحيحا . فالضمير لم يعد شيئا غامضا يمكن اعتباره على هذا الاساس صوت الرب ، واننا نعلم بان الضمير يحظر اعمالا منوعة في اجزاء مختلفة من العالم ، ويتفق دائما في كل مكان بما يوافق العادات العشائرية او القبلية . فما الذي يحصل عندما يخزي الانسان ضميره او يؤنبه .

ان كلمة ضمير تشمل في الواقع مشاعر عديدة مختلفة ، وابسط هذه الخوف من ان يفتضح امره . واني على يقين ايها القارىء انك عشت ولا بد حياة لا غبار

عليها . ولكن اذا سألت شخصا قام بعمل ما يعاقب عليه اذا ما كشف امره ، ستجد عندما يكون الكشف محققا بان هذا الانسان سيعلن توبته . وانا لا اقول بأن هذا ينطبق على اللص المحترف الذي يتوقع شيئا من العقاب في السجن كجزء من نتائج الحرفة . ولكن هذا ينطبق على المسيء المحترم ، مثل مدير المصرف الذي يخون الامانة في لحظة ضيق او الكاهن الذي اغوته عاطفته الى اقتراف مخالفة او شذوذ شهواني . ومثل هوءلاء الناس يمكن ان ينسوا جرائمهم عندما يشعرون بان جريمتهم لن تفتضح . ولكن عندما يكشف امرهم او عندما يوشك امرهم ان ينكشف يتمنون لو انهم كانوا اشد تمسكا بالفضيلة . وهذا يولد فيهم شعورا بعظم خطيئتهم . ويقرب من هذا الشعور ، الخوف من مصير المنبوذين من القطيع . فمن يغش في لعب الورق او يتأخر عن دفع ديونه لا يملك في نفسه ما يمكنه من مقاومة سخط القطيع عندما ينكشف امره . فهو في هذا يختلف عن المبتدع الديني والفوضوي والثوري الذين يشعرون ان المستقبل لهم وانهم سوف ينالون شرفا وتمجيدا مهما كان مصيرهم في الوقت الحاضر . وهؤلاء الناس رغم عداء القطيع لهم لا يشعرون بالاثم . اما من يقبل تمام القبول اخلاقيات القطيع في الوقت الذي ينتهكها فيه فانه يعاني من شقاء عظيم عندما يفقد اعتباره . فالخوف من هذه الكارثة او الالم الذي يقاسيه منها اذا ما وقعت قد يسبب له بسهولة رؤية هذه الافعال التي اقدم عليها آثمة في حد ذاتها .

لكن الشعور بالاثم في اهم اشكاله وصوره شيء عميق الجذور . انه شيء له جذوره في اللاشعور . ولا يبدو في الوعي في صورة الخوف من سخط الناس عليه فهناك افعال يدينها الوعي بانها اثم لغير سبب ظاهر للمستبطن . وعندما يقترف الانسان هذه الاعمال يشعر بعدم ارتياح دون ان يعرف السبب . فيتمنى لو يكون ذلك الانسان الذي يستطيع ان يتجنب ما يعتقد انه آثم . فهو يعجب باخلاق وفضائل اولئك الذين يعتقد بنقاء قلوبهم . ويعترف بدرجات متفاوتة من الندم انه ابعد ما يكون عن القداسة . وقد يكون تصوره او مفهومه للقداسة

مستحيل التحقيق في الحياة اليومية العادية ، ونتيجة لذلك يمضي في حياته حاملا احساس الاثم ، شاعرا ان افضل اوقاته هي لحظات الندم والتوبة الطاغية .

ومصدر هذا كله في جميع الاحوال هو التعليم الخلقي الذي تلقاه الانسان قبل بلوغه السادسة من عمره على ايدي امه او مربيته . فقد تعلم قبل هذه السن ان الحلف او السباب شر ، وانه يستحسن ان يستخدم أليق الالفاظ التي لا تخدش الحياء ، وان شرب الخمر من مزايا الناس الاشرار ، وان التدخين لا يتفق والاخلاق الراقية او الفضيلة . وينبغي على الانسان ان لا يكذب ابدا . وان الاهتمام بالاعضاء التناسلية شيء مكروه . وكان يعلم ان هذه الاراء تمثل رأي والدته ، ولذا اعتقد انها تعاليم خالقه . فقد كان يعتبر عطف مربيته عليه في حالة اهمال والدته من اهم مسرات الحياة ، وانه لا يمكن تحقيق ذلك اذا اقترف اثما في حق القانون الخلقي . ولهذا اخذ يربط بغموض ورعب اي تصرف لا توافق عليه امه او مربيته وبين شيء رهيب او فظيع يحدث له . وبالتدرج ، عندما ايفع ، نسي مصدر هذا القانون الخلقي والعقاب المقرر له في حالة الخروج عليه . ولكنه لم يتخل تماما عن هذا القانون الخلقي ولم يكف عن الشعور ان شيئا مخيفا قد يجري له اذا ما خرقه .

واقسام كبيرة جدا من التعاليم الخلقية التي لقنها في طفولته خال من كل اساس عقلاني ، ولا يمكن تطبيقه على تصرفات الناس العاديين . فالانسان الذي يستعمل ما يطلق عليه « لغة بذيئة » مثلا ليس من الوجهة العقلانية اسوأ من الانسان الذي لا يستعملها . ومع ذلك فكل امرىء في الواقع ، يحاول ان يتصور قديسا خليق ان يعد الامتناع عن السباب امرا جوهريا . واذا ما نظرنا الى هذه القضية من وجهة عقلية وجدناها تافهة . ونفس الشيء ينطبق على الكحول والتدخين . ففيما يخص الكحول ، نرى استهجانها غير وارد في جنوب اوروبا . ولا اجد لذلك الاستهجان سببا من التقوى المسيحية ، لانه من المعروف ان السيد المسيح والرسل شربوا الخمر . اما فيما يتعلق بالتدخين ، فمن السهل اتخاذ موقف سلبي منه على اساس ديني ، طالما كبار القديسين كانوا قد

عاشوا قبل اكتشافه . ولكن الرأي القائل ان القديس لا يمكن ان يدخن ، يستند الى انه ما من قديس يقدم على عمل كل غرضه منه لذته الخاصة . وهذه النظرة التقشفية الزهدية في الاخلاق العادية قد غدت لا شعوريا ، بيد انها انماط شتى ، مما يجعل قانوننا الخلقي لا عقلانيا . وفي اي اخلاق عقلانية سيكون محمودا ان نمنح اللذة لكل انسان ، بما في ذلك نفسك ، بشرط الا يكون هناك في مقابلها ألم يعادل او يفوق عليها لك او لسواك . فالانسان الامثل اذا ما تخلصنا من النظرة الزهدية ، هو الانسان الذي يسمح بالاستمتاع لكل الاشياء الطيبة عندما لا يكون هناك اذى او ضرر يرجع على هذه المتعة ، هذا اذا ما تخلصنا من زهدنا . ولناخذ ثانية مسالة الكذب . اني لا انكر ان في العالم من الاكاذيب اكثر مما ينبغي ، وانه من الافضل لنا ان نسعى الى تعميم الصدق ،ولكني لا انكر ان للكذب مبرراته في بعض الظروف . ففي احدى نزهاتي في الريف رأيت ثعلبا متعبا في آخر مراحل الاعياء ولكن مع ذلك كان يدفع نفسه دفعا الى الركض . وبعد دقائق قليلة رأيت الصيادين الملاحقين له ، وسألوني عما اذا كنت قد رأيت الثعلب ، فاجبتهم اني رأيته ، وعاودوا السؤال عن الجهة التي هرب اليها ، فكذبت عليهم وانا لا اشعر باني سأكون رجلا أفضل لو تكلمت الصدق .

ولكن في نطاق الجنس تبدو التعاليم الخلقية الاولى اشد ما تكون ضارة . فاذا تلقى احد الاطفال التربية التقليدية على يد ابوين ومربيات صارمين ، يكون الارتباط بين الاثم والاعضاء الجنسية وثيقا قبل بلوغه السادسة من العمر ، بحيث يصعب معها التخلص من هذا الارتباط فيما يلي ذلك من حياته تماما . ويقوى هذا الشعور ويرسخ بعقدة أوديب× لان احب النساء الى الطفل هي المرأة التي يستحيل ان تكون له بها الحرية الجنسية . ولهذا يشعر الكثيرون من البالغين ان النساء تفسدهن العلاقات الجنسية ، ولا يمكنهم احترام

× عقدة أوديب : نسبة الى (اوديب) في القصة اليونانية القديمة (أوديب الملك) والذي قتل اباه وتزوج من امه دون علم منه ، فلما علم بذلك فقأ عينيه .ـ المترجم .

زوجاتهم الا اذا كن يكرهن الممارسة الجنسية . ولكن الرجل الذي يجد زوجته باردة يسعى بغريزته الى ارضاء شهواته الغريزية لدى غيرها . ولكن ارضاء شهواته الغريزية يتسم بشعور الاثم بحيث لا يمكن ان يسعد في اي علاقة له مع اية امرأة سواء عن طريق الزواج او غيره . ونفس الشعور يخامر المرأة التي تعلمت كي تكون « طاهرة » . ففي علاقاتها الجنسية مع زوجها يخامرها نفور غريزي وتخشى من الشعور باي لذة من هذه العلاقات . ولكن شعور النساء في ايامنا هذه اقل عما كان عليه قبل خمسين عاما . ولا بد من القول انه بالنسبة للمتعلمين من الرجال ، اصبحت الحياة الجنسية اكثر تعقيدا واشد التواء بشعور الاثم منها لدى النساء .

لقد بدأ الناس يدركون ما تنطوي عليه الثقافة الجنسية التقليدية من شرور بالنسبة للصغار ، ولكن ليس السلطات العامة طبعا . فالقاعدة الصحيحة بسيطة جدا : الى ان يصل الطفل الى سن البلوغ لا تعلمه او تعلمها اي اخلاق جنسية مهما كان نوعها ، وتجنب ترسيخ الفكرة القائلة ان هناك اشمئزاز من وظائف الجسم الطبيعية . فكلما اقترب الوقت الذي يصبح فيه التثقيف الاخلاقي ضروريا ، يجب الاحتراس في ان يكون ذلك معقولا وان يعطى الدليل المعقول في كل نقطة . ولكني لا اريد ان اتحدث عن التربية في هذا الكتاب . ان اهتمامي منصب في هذا الكتاب على اكثار ما يمكن ان يصنعه المراهق لتقليل الآثار السيئة للتربية غير الحكيمة التي تؤدي الى الشعور اللاعقلي بالاثم .

فالمشكلة هنا في عينها التي واجهتنا في الفصول السابقة . ونعني بذلك اكراه اللاشعور على ملاحظة المعتقدات العقلانية التي تتحكم بافكارنا الواعية . فعلى الناس الا يسمحوا لانفسهم ان يكونوا تحت رحمة مزاجهم المتقلب ، معتقدين بشيء تارة وبشيء آخر مرة أخرى . ان الشعور بالاثم يبرز دائما على الخصوص في اللحظات التي يضعف فيها الوعي بسبب التعب او الارهاق او المرض او المسرات او اي سبب آخر . وما يشعر به الانسان في مثل هذه اللحظات

(باستثناء حالة السكر) من المفروض انه كشف او الهام مصدره ذاته العليا « لقد مرض الشيطان ولكنه قد يغدو قديسا » . ولكن من السخافة ان نفترض ان لحظات الضعف تتيح لنا من البصيرة اكثر مما تتيحه لنا اوقات القوة . ففي لحظات الضعف من المستحيل مقاومة الايحاءات الطفلية ، ولكن ليس هناك ما يدفعنا اطلاقا الى اعتبار هذه الايحاءات افضل من معتقدات الانسان البالغ عندما يكون مالكا لجميع ملكاته وقواه النفسية . بل الامر على العكس من ذلك تماما : فما يؤمن به الانسان بكل قلبه وعقله عندما يكون نشيطا ينبغي ان يكون مقياسا لكل ما يؤمن به في جميع الظروف والاوقات . ومن السهل التغلب على الايحاءات الطفولية للاشعور ، بل وتغيير محتوياته ، وذلك باستخدامنا اسلوبا (تكتيكا) صحيحا . فعندما تبدأ الشعور بالندم لعمل اتيته ، افحص اسباب شعورك بالندم وحاول ان تحمل نفسك على الاعتراف بسخفه ، دع اعتقادك الواعي يصبح واضحا جليا بحيث يكون مؤثرا في لا شعورك تاثيرا يكفي لمواجهة الاثار التي تركتها مربيتك او امك فيك عندما كنت طفلا صغيرا . ولا تكتف بالتأرجح بين لحظات العقلانية ولحظات اللاعقلانية (الطيش) دقق في اللاعقلانية عن كثب مصمما على عدم احترامها ولا تجعلها تسيطر عليك . فعندما تبعث فيك افكارا تافهة او احاسيس في وعيك اقتلعها من جذورها وارفضها . ولا تسمح لنفسك ان تصبح مخلوقا متأرجحا بين العقل وبين السخافة والحماقة الطفلية . ولا تخف ذكرى اولئك الذين رتبوا طفولتك وهيمنوا عليها . لقد بدوا لك في ذلك الحين اقوياء حكماء لانك كنت ضعيفا واحمق . ولكنك لست الان هذا او ذاك . فمسؤ وليتك ان تمتحن قوتهم وحكمتهم الواضحتين ، لترى هل تستحقان منك هذا التوقير الذي لم تزل تسبغه عليهما بحكم التقاليد . اسأل نفسك جديا عما اذا كان العالم هو المكان الافضل الذي يتلقى فيه الصغار التعاليم الخلقية التقليدية ، مع اغفال كل ما يتعلق للمخاطر الخلقية الواقعية التي يتعرض الانسان البالغ للوقوع فيها . فما هي اذن الافعال الضارة التي يغرى الانسان العادي على القيام بها ؟ انها في ممارسة التحايل في

مثل هذه الاعمال التي لا يلقى فاعلها عليها عقابا ، والقسوة في معاملة المستخدمين والعمال ، ومعاملة الزوجة والاولاد معاملة قاسية . والحقد على المنافسين والايقاع بهم ،! والضراوة في النزاع السياسي ، هذه هي في الواقع الخطايا الضارة حقا التي تسود عالم المواطنين المحترمين ، او الجديرين بالاحترام . ومن خلال هذه الخطايا ينشد الانسان الشقاء في دائرته الخاصة ، ويشارك في تهديم الحضارة . ومع هذا ، فليست هذه هي الاشياء ، وهو مريض ، التي تجعله يعتبر نفسه منبوذا ، لا يستحق الخطوة الالهية ، وليست هذه هي الاشياء ، التي تجعله في احلامه المزعجة يرى امه تنظر اليه نظرة تأنيب . فلماذا اذن هذا الانفصال بين اخلاقياته اللاشعورية وبين العقل ؟ ذلك لان الاخلاق التي كان يؤمن بها هي نتيجة من اشرف على تربيته اثناء الطفولة . حيث كانت سخيفة وغبية لانها لم تكن نتيجة دراسة واجب الفرد نحو المجتمع ، ولانها كانت تشتمل على مجموعة غريبة من التحريمات اللاعقلية ، وتتضمن في داخلها عناصر مرضية مستمرة من المرض الروحي الذي كانت تعاني منه الامبراطورية الرومانية المنهارة . فاخلاقنا الاسمية صاغها الكهنة والنساء المستعبدات عقليا . لقد أزف الوقت الذي يتوجب فيه على الناس الذين قاموا بدور عادي في الحياة العادية في العالم ان يتعلموا كيف يعصوا هذه الحماقات المرضية .

ولكن اذا ما اريد لهذا العصيان ان ينجح في تحقيق سعادة الفرد وفي تمكين الانسان ان يعيش وفق مستوى معين لا ان يتذبذب بين مستويين ، فلا بد ان يفكر ويشعر شعورا عميقا بكل ما يمليه عليه عقله السليم . فمعظم الناس الذين يرمون جانبا بصورة سطحية جميع المعتقدات الخرافية المنحدرة اليهم من طفولتهم ، يظنون انه لم يبق ما يجب ان يفعلوه . انهم لا يعلمون ان هذه المعتقدات الخرافية لم تزل كامنة تحت السطح الظاهري للوعي او الشعور ، فمن الضروري ، متى توصل الى اقتناع عقلي من التمسك به ومتابعة نتائجه ، وان يبحث في دخيلة نفسه عما اذا كان هناك معتقدات تتعارض وما يؤمن به

لانها من رواسب الماضي . وعندما يقوى الشعور بالاثم كما هو من حين لآخر ، فلا بد من معاملته لا على أنه كشفا او وحيا ودعوة الى امور اسمى ، ولكن على اعتبار انه مرض وضعف ، ما لم يكن نتيجة عمله يدينه الاخلاقي العقلاني . ولا اقصد بهذا ان يكون المرء مجردا من الاخلاقيات ، بل أريد منه فقط ان يتخلص من الاخلاق الخرافية ، وهو امر مختلف تماما عن الامر الاول .

ولكن حتى في حالة تجاوز الانسان قانونه العقلاني الخاص ، فاني لست على يقين في ان الشعور بالاثم افضل وسيلة للوصول الى طريقة افضل للحياة . حيث ان في الشعور بالاثم شيئا دنيئا ، شيئا ينقصه احترام الذات . ولم يثمر فقدان احترام الذات خيرا لاي انسان قط . فالانسان العقلاني ينظر الى اعماله غير المرغوب فيها كما ينظر الى افعال غيره من هذا النوع ، باعتبارها اعمالا وليدة بعض الظروف ، وان عليه ان يتجنبها ، اما على اعتبار انها غير مرغوب فيها ، او كلما امكن هذا ، بتجنب الظروف التي ادت اليها .

والواقع ان الشعور بالاثم الذي لا يمكن ان يكون السبب في الحياة الصالحة ، هو في الواقع على العكس من ذلك تماما . انه يجعل الانسان تعيسا ويشعره بالدونية . ولانه تعس سيلقى على الاخرين مطالب مسرفة ، الامر الذي يحول دون استمتاعه بالسعادة في علاقاته الشخصية . اما الشعور بالدونية فانه يجعله يحقد على من يبدون له أرقى منه . وسيجد الاعجاب صعبا او الحسد سهلا ، ويغدو على العموم انسانا مكروها ، مما يؤدي الى تزايد عزلته ووحدته . اما المعاملة اللطيفة الكريمة نحو الاخرين ،فانها لا تجعله يشعر بالسعادة فحسب ، بل تكون مصدر اسعاد الاخرين . ولكن قلما يشعر الانسان الذي يخامره الشعور بالاثم بمثل هذا الشعور ، انه غالبا ما يكون وليد الاعتماد على النفس والاتزان . ومثل هذا يمكن تسميته بالتكامل العقلي ، واعني بذلك جميع طبقات طبيعة الانسان من شعور وما دون الشعور ولا شعور التي تعمل سوية بتناسق ، وليست مشتبكة في معركة دائمة . ووجود مثل هذا التناسق ممكن في معظم الحالات وذلك عن طريق التربية الحكيمة منذ البداية .

ولكن في حالة التربية التي لا تنطوي على الحكمة ، فالعملية تكون اصعب . انها العملية التي يحاولها التحليل النفسي . ولكني اعتقد انه في حالات كثيرة يستطيع المريض ان يقوم بالعمل الذي يتطلب في كتير من الحالات مساعدة الاخصائي . فلا تقل : « ليس لدي وقت كاف لمثل هذه الاعمال النفسانية ، فحياتي مزدحمة بالاعمال ، ولا بد لي من ترك شعوري لمكره » . فما من شيء ينقص السعادة والكفاءة الشخصية مثل انقسام الشخصية وازدواجها . فالوقت الذي ينقصني في ايجاد تناسق وتوازن بين مختلف اجزاء الشخصية وقت مفيد ، ولست اعني بهذا ان على الانسان ان يخصص ساعة في اليوم لفحص نفسه ، فهذه في رأيي ليست الطريقة المثلى لانها تزيد في شعور الانطواء على النفس الذي هو جزء من المرض المراد علاجه . فالشخصية المتناغمة تتجه الى الخارج لا الى الداخل . فما ابغيه انه يجب على الانسان ان يحزم رأيه بشدة وتركيز على ما يعتقده معقولا عقلانيا ، دون ان يسمح للمعتقدات اللاعقلانية المتعارفة ان تمر اعتباطا او ان تسيطر عليه ، ولو لبعض الوقت . وهذه مسألة تعقلية بينه وبين نفسه في تلك اللحظات التي يراوده فيها ان يرتد طفليا ، ولكن هذا التعقل اذا كان حادا حاسما ، قد يكون مختصرا جدا ،ولذا فالوقت الذي يستغرقه يستهان به .

ولدى الكثير من الناس كراهية لكل ما هو عقلانية ، وحينما يكون الامر هكذا فما قدمته يبدو غير مجديا . وهناك رأي يقول ان العقلانية اذا اطلقنا لها العنان ، خليقة ان تقتل جميع العواطف المتأصلة . وفي رأيي ان هذا الاعتقاد وليد فكرة خاطئة تماما لوظيفة العقل في الحياة البشرية . فليس من واجب العقل توليد العواطف ، وان كان من بعض وظائفه اكتشاف الوسائل التي تحول دون ان تكون هذه العواطف عقبة في طريق رفاهة المرء . فايجاد وسائل التقليل من الحقد والحسد هو لا شك احد واجبات علم النفس العقلي . ولكن من الخطأ الظن انه في تقليلنا من هذه العواطف يمكننا في نفس الوقت ان نقلل من قوة تلك العواطف التي يعارضها العقلاني . ولكن من الخطأ ان نظن اننا بتقليل هذه

الانفعالات نقلل في الوقت نفسه قوة تلك الانفعالات التي لا يدينها العقل. ففي الحب الجارف والحب الابوي والصداقة والخير والولاء والاخلاص للعلم او الفن ،لا شيء هناك يعارضه العقل . فالرجل العقلاني عندما يشعر ببعض هذه المشاعر او بجميعها يسر بها ، ولن يفعل شيئا في سبيل التقليل من قوتها ، لان جميع هذه المشاعر اجزاء من الحياة الفاضلة ، وهي الحياة التي تعمل للسعادة ، سواء سعادة المرء الخاصة او سعادة الاخرين . وليس في الانفعالات شيء لا عقلاني في مثل هذا ، وكثيرون من اللاعقلانيين لا يشعرون الا باتفه العواطف. وعلى الانسان الا يخشى احد من ان تجعله العقلانية عديم الحس، بل الامر على العكس من ذلك طالما العقلانية تعني التناسق الداخلي ، والانسان الذي يحقق هذا ، اكثرحرية في تأمل العالم وفي استخدام طاقاته وفعالياته في تحقيق الاهداف الخارجية من الانسان الذي يكون دائما عرضة للصراعات الداخلية . وما من شيء يضارع الحياة من ان ينطوي الانسان على نفسه ، وما من شيء اكثر تنشيطا من توجيه العناية والطاقة الى الخارج .

ان اخلاقنا التقليدية تحوم بمعظمها حول ذاتها ، وفكرة الاثم جزء من توجيه الانتباه كله الى الذات . ومن اصيبوا بهذا المرض الذاتي ، مرض الصراع النفسي بسبب الاحساس بالاثم، لا بد لهم من العقل كي يشفيهم منه ، ولعل هذا الشفاء من المراحل الضرورية للنمو النفسي . ويخالجني الاعتقاد ان الانسان الذي تجاوزه بمعونة العقل قد ارتقى الى مستوى اعلى من الشخص الذي لم يجرب الداء ولا العلاج . وكراهية العقل السائدة في زماننا هذا ناتجة عن كون عمليات العقل لا تتم بطريقة اساسية كافية . فالرجل المزدوج الشخصية يبحث عن الاثارة والتسلية ، وهو يميل الى العواطف القوية ، لا لأسباب وجيهة ، بل لأنها تحمله على الخروج من نطاق نفسه وتحول دون ضرورة التفكير المؤلم . فكل عاطفة في رأيه شكل من اشكال التحذير له ، وبما انه عاجز عن رسم صورة للسعادة الاساسية ، فكل تخلص من الألم يبدو له غير ممكن إلا على صورة هذا التحذير . وهذه علائم مرض عضال متأصل ، .

وحيث لا يوجد مثل هذا المرض ، فاعظم سعادة تأتـي من تمـام امتـلاك المرء لملكاته . ونحن لا نشعر بالسعادة الغامرة والمسرات الطاغية الا في مثـل هذه اللحظات التي يكون فيها الفكر نشيطـا ، وهـذا من اهـم اسس السعـادة . فالسعادة التي تتطلب النشوة مهما كان نوعها سعادة مزيفة لا ترضي ولا تجدي . والسعادة الحقيقية المرضية هي التي تسير جنبا الى جنب مع استخدام ملكاتنا ، وفهم العالم الذي نعيش فيه الى اقصى حدود الفهم .

الفصل الثامن
هوس الاضطهاد

يعد هوس الاضطهاد شكلا من اشكال الجنون او الاختبال ، فبعض الناس يتصورون ان الاخرين يودون قتلهم ، او سجنهم ، او التسبب لهم باذى مهلك . وغالبا ما تقودهم رغبتهم في حماية انفسهم من مضطهديهم الخياليين ، الى حالات عنف وقسوة تستدعي ضرورة حجزهم وكبح جماح اغراضهم . وهذا المظهر ، كأي شكل من مظاهر الجنون او الاختبال ، هو تجسيم متطرف نحو اتجاه ليس نادرا بين اناس يعتبرون في عداد الاسوياء. وليس في نيتي مناقشة هذه الاشكال المتطرفة لانها من اشيع اسباب الشقاء ، ولانها لم تصل الحد الذي يسبب الجنون القطعي ، بل اني ارغب الدخول الى الاشكال الهادئة ، لأنها حالات واشكال كثيرة الحدوث والتي تولد عدم السرور، ولأنها لا ينتج عنها اختلال عقلي مثبت فمن الممكن ان يتولى امرها المريض نفسه، بشرط ان يكون قانعا وراغبا في تشخيص عوارض مرضه واضطرابه تشخيصا صحيحا، حتى يتبين ان مصدرها كامن في نفسه ، وليس في هذا العداء والقسوة المزعومين من قبل الاخرين .

اننا نعلم جميعا طبيعة وصنف الشخص ، رجلا كان او امرأة ، الذي يظن دائما انه ضحية نكران الجميل ، وعدم الرقة واللطف ، والخيانة . ان هذا النوع من الناس مقبولون بشكل مدهش ، ويحصلون على التعاطف من أولئك الذين لم يعرفوهم منذ مدة طويلة ، هناك قاعدة تقول : ما من شيء غير ممكن حول قصة ما يروونه عن سوء معاملة الناس لهم ، لأن هذه المعاملة التي يشكون منها تحدث احيانا بلا شك ، وما يثير شكوك السامع في النهاية هو كثرة

عدد الاوغاد الذين شاء سوء طالعه ان يلتقي بهم . وحسب نظرية الاحتمالات فان الناس الذين يعيشون في مجتمع ما يتشابهون في طريقة حياتهم ويلتقون في الشعور بنفس قيمة سوء المعاملة . فاذا لقي شخص واحد في مجموعة معينة ، طبقا لحسبانه الخاص ، معاملة سيئة كلية من الجميع ، فمن المحتمل ان يكون السبب كائنا عنده هو شخصيا ، او انه دون ان يدري يعمل بطريقة تثير انفعاله . او يكون سلوكه لا شعوريا بحيث يثير ضيقا لا يمكن التمكن منه ، وبهذا يظهر لنا ذوو الخبرة مستريبين بمن يحسبون انهم ضحية اضطهاد كلي من العالم بأسره ، وبالتالي الى عدم التعاطف معهم ، ومن ثم يؤدي ذلك الى تثبيت اعتقاد هؤلاء المنكودين بان الجميع ضدهم . وهذا الاضطراب يصعب التعامل معه ، لأنه يستشري بالتعاطف وبعدم التعاطف على السواء . فالشخص المتأثر بهوس الاضطهاد عندما يجد قصة من قصصه عن سوء طالعه موضع تصديق ، يحملها الى ان يصل بها الى اقصى حدود القابلية للتصديق . واذا وجد التصديق على عكس ذلك صار له مثل آخر لقسوة قلوب البشر ازاءه . فهذا المرض لا يمكن التعامل معه الا بالفهم ويجب توصيل هذا الفهم الى المريض ان اريد له ان يخدم الغاية منه . ان الغاية التي ارمي اليها في هذا الفصل هي ايجاد بعض الافكار العامة التي يمكن بواسطتها ان يكون لكل فرد القدرة على كشف عناصر هوس الاضطهاد (التي يشكو منها تقريبا كل انسان بدرجات متفاوتة) ، ومتى كشفها عرف كيف يقضي عليها . وهذا قسم هام من غزو السعادة ، طالما انه من غير الممكن ان نكون سعداء اذا كنا نشعر بان كل شخص يسيء معاملتنا .

من ابرز اشكال اللاعقلانية ذلك الوضع الذي يتخذه كل انسان تقريبا بازاء اقاويل او شائعات السوء . وقليلون جدا اولئك الذين يحجبون عن قول ما يؤذي معارفهم واصدقاءهم ، ومع هذا اذا سمع هؤلاء ان شيئا ما قد قيل ضدهم امتلأوا غيظا وحنقا ، ولم يخطر على بالهم انه كما يتقولون السوء عن الغير ، كذلك يتقول الغير السوء عنهم . وهذا شكل مخفف من اشكال الموقف

الذي اذا اخذ اكثر من حجمه افضى الى هوس الاضطهاد . ونحن ننتظر من كل شخص آخر ان يشعرنا بحنانه وحبه والأحترام العميق الذي نشعره نحن نحو انفسنا . ولا يخامرنا الشك اننا لا يمكن ان ننتظر من الآخرين ان يحسنوا الظن بنا اكثر مما نحسنه بهم . والسبب في ان هذا لا يخطر لنا اننا نرى تقديراتنا كبيرةوواضحة وبديهية ، في حين ان مزايا الآخرين ، ان وجدت ، لا تبدو الا للعين المتعطفة المتفضلة جدا . وعندما تسمع أن فلانا قد تفوه عنك كلمات قبيحة ، فأنك تتذكر التسع والتسعين مرة التي أحجمت فيها عن التفوه باعدل واصدق النقد له . وتنسى المرة المائة التي صرحت فيها ، في لحظة عدم حذر ، بما تعتقد انه الحق في شأنه ، وتتساءل أهذا نتيجة صبرك وانتظارك الطويل ؟ ومع ذلك فأن سلوكك وتصرفك ، من وجهة نظره ، يظهر تماما ما هو سلوكه نحوك . فهو لا يعلم شيئا عن عدد المرات التي أحجمت فيها عن التكلم عنه ، بل يعرف فقط عن المرة المائة التي حدث فعلا انك تكلمت فيها عنه . واذا ما اعطينا القدرة السحرية لقراءة افكار الغير ، فان اول اثر لهذا فيما اعتقد هو انفراط عقد الصداقات . واما العامل الثاني فقد يكون ممتازا ، اذ سيبدو لنا العالم فظيعا بدون اصدقاء الى حد مزعج ، وحينئذ يترتب علينا ان نتعلم كيف نحب بعضنا بعضا من غير حاجة الى قناع من الوهم لنخفي عن انفسنا ان كلا منا لا يظن الآخر كاملا بل نعلم ان لرفاقنا اخطاءهم . ولكنهم مع هذا اناس مقبولون على وجه الاجمال ، ونحن نحبهم ونقدرهم ، ولكننا لا نحتمل ان يكون هذا موقفهم منا ، بل نتوقع منهم ان يحسبوا اننا على خلاف سائر البشر بدون عيوب . وحين نضطر للقول بان لنا عيوبا ، نأخذ هذا الواقع الواضح بجدية اكثر ، مما ينبغي . وعلينا الا ننظر الى انه هناك احد كامل وان لا يبالغ بالتشاؤم .

وهوس الاضطهاد له دائما جذوره وهو المفهوم المبالغ فيه لكفاءتنا . ولنفرض على سبيل المثال اني مؤلف مسرحي ، وليكن معروفا لكل امرىء اني ألمع مؤلف مسرحي في هذا العصر . ولكن لأسباب نادرة لم تمثل مسرحياتي ،

وعندما تمثل لا تنجح . فما هو تفسير هذا الوضع الغريب ؟ من الجلي ان جميع المخرجين والممثلين والنقاد تآمروا علي لسبب معين او سواه . والسبب الراسخ في ذهني طبعا انني لم اقبل تشويه النص ولم اتزلف للنقاد ، ولأن مسرحياتي تعالج الحقائق بشكل تصيب به الحقيقة مباشرة ، ولهذا يحجب المخرجين عن اخراجها وبذلك تلقى موهبتي الفذة الاعراض والتجاهل .

وهناك ايضا المخترع الذي لم يجد شخص ما ليفحص مزايا اختراعه ، ذلك لأن اصحاب المصانع يقفون في طريقه ولا يأخذون بأي اختراع جديد ، بينما القلة الناجحون منهم يحتفظون بمخترعيهم الخصوصيين الذين نجحوا في شق طريقهم الى قلوب هؤلاء . والغريب ان الجمعيات العلمية تضع مخطوطاته او تعيدها اليه بغير قراءة . والافراد الذين يرفع الامر لهم هم حتما ليسوا بالمستوى اللائق بذلك . ترى كيف يمكن تفسير هذا الأمر ؟ من الواضح ان هناك عصابة من الرجال يرغبون في اقتسام الثمار التي يجنيها الاختراع بين انفسهم . والانسان الذي لا ينتمي الى هذه المجموعة المغلقة على نفسها لن يصغى له .

ثم هناك الانسان الذي عنده شكوى حقيقية مبنية على اسس واقعية ، ولكنه يعمم في ضوء خبرته ومعلوماته ويصل الى نتيجة مفادها ان مصيبته فيها فتوح الكون كله . فاذا افترضنا انه اكتشف بعض المخازي عن المخابرات والتي من مصلحة الحكومة طمسها ، فانه لا يستطيع ان يذيع اكتشافه هذا . ومعظم ذوي العقول الكبيرة يرفضون تحريك اصبع واحد لمعالجة هذا الشر الذي يملأه بالاستنكار . وهكذا تكون الحقائق صحيحة كما يقول ، ولكن انتكاسته في نشرها تولد لديه فكرة الاعتقاد في ان جميع الرجال ذوي القوة والنفوذ مشغولون كليا في تغطية الجرائم التي يدينون لها بمراكزهم وقوتهم . والقضايا التي من هذا النوع تكون صعبة الاذعان ، لما في نظرتهم من جانب صواب جزئي ، والشيء الذي يمسهم شخصيا يصبح طبيعيا وله تأثير عليهم اكثر من الأمور الاخرى الاكثر اهمية والتي لا تمسهم مباشرة . وهذا يعطيهم شعورا

خاطئا للمقارنة ويدفعهم لتعليق اهمية غير مستحقة للحقائق التي ربما قد تكون استثنائية وليست نمطية .

ويوجد مَثَلٌ ليس نادرا لفريسة هوس الاضطهاد هو نموذج للمحسن الذي يعمل دائما الخير للناس برغم ارادتهم ، ويدهشه ويفزعه انهم لا يظهرون له عرفانا بالجميل . ان شعورنا لفعل الخير نادرا ما تكون خالصة على نحو ما نتصورها . فحب القوة او السلطة طريق مغر وغادر وله الوان كثيرة من التنكر ، وكثيرا ما يكون مصدر اللذة التي تمدنا من فعل ما نحسب انه الخير لسوانا من الناس . وليس من المستبعد ان يدخل هذا الاطار عامل آخر فعمل الخير للناس كثيرا ما يكون حرمانهم من لذة ما ، كالمسكرات او المقامرة او الكسل وسواها . وفي هذه الحالة هناك عنصر نمطي للكثير من الاخلاقيات الاجتماعية ، وهو الحسد لمن هم في وضع يسمح لهم بارتكاب آثام علينا ان نمتنع عنها اذا شئنا الاحتفاظ بمودة اصدقائنا . ومن يصوتون مثلا تأييداً لاصدار قانون ضد تدخين السجائر (ومثل هذه القوانين سارية او كانت سارية في عدة ولايات اميركية) هم طبعا غير المدخنين الذين يسبب لهم ألما ان يروا الآخرين يستمدون اللذة من التدخين ، فاذا كانوا يتوقعون من اولئك الذين كانوا مدمني التدخين ان يقدموا لهم الشكر لتحريرهم من هذه الرذيلة الضارة ، فمن الممكن ان املهم في ذلك سيخيب جدا ، وعندئذ قد يخطر لهم انهم وهبوا حياتهم للخير العام ، وان اولى الناس بشكرهم على افضالهم هم اقل الناس تنبيها الى فرصة اظهار عرفانهم للجميل .

وكان المرء يجد نفس التصرف من جانب السيدات تجاه خادمات منازلهن اللواتي كن يلجمن عن طريق صيانة اخلاقهن وحراستها برغمهن ولكن مشكلة الخدم أضحت في هذه الايام واضحة وحادة بحيث تضاءلت هذه الصورة من صور عطف الاسياد على الخادمات .

وفي المستوى السياسي العالمي يظهر نفس الشيء . فرجل الدولة الذي حصر تدريجا جميع السلطات بشخصه وذلك ليتمكن من القيام باعباء الاهداف

الرفيعة والعالية التي تقوده لفقدان راحته الشخصية ويدخل حلبة الحياة العامة ، يدهشه في فقدان ثقة الناس لفضله عندما ينقلبون ضده ، وسوف لا يظهر له ان عمله يمكن ان يكون له أي شيء سوف الدافع العام ، او أن لذة السيطرة على تقاليد الامور هي التي كانت الملهم الحقيقي لانشطته وجهوده . والعبارات التي تتردد عادة على المنبر او في صحافة الحزب أصبحت تظهر له تدريجيا معبرة عن حقائق ، فصار يظن عبارات مؤ يديه الحزبيين تحليلات حقيقية للدوافع التي تحركه ، وتنتهي القصة على اثر هذا الجمود الموهوم الى تقززه واعتزاله العالم بعد ان اعتزله العالم ، نادما على ما اقدم عليه منذ البداية لمهمة جاحدة كمهمة السعي وراء الخير العام .

هذه الايضاحات توحي باربع قواعد مطردة عامة ، وهي التي تبرهن كفاية عن موانع هوس الاضطهاد اذا امكن ادراك حقيقتها بوضوح . واول هذه الايضاحات : تذكر ان تصرفاتك لا تكون دائما ايثارية او غيرية كما تظهر لك ، والايضاح الثاني : لا تبالغ في تقدير صفاتك الخاصة ، والثالثة لا تتوقع ان يهتم بك الغير كما تهتم أنت بنفسك ، والرابعة : لا تتخيل أغلب الناس يعطون أفكارهم لك بحيث ينطوون على رغبة خاصة في اضطهادك . وسوف اورد بعض الكلمات القليلة عن هذه الايضاحات كل بدوره .

ان الارتياب في تصرفات الشخص الخاصةضروري ،وبصفة خاصةلمحب الانسانية والمتنفذين . مثل هؤلاء الناس لديهم رؤ ية عن العالم او جزء منه كيف ينبغي ان يكون . ويشعرون بعض الاوقات بالصواب وبعض الاوقات بالخطأ ، انهم بتحقيق رؤ يتهم يسدون الخير الكبير للعالم او لجزء منه ، الا انهم لا يدركون ان الافراد الذين يتأثرون بعملياتهم لكل فرد منهم حق التساوي لحقهم في ان تكون له نظرته الخاصة لنوع العالم الذي يرغبه . والرجل من صنف المتنفذ يكون متأكداً تماما ان نظريته هي الصواب وأي شيء مناقض لها هو الخطأ . ولكن هذا اليقين الذاتي لا يقدم اي اثبات أنه على

صواب موضوعيا . وعلاوة على ذلك يكون اعتقاده في اغلب الاحيان تغطية من أجل اللذة التي يتوصل اليها من اجراء التغييرات التي يشعر انه هو السبب في حدوثها . وبالاضافة الى حب السلطة يوجد دافع آخر هو الغرور او التباهي الذي يقوم بدور كبير في هذا الشأن . ان المثالي النبيل الذي يرشح نفسه للبرلمان ـ وفي ذلك اتكلم عن خبرة وتجربة ـ تدهشه سخرية الناخبين واستهجانهم لأنهم يحسبون ان كل مراده الحصول على لقب (عضو البرلمان) . وعندما ينتهي الاقتراع ويتسع له الوقت للتفكير يظهر له انه ربما كان ناخبيه على حق . فالمثالية تحث الدوافع البسيطة الى ان تتخذ اشكالا تنكرية عجيبة . والاخلاق التقليدية تستوعب قدرا من الغيرية ليس بمستطاع الطبيعة البشرية التغلب عليها . والذين يتباهون بفضيلتهم كثيراً ما يظنون انهم وصلوا الى هذا المثل الاعلى الذي لا سبيل اليه . ان السواد الاعظم من اعمال انبل الناس لها صفات تتعلق باعتبار الذات . ولسنا نأسى على هذا ، لأن الامر لو كان على خلاف ذلك لما استطاع العنصر البشري ، من البقاء . والانسان الذي يمضي وقته كله في اطعام الغير وينسى اطعام نفسه خليق ان يهلك جوعا . ومن الممكن طبعا ان يتناول طعامه بالقدر الذي يكفي فقط لتزويده بالقوة الضرورية للمضي في المعركة ضد البشر . ولكن مما يشك فيه اذا كان له الطعام الذي يتناوله بهذه الصفة يمكنه ان يستوعب تدفق الافراز ، ويتم تمثله تمثلا كافيا ، فمن الأفضل اذا ان يأكل الانسان لأنه سيتمتع بأكله اكثر بدلا من التفكير وهو يأكل في الخير العام .

وما ينطبق على الاكل ينطبق على كل شيء آخر ، وكل ما يتوجب صنعه يمكن عمله بصورة مرضية الا بشيء من القابلية به . وهذه القابلية متعسرة بدون دافع اعتبار الذات. وسوف اشمل ضمن صفات اعتبار الذات، من هذه الناحية ، تلك التي تخص الاشخاص المرتبطين بيولوجيا بالمرء ، مثل غريزة الدفاع عن الزوجة والاطفال من الاعداء . وهذه الدرجة من الغيرية الواردة في الاخلاق العرفية والتقليدية ليست جزءاً من الطبيعة البشرية ، ومن النادر ان

يتوصل المرء اليها في الواقع . وعلى الناس الذين يرغبون في ان تكون لديهم فكرة سامية عن امتيازهم الخلقي ان يقنعوا انفسهم انهم توصلوا الى درجة من عدم الانانية التي من غير المتوقع ان يكونوا قد توصلوا اليها فعلا ، ومن هنا فان محاولة القداسة تصبح متصلة بخداع النفس الذاتي الذي يقود بسهولة الى هوس الاضطهاد .

وثاني القواعد المطردة العامة الاربع تؤدي الى مقاطعة الحكمة اذا نحن بالغنا في تقدير ذاتنا ، ولكن الصفات التي لا تشملها الاخلاقيات ينبغي الا نبالغ في تقديرها ايضا. والكاتب المسرحي الذي لم تنجح له مسرحية قط عليه ان يراجع نفسه فيما اذا كانت مسرحياته دون المستوى ، وان لا يتجاهل هذا الاحتمال باعتباره غير ممكن . فاذا وجد ان ذلك ملائم مع الحقائق العقلية يتوجب عليه ان يقبله على نهج الفلاسفة الاستقرائيين . ومن الحقائق ان هناك في التاريخ قضايا كفاءات مجهولة ، لكنها اقل بكثير من الكفاءات المعترف بها في زمنها ، فان كان هناك رجل عبقري لا يريد عصره ان يعترف بعبقريته ، فهو على حق في الاصرار على موقفه برغم عدم الاعتراف به . اما ان كان غير كفء ركبه الغرور وسيعمل حسنا اذا لم يصر على موقفه . ولا توجد هناك طريقة لمعرفة اي من الفريقين صاحب الروائع غير المعترف بها . فان كنت تنتمي الى العباقرة فمقاومتك بطولية ، وان كنت منتميا الى الادعياء فانت سخرية في اعين الناس ، ولن تظهر الحقيقة الا بعد موتك بمائة عام مثلا . والى ان يحين ذاك التاريخ هناك اختيار لعله ليس معصوما من الخطأ ولكنه مع هذا كبير القيمة ، بامكانك تطبيقه على نفسك ان كنت تشك انك عبقري في حين يشك اصدقاءك انك لست عبقريا . اما الاختبار فهو كالتالي : هل تشعر ان هناك الزاماً قهري فوري للتعبير عن افكار ومشاعر معينة ، ام انك مدفوع برغبة شهوة المديح ؟ ان هذه الشهوة موجودة ، ولكنها شهوة ثانوية ، اي ان الفنان الاصيل يتمنى ان ينتج نوعا معينا من العمل يأمل ان ينال عليه الاستحسان العظيم ، ولكنه سوف لن يغير اسلوبه حتى اذا لم يكن هناك استحسان الجمهور . اما

الانسان الذي دافعه الاول اشتهاء الاستحسان ، فهو لا يملك قوة الارادة التي تجبره على نوع خاص من التعبير ، وبامكانه القيام بأي نوع آخر من العمل مختلف كليا . مثل هذا الانسان الذي يفشل في الحصول على الثناء لفنه من الأفضل الاستغناء عنه . وبصورة عامة ، مهما كان نوع عملك في الحياة ، اذا ما وجدت الاخرين لا يقدرون مواهبك بنفس المستوى الذي تقدره انت لنفسك ، فلا تكن مصمما تماما على انهم المخطئون حتما . فاذا سمحت لنفسك أن تفكر بذلك فانك ستقع في الاعتقاد ان هناك مؤامرة لمنع الاعتراف بمواهبك . ومثل هذا الاعتقاد سيكون من المؤكد مصدرا لشقائك . وللتأكد من ان مواهبك ليست عظيمة كما هو اعترافك ، قد يكون مؤلماً جداً لنفسك لبعض الوقت ، ولكنه بعد ذلك يتسنى لك امكانيات لحياة سعيدة .

وقاعدتنا الثالثة كانت ان لا نتوقع الكثير من الغير . لقد كانت العادة السائدة عند السيدات العاجزات ان يتوقعن من احدى بناتهن ان تضحي بنفسها كليا للقيام بمهام ممرضة حتى لو ادى ذلك الى عزوفها نهائيا عن الزواج . ومعنى هذا ان ينتظر المرء من الاخرين درجة من الغيرية مناقضة للعقل ، لأن حساب خسارة الغير المؤثر هنا اكبر من ربح الاناني . ومن الأهمية بمكان في جميع معاملاتك مع الناس ، لا سيما اقرب واعز الناس اليك ، ان تدرك وان لا تنسى ما يسهل جدا نسيانه من ان هؤلاء الاخرين ينظرون الى الحياة من زاويتهم الخاصة ، بما تمس ذاتهم الخاصة ، وليس من زاويتك انت ووفقا لما يمُسك . وما من شخص ينبغي ان نتوقع منه تشويه الخطوط الاساسية لحياته من اجل شخص آخر ، وان كانت هناك حالات نادرة يبلغ فيها الاعزاز من القوة بحيث تصبح التضحيات العظمى طبيعية . ولكن لا ينبغي ان تفتعل ان لم تكن طبيعية ، وليس من لوم على احد ان لم يقم بهذه التضحيات الاستثنائية . وفي اغلب الاحيان يكون السلوك الذي يتذمر منه الناس من جانب الاخرين شيئا لا يعدو ان يكون رد الفعل السليم ضد الجشع لدى شخص تجاوزت انانيته الحد العادي المحدد لها .

اما القاعدة الرابعة فهي عبارة عن ادراك ان الناس الآخرين يصرفون من وقتهم في التفكير فيك اقل مما تنفق من وقتك في التفكير في ذاتك ، . وضحية فرط هوس الاضطهاد يتصور ان جميع انواع البشر ممن لديهم في الواقع مشاغلهم وشؤ ونهم الخاصة بهم ، منهمكون صباحا وظهرا وليلا في محاولة الحاق الضرر الى هذا الغبي المسكين . وبالمقارنة الى هذا نرى ضحية هوس الاضطهاد العادي يرى في كل انواع الاعمال اشارة الى نفسه . وفي الواقع تبدو هذه الفكرة بالطبع تملق لعجرفته . فاذا كان هذا الرجل عظيما جدا من المحتمل ان يكون ذلك صحيحا . فكل خطوات الحكومة البريطانية لسنوات عدة كانت في همها الاكبر في قهر نابليون ، ولكن عندما يتخيل انسان غير ذي اهمية خاصة له ان الاخرين يفكرون شخصيا فيه باستمرار ، فهو قطعا يسير في الطريق الى الجنون او الخبل . دعنا نفترض انك قدمت محاضرة في حفلة عشاء علنية ، وظهرت صور بعض الخطباء الآخرين في الصحف المصورة ولم تظهر صورتك ، فكيف تعتبر ذلك ؟ ليس السبب بداهة ان الخطباء الاخرين اعتبروا اكثر اهمية منك فكانت اوامر محرري الصحف تعليمات بتجاهلك . ولماذا اعطوا مثل هذه الأوامر ؟ من الجلي انهم يخشونك نظرا لأهميتك العظمى . وبهذه الطريقة يتحول حذف صورتك من اهانة الى اطراء خفي . ولكن خداع النفس الذي من هذا القبيل لا يوصل لأي سعادة ثابتة . ففي اعتقادك الآخر تعرف ان الحقائق خلاف ذلك ولاخفاء هذه الحقائق عن نفسك بقدر الامكان عليك ان تختلق تخيلات اكثر فاكثر ، وسيغدو جهدك لمحاولة تصديق هذه الفروض جسيما . وبما ان هذه الاختلافات تنطوي على الاعتقاد انك موضوع عداء كبير الانتشار فهي لن تحمي تقديرك لذاتك الا بأن تبتليك بشعور أليم جدا بانك والعالم في خصومة . وعند التوصل الى هذا الشعور المؤلم جدا وهو انك على خلاف للعالم فلا يكون هناك اي اقتناع قائم على اساس خداع النفس يمكن ان يكون وطيد الاركان . ومهما تكن الحقيقة غير سارة فمن المستحسن ان تواجهها فورا ، وبصورة حاسمة ، كي تعتاد عليها ، ثم تبدأ في بناء حياتك وفقا لها .

الفصل التاسع
الخوف من الرأي العام

هناك عدد قليل من الناس بامكانهم ان يكونوا سعداء ان لم يكن اسلوبهم في الحياة اجمالا ونظرتهم الى العالم موضع موافقة او اقرار من الذين تربطهم بهم صلات أجتماعية ، وخاصة اولئك الذين يعيشون معهم . ومن مزايا المجتمعات العصرية انها مقسمة الى فئات او طوائف متباينة في اخلاقياتها ومعتقداتها . وقد بدأت هذه الحالة مع حركة الاصلاح الديني ، او اذا اردنا الدقة كانت بدايتها مع عصر النهضة . واخذت تنمو بازدياد منذ ذاك الوقت . فقد كان هناك البروتستانت والكاثوليك الذين يختلفون ليس حول الامور اللاهوتية فحسب ، بل حول شؤ ون عملية كثيرة . وكان هناك الارستقراطيون الذين سمحوا بانواع مختلفة من الاعمال التي لم يكن البورجوازيون يتسامحون بها . وبعدها اتى دور المتسامحون وظهر مفكرون وذوي التفكير الحر الذين لم يعترفوا بوجوب مراعاة الطقوس الدينية . وفي يومنا هذا وعلى امتداد القارة الاوروبية نرى تباين كبير بين الاشتراكيين وسواهم ، لا في السياسة فحسب ، بل في جميع أوجه الحياة تقريبا ايضا . كما ان التباين عديد في البلاد الناطقة باللغة الانكليزية ايضا ، ففي بعض الاوساط نجد الفن موضع اعجاب ، بينما يرى غيرهم وبالاخص الفن الحديث منه ، انه من عمل الشيطان . وفي بعض الاوساط يكون الولاء للامبراطورية فضيلة عظيمة ، بينما عند الغير خلاف ذلك . بل ان غيرهم يعتبر ذلك نوعا من الغباء . ويعتبر الناس التقليديون الزنا من أقبح الجرائم ، بينما يعتبره بعض الناس امرا مشروعا ان لم يكن مستحسناً . ويمنع الطلاق عند الكاثوليك بالمرة ، في حين عند غيرهم يتقبلونه على انه ضرورة لتخفيف المسؤ ولية الزوجية وآلامها .

وبسبب كل هذه الاختلافات بوجهات النظر ، يرى الانسان صاحب الذوق المعين والتقاليد المعينة نفسه منبوذا حينما يعيش في هذه الاوساط ، في حين انه في مجتمع آخر يبدو مقبولا كأنسان عادي . والكثير من التعاسة وخاصة بين حديثي السن تنشأ بهذا الشكل . فالشاب او الفتاة يلتقط نوعا ما أفكاراً تكون في الهواء ، ويجد أن هذه الافكار من المحرمات او الهرطقة مؤذية بالنسبة للمحيط الذي يعيش فيه او تعيش فيه ، وبسهولة يظهر لهم كأن المحيط الذي يعرفونه يمثل العالم اجمع . ومن الصعب أن يصدقوا ان الافكار التي لا يستطيعون اشهارها خشية الاتهام بالشذوذ تكون في وسط آخر شيء مقبول وعادي جدا وممثلة لروح العصر . وهكذا يتسبب الجهل بالعالم معاناة تعاسة ليس من مبرر لها . ان هذه العزلة ليست مصدر ألم فحسب ولكنها تسبب ايضا ضياعا كبيرا للطاقة في جهد عنيف ضروري لحمل الاستقلال الفكري ضد عداء المحيط . وفي تسع وتسعين حالة من مائة ينتج هذا الوضع طرفا يحول دون متابعة الافكار الى نتائجها المنطقية . ولم تقابل الشقيقات برونتي× اناس ملائمين لهن قبل نشر كتبهن . وهذا لا ينطبق على أميلي التي كانت بطولية الطبع ذات اسلوب رفيع ، ولكنه اثر حتما على شارلوت التي ظلت نظرتها دائما رغم مواهبها ، نظرة المربية الى حد كبير . وبليك× مثل أميلي برونتي عاش في عزلة فكرية كليا ، ولكنه مثلها كان عظيما الى الحد الذي مكنه من التغلب على الآثار السيئة للعزلة ، لانه لم يشك انه كان مصيبا وأن انتقاده كان خاطئا . وقد ظهر أسلوبه للرأي العام في هذه السطور :

× الأخوة برونتي هم :

آ ـ شارلوت برونتي روائية انكليزية (١٨١٦ ـ ١٨٥٥) لها كتاب جين اير

ب ـ اميلي برونتي روائية انكليزية (١٨١٨ ـ ١٨٤٨) لها كتاب مرتفعات ويذبرنغ .

ج ـ ان برونتي روائية انكليزية (١٨٢٠ ـ ١٨٢٩)

والاخوة الثلاث هم ابناء باتريك برونتي ـ المترجم

× وليم بليك : (١٧٥٧ ـ ١٨٢٧) صوفي انكليزي وشاعر فنان : ولد في دمشق ، من آثاره الشعر والنثر ـ المترجم .

الانسان الوحيد الذي عرفته
هو الذي لم يجعلني أتقيأ
كان فوسيلي :
وهكذا ايها الاصدقاء المسيحيون
كيف حالكم ؟

ولكن ليس هناك العديد ممن لديهم هذه الدرجة من الفراسة في حياتهم الداخلية . فالوسط المتجانس ضروري للسعادة ، وبطبيعة الحال يعيش الوسط الذي يضم غالبية الناس متعاطف متجانس . انهم يتشربون في حداثة سنهم التخيرات السائدة ويكيفون أنفسهم غريزيا مع المعتقدات والعادات السارية في محيطهم ، ولكن عند الاقلية الكبيرة التي تشمل عمليا جميع من لهم مزايا فنية او ذهنية تجد هذا الواقع مستحيلا . لنفترض أن شخصا ولد في قرية أو بلدة صغيرة ، ومنذ حداثته يجد نفسه محاطا بالبغض لكل ما هو ضروري للتمتع بالامتياز العقلي ، فاذا رغب في مطالعة الكتب الهامة فسيحتقره الاولاد الآخرون ، وسيقول الاساتذة له ان هذا العمل غير مجد . واذا اهتم بالفن خاله انداده ناقص الرجولة ، والذين اكبر منه سنا يظنونه فاجرا . واذا رغب في حرفة غيرمألوفةفي الدائرة التي يعيش فيها قيل له أنه يرصع نفسه ، وان ما كان ملائما لوالده ينبغي أن يكون ملائما له . واذا اظهر ميلا الى انتقاد معتقدات والديه الدينية او آراءهم السياسية وجد نفسه واقعا في مشكلة عويصة . وكانت المراهقة من خلال هذه الاسباب فترة تعاسة عظيمة لمعظم الفتيان والفتيات من ذوي المواهب الاستثنائية ، اما لزملائهم العاديين جداً فهي وقت مرح وسرور . وأما هم فأنهم يبحثون عن عمل أكثر جدية وهو الذي لا يجدوه بين من هم أكبر منهم سنا وبين اقرانهم في الاطار الاجتماعي المعين الذي شاءت الفرصة ان يولدوا فيه .

وحين يذهب مثل هؤلاء الشباب الى الجامعة ، من المحتمل ان يجدوا نفوسا ملائمة لهم ، وحينئذ سيستمتعون بسنوات قليلة من السعادة الكبرى . واذا

كانوا محظوظين ربـما ينجحون في مغادرة الجامعة وفي الحصول على عمل يتيح لهم اختيار رفاق مناسبين لهم . فالانسان الذكي الذي يعيش في مدينة كبـرى مثل لندن أو نيويورك سيجد غالبا مجموعة ملائمة ليس من الضروري ان يعاني فيها من الاكراه والمداهنة . ولكن اذا ارغمه عمله ان يعيش في بعض الاماكن الصغيرة ، ولا سيما اذا اضطره هذا المكان للأحتفاظ باحترام الناس العاديين ، كما هو الحال على سبيل المثال مع الدكتور أو المحامي ، سيجد نفسه ملزما طيلة حياته أن يخفي اذواقه وقناعاته الحقيقية عن اغلب النـاس الـذين يقابلهـم في يومه ، وهذا صحيح بصورة خاصة في امريكا نظرا لأتساع رقعة البلاد . ففي أغلب الاماكن المقفرة في الشمال والجنوب والشرق والغرب يجد المرء قليلا من الناس الذين يعرفون من الكتب أن هناك اماكن يستطيعون فيها الا ينعزلوا ، ولكن الفرصة لم تتح لهم العيش في مثل هذه الاماكن . ، ولهذا من النادر جدا ان تتاح لهم فرصة محادثة مناسبة لهم . والسعـادة الحقيقية في هذه المناسبـات مستحيلة للذين جبلوا على أقل عظمة ومتانة شخصية من بليك وأميلي برونتي . واذا كان ذلك ممكنا يتوجب أيجاد بعض الطرق للتقليل أو عدم الاكتراث بطغيان الرأي العـام او لتجنبـه ، حتـى يتمـكن اعضـاء هذه الاقلية من الاذكياء من التعارف والتمتع بالرابطة الاجتماعية فيما بينهم .

ان الجبن في اغلب الاحيان ليس ضروريا لانه يجعـل المتاعـب اسـوأ ممـا تستحق . والرأي العام اكثر طغيانا على الدوام ممن يخشونه بشكل ظاهر ، وأقل طغيانا على من لا يبالونه . الكلب ينبح اكثر ويجرأ على العض عندمـا يخافـه الناس ، اما من يعاملونه باستخفـاف فلا يجتـرىء عليهـم هكذا . والقـطيع البشري فيه شيء من هذه الميزة . فان اظهرت انك خائف من الناس ، تكون صيدا سهلا لهم ، اما حين تظهر عدم اكتراثك يساورهم الشك بقوتهم عليك ومالوا الى تركك وشأنك . ولست اعني بالطبع ان هذا ينطبق على الاشـكال القصوى للتحـدي . فان انـت تمسـكت في كينسيغتـون× بالاراء السائـدة في

× كينسيغتون : اهي في لندن فيه القصر الملكي والمتاحف الفنية والعلمية والصناعية الشهيرة ـ المترجم

روسيا ، او في روسيا الاراء السائدة في كينسيغتون ، فاللوم يقع عليك وانت تتحمل نتائجه . ولا اقصد بما ذكرت مثل هذا التطرف ، بل الابتعاد القليل عن مفهوم العرف ، مثل عدم ارتداء الملابس بطريقة معينة ، او عدم الانتماء الى كنيسة او الامتناع عن قراءة الكتب المشوقة. فمثل هذه الاخطاء اذا جرت في بساطة وعدم اكتراث ، لا عن تحد بل بصورة تلقائية ، امكن التسامح فيها حتى في اشد المجتمعات التقليدية ، وشيئا فشيئا ترى نفسك وانت تتمتع بامتيازات مختلي العقل ، الذين يجوز لهم بما يشكل من غيرهم جرما لا يغتفر . والناس التقليديون يثور غضبهم البعد عن العرف ، لأنهم يتصورون في ذلك نقدا لهم ، ولكنهم على استعداد ليغفروا الكثير لمن ينحرف في ليونة ومودة لا في معاكسة وجدية ، بحيث يبدو جليا ، حتى للاغبياء ، انه لا يناهم على الاطلاق . ويبدو ذلك مستحيلا على من تسبب لهم آراؤهم ضياع تعاطف القطيع . وهذا ما يجعل من فقد التعاطف قلقين غير مستريحين ، وبالتالي مشاغبين ، مهما تستروا في الظاهر بتجنب الاصطدامات الحادة ، وينقصهم عادة المرح والانشراح . واذا تم نقل هؤلاء الناس انفسهم الى وسط آخر بحيث لا تبدو فيه نظرتهم للعالم غريبة ، لتبدل طبعهم كل التبدل ، وقد ينقلبون من الانطواء الى المرح والثقة بالنفس ، ومن الغضب الى المرح ، ومن التركيز في ذواتهم الى المعاشرة والانبساط .

وعلى هذا نرى ان يجد الشباب الذين يتقوقعون من البيئة المحيطة بهم في اختيار مهنة او عمل يسمح لهم بفرصة الصحبة الملائمة ، حتى ايجاد رفاق مناسبين ولو كان هذا ضياع قدر معين من دخلهم . وغالبا ما لا يدركون ان هذا ممكن ، لأن معرفتهم للعالم محدودة جدا ، ولذا قد يتخيلون بسهولة ان التميزات التي أعتادوا عليها في بلدهم هي المنتشرة في جميع ارجاء العالم . وفي هذا الشأن على الذين أكبر منهم سنا ان يقدموا النصح والمساعدة للاصغر منهم ، لأن الخبرة الواسعة التي تكتنف النوع البشري اساسية في هذا الركن .

ومن الشائع في عصر التحليل النفسي الذي نعايشه اليوم الافتراض في انه

حين يكون الشـاب غـير مرتـاح مع البيئـة يكون السبـب في ذلك راجـع الى اضطراب نفساني . وهذا من وجهة نظري خطأ محض . لنفترض على سبيل المثال ان والدي هذا الشاب يعتقـدان ان نظـرية التطـور شر ورذيلـة ، ولـو استعمل هذا الشاب شيئا من ذكائه لأمكنه ان يحول دون فقد التعاطف بينـه وبينهما . ان عدم القدرة على الانسجام مع الوسط مصيبة او سوء طالع ، ولكنها ليست مصيبة يجب اجتنابها في جميع الحالات ، فحينما يكون الوسط غبيا او منحاز او صارم ، فمن العلامـات الطيبـة الا ينسجـم المرء معهـا . وهـذه المميزات موجودة الى حد ما في كل البيئات . فغاليليه وكيبلـر كانـت لديهما ، « افـكار هدامة » (كما يسمونهم في اليابـان) وهـكذا يوصف أذكى رجـالات عصرنـا الحاضر . وليس من المرغـوب فيه ان تكون الحاسـة الاجتماعية شديدة النمـو بحيث تدفع مثل هؤلاء الرجال الى الخوف من العداء الاجتماعي الذي يمكن ان تثيره اراؤهم ، بل المفروض هنا ان توجد وسائل تجعل هذا العداء اخف وزنا .

ويظهر في عصرنا الحديث أهم جانب من هذه الجوانب عنـد الشبـاب . وحين يبدأ الرجل التركيز على العمل المناسب وفي البيئة الصحيحة ، يستطيع في معظم المراحل ان ينجو من الاضطهاد الأجتماعي ، ولكن حـين يكون حديث السن تكون مواهبه لا تزال غير مختبرة ويكون عرضة للوقوع تحت رحمة جهلاء الناس ، الذين يعدون أنفسهم اكفاء للحكم في أمور لا يعرفون عنها شيئا . ويغضبون اذا اقترح هذا الشاب شيئا يعرفه أحسن منهم ؛ برغم كل خبرتهم بالعالم . ان العديد من الناس الذين تخلصوا في النهاية من طغيان الجهل كانت المعركة التي خاضوها ضارية ، وعانوا من الاضطهـاد مدة طويلـة جدا حتـى اصبحوا في الاخير شاعرين انهم شربوا كأس المرارة وتلاشت قوتهم . هنـاك نظرية مريحة فحواها ان العبقرية تشق طريقها دائما . وعلى اساس هذه النظرية يؤمن كثيرون ان اضطهاد افكار الشباب لا يمكن ان يسبب لها اي اذى . ولكن ليس هناك اي مبررات لقبول مثل هذه النظرية . انها مثل القضية التي تقتل الارادة ، فنحن نعرف الضحايا الذين عرفناهم ولكن من يعرف عدد الذين لم

نسمع عنهم ؟ ونفس الشيء مع جميع العباقرة الذين سمعنا عن انتصارهم على الظروف المعادية والمعاكسة ، ولكن ليس هناك ما يبرر افتراض انه لم يوجد قط عباقرة آخرون ، لا حصر لهم طمرت عبقريتهم أو شلت في مهدها ، ولا سيما بالارهاب في مرحلة الشباب . وليس الامر قضية عبقرية فقط ولكن ايضا قضية الموهبة على وجه العموم ، وليست المسألة كذلك مسألة الخروج من هذا النضال على اي شأن ، بل مسألة الخروج منها يجب ان يكون بدون حرارة وبدون انهاك للطاقة . ولهذه الاسباب مجتمعة ينبغي عدم وضع الصعاب في طريق الشباب .

من المستحسن ان يقابل كبار السن رغبات الشباب باحترام ، وليس من المرغوب به ان يقابل الشباب رغبات متقدمي السن باحترام . وفي هذا سهل ، وهو ان الأمر بكلتا الحالتين ، متعلق بحياة الشباب لا بحياة المتقدمين في السن . وعندما يحاول الشباب تنظيم حياة متقدمي السن ، اي على سبيل المثال ممانعتهم لزواج الأب او الأم بعد الترمل ، يكون هؤلاء الشباب مخطئين مثل خطأ متقدمي السن الذين يحاولون تنظيم حياة الشباب . فالكبار والشباب على السواء لهم الحق ، متى بلغوا سن التمييز ، ان يعيشوا اختيارهم الخاص ، ومن حقهم اذا ارادوا ان يرتكبوا من الاخطاء ما لا يضر سواهم . ويخطىء الشباب اذا رضخوا لضغط متقدمي السن في أي أمر حيوي . ولنفترض على سبيل المثال انك شاب وترغب في ان تحترف التمثيل ، وان والداك يمانعان رغبتك هذه ، وذلك بحجة ان المسرح غير اخلاقي ،او على اساس ان التمثيل ذو قيمة اجتماعية منحطة . واذا تعرضت لضغط عليك ان تتحمله ويمكن أن يقولوا لك انهما سيتخلان عنك اذا لم تطع اوامرهما ، ومن المحتمل أن يقولا لك انك ستندم بعد سنوات قليلة ، ومن المحتمل أن يذكروا لك عدة امثلة واهية عن عدة شباب تسرعوا في تنفيذ رغباتهم وفي الاخير كانت نهايتهم سيئة . وربما كانوا على صواب في تفكيرهم على ان المسرح ليس المهنة الملائمة لك ، لأنه ليس لديك ميل التمثيل الحقيقي ، او قد يكون صوتك رديئاً . فان كان هذا هو الحال ، فسوف تكتشفه فورا من قبل القائمين على شؤون المسرح عندما تريد

الانضمام اليهم ، وسيكون لديك الوقت الكافي لأختيار المهنة المناسبة . فينبغي الا تكون مجادلة الوالدين سببا كافيا لالغاء المحاولة قبل بدايتها ، لانـك اذا اقدمت على ما اعتزمته عندئذ برغم كل ما يقولانه ، فسرعان ما يرجعـان عن موقفهما ، بل ان ذلك يتم غالبا اسرع مما تظن ويظنان اذا ما نجحت . اما اذا رأيت رأي اهل المهنة مخالفا لك ، فعليك بالتراجع ، لأن رأي المهنة يجب ان يكون على الدوام موضع تقدير الناشئين .

وأني اعتقد ،اذا استثنينا رأي الخبراء ، فأن هناك احترام كلي لآراء الاخرين في كل من الأمور الكبيرة أو الصغيرة . ويتوجب على الشخص كقاعدة عامة ، احترام الرأي العام في الحدود التي تجنبه معاناة المجاعة والزج به في السجن . ولكن اي شيء يتخطى هذا الحد فالانقياد يكون رضوخا اختياريا للطغيان غير الضروري ، ومن المحتمل ان يعوق السعادة من جميع السبل . خذ على سبيل المثال موضوع الانفاق . هناك الكثير من الناس ينفقون النقود بطرق مختلفة تماما عما تتطلبه اذواقهم الطبيعية في شعورهم ان احترام جيرانهم يعتمد على ما يملكون من سيارة فاخرة وعلى مقدرتهم في اقامة ولائم فاخرة . وبالطبع يستطيع اي انسان ماليا شراء سيارة جيدة ، ولكنه يفضل الاسفار او اقتناء مكتبة جيدة ، وسيكون في النهاية اكثر احتراما مما لو تصرف مثل تصرفه في اي شيء آخـر . وبطبيعة الحال ليس هناك هدف مقصود للسخرية من الرأي العـام . امـا ان يكون غير مكترث به حقيقة فهو مصدر قوة وسعادة في وقت واحد . ان مجتمعا مؤلفا من الرجال والنساء لا ينحنون للتقاليد اكثر مما ينبغي هو مجتمع هام الى حد ما أكثر من المجتمع الذي يتصرف فيه الجميع على نمط واحد . وحيث يظهر سلوك كل فرد تجد الانماط المتنوعة ، وانه لشيء عظيم ان تقابل اناسا لهم ميزة الجد والاختلاف ، فذلك افضل من ان تقابل نسخة طبق الاصل لاولئك الذين تقابلهم . أن هذا كان أحدى مزايا الارستقراطية لأن مصير الشخص كان يتوقف على نسبه ومولده ، وهذا كان يسمح بالاخطاء الفردية ، حيث لم يكن لها تأثير في المكانة الموروثة . وقد اخذنا في العصر الحديث نفقد هذا المصدر من

الحرية الاجتماعية ، ولهذا اصبح الادراك المقصود ان نتدبر مخاطر التماثل التام . ولا أعني بهذا ان يكون الناس مختلفي الاطوار ، غير ان ذلك غير طريف بنظري كالسلوك التقليدي تماما ، بل أعني ان يكون الناس طبيعيين وأن يعملوا حسب طبيعة ميولهم على ان لا تكون مضادة للمجتمع بالشكل القاطع .

ونظرا لسرعة الانتقال في العالم الحديث فالناس اقل استقلالا عما كانوا عليه جغرافيا بالنسبة لاقرب جيرانهم . واولئك الذين يملكون سيارات بالامكان اعتبارهم جيرانا لاولئك الذين يعيشون ضمن دائرة قطرها عشرون ميلا ، ولذا عندهم قوة أعظم من الوضع السابق لاختيار زملائهم . ففي أي مجاورة مأهولة لا بد ان يكون الشخص تعيسا جدا ان لم يتمكن من ايجاد شخصيات ملائمة لصحبته من نفس السلوك ضمن حدود عشرين ميلا . وقد اندثر الان الاعتقاد بوجوب معرفة المرء جيرانه الاقربين في المواطن السكنية الكبيرة ، ولكن ذلك لم يزل له بقايا في البلاد الصغيرة الحجم وفي الريف . فهذا الاعتقاد اصبح فكرة جنونية منذ لم يعد هناك حاجة للاعتماد على مجتمع الجيران المباشرين . لقد أصبح من السهل التمكن من اختيار رفاقنا بالنسبة للتوافق اكثر مما للجيرة . وأن السعادة تنمو باجتماع الاشخاص مع ترابط الذوق والفكر . ومن المتوقع ازدياد امكانات التبادل الاجتماعي على هذه الاسس ، ويأمل من هذه الوسائل ان تكون الوحدة التي يعاني منها الكثير من الناس غير التقليديين متلاشية تدريجيا الى حد الزوال . وسيزيد هذا بالتأكيد سعادتهم ، ولكنه سيقلل بالطبع من اللذة السادية التي يحصل عليها التقليديون حاليا من وجود غير التقليديين تحت رحمتهم . ولست مع هذا الظن في ان اللذة السادية اكثر مما ينبغي .

ان الخوف من الرأي العام هو كأي نوع آخر من الخوف ، يتصف بالقهر والجور وتعويق النمو . ومن الصعب التوصل الى أي نوع من العظمة حين يكون الخوف من هذا النوع قويا ، ومن المستحيل الحصول على حرية الفكر الذي ضمنه تكمن السعادة الحقيقية تحت جناح هذا الخوف ، لأنه من

الضروري للسعادة ان يتسع اسلوب حياتنا من شعورنا العميق ، لا من ذوقنا ورغبتنا المفاجئة لمن شاءت الصدفة ان يكونوا جيراننا أو حتى اقربائنا . ولعل الخوف من الجيران المباشرين أقل مما كان عليه ، ولكن هنـاك نوع جديد من الخوف ، وهو الخوف مما تنشره الصحف السيارة ، وهذا مزعج لا يقل بحال عن الخوف من قرية السحر ، حيث كان الناس يحرقون احياء على تخمينـات السحر ! فعندما تقع الصحف على كبش فداء ، فالنتيجة غالبا مريعة ، ومن حسن حـظ معظم النـاس انهـم بمنـأى عن هذا المصـير المريع ، لأنهـم غـير معروفين ، ولكن ما دامت الصحافة ستكمل أكثر فأكثـر في اسلوبهـا كما ان اساليب الدعاية تزداد قوة بحيث يوشك هذا الشكل الجديد من اشكال عقاب المجتمع ان يكون واقعا . وهذا الأمر مؤسف لأنه يعالـج باستهانـة من قبـل الافراد الذين هم ضحـاياه ، ومهما يكن التفـكير بالقاعـدة العظيمـة لحـرية الصحافة فأني اعتقد ان قانون تحريم القذف يجب ان يرسم بشدة اكثر مما يكون حسب القوانين السارية . وان يمنع كل ما من شأنه جعل الحياة غير محتملة . بالنسبة للابرياء والافراد . والعلاج الوحيد النهائـي لمثـل هذا الشر هو زيادة التسامح من قبل الجمهور . وأحسن وسيلة لزيادة التسامح هي في مضاعفة عدد الافراد الذين يتمتعون بالسعـادة الحقيقية ، ولـذا لا يجـدون مصـدر لذتهـم الاساسية في انزال الالـم على زملائهم واصحابهم .

القسم الثاني
أسباب السعادة

الفصل العاشر
هل السعادة لم تزل ممكنة؟

كنا الى الآن نبحث عن احوال تعاسة الانسان ، وسيكون لدينا الان الفصل الممتع للبحث عن الانسان السعيد . لقد توصلت من خلال محادثات وكتب بعض اصدقائي الى نتيجة هي ان السعادة في العصر الحديث أصبحت من المستحيلات ، بيد اني ارى ان وجهة النظر هذه تظهر نوع الى التبدد بالتدقيق ، وقد بحثت في فصل سابق حول رحلاتي في البلاد الاجنبية ، ومحادثاتي مع بستاني حديقتي، كذلك تناولت تعاسة اصدقائي الادباء . وفي هذا الفصل اريد ان استعرض الناس السعداء الذين سبق وتعرفت عليهم في مجرى حياتي .

تقسم السعادة الى نوعين ، وهناك درجات تتفاوت بها ، والنوعين اللذين أعنيهما يمكن تميزهما بسهولة ، فهما العادة الحيوانية والعادة الروحية ، او هما سعادة القلب وسعادة الرأس . ولست معني الآن بتأييد أي اختيار من هذه البدائل ، بل بصدد وصف كل منهما فحسب ، اما الانتقاء فهو وقف على وجهة النظر التي يمكن اثباتها . ولعل أسهل طريقة لوصف الفرق بين نوعي السعادة هو القول أن النوع الواحد مفتوح لأي مخلوق بشري ، وان الاخير غير مفتوح الا امام من يجيدون القراءة والكتابة . وحين كنت غلاما عرفت رجلا يتفجر بالسعادة ومهنته كانت حفر الآبار ، لقد كان طويل القامة وعضلاته لا يصدقها العقل ، ولم يكن يعرف القراءة والكتابة . ولما حصل في عام ١٨٨٥ على حق التصويت في انتخاب البرلمان . عرف للمرة الاولى في حياته أن مثل هذه

المؤسسة السياسية موجودة . فلم تكن سعادته تعتمد على مصادر ذهنية ، ولم تكن كذلك قائمة على القانـون الطبيعـي ، ولا على قابلية الانـواع للتحسـن والتكمل ، ولا على ملكية الشعب للاماكن العامة ، أو النصر النهائي في اليوم السابع من الوصول ، ولا على اي عقيدة اخـرى من العقائـد التـي يعتبرهـا المثقفون ضرورية لاستمتاعهم بالحياة . لقد كانت سعادته ترتـكز على القـوة البدنية ، وتوفر القدر الكافي من العمل والتفوق على العقبات الهائلة المتمثلة في الصخور . وسعادة بستاني حديقتي كانت من نفس النوع ، فهو يعلن حربا دائما على الارانب الجبلية التي يتكلم عنها مثلما تتكلـم سكوتلنديارد× عن البلاشفة×× اذ تعتبرها متآمرة وضارية ، وله رأي في ذلك انه لا يمكن مضارعتها الا بمكر يضارع مكرها . فهو مثل أبطال الفلهالا××× الذين كانوا يقضون كل يوم في أصطياد خنزير بري متوحش يقتلونه كل ليلة ، ثم يعود بطريقة اعجوبية ثانية للحياة في الصباح . وكذلك بستاني حديقتي قادر ان يقتل عدوه في اي يوم من غير ان يخشى تلاشيه عن الوجود في اليوم التالي . وفي حين انه تجاوز السبعين من عمره ، فهو يعمل طول النهار ، ويركب الدراجة مسافة ستة عشر ميلا في طرق جبلية كل يوم ذهابـا وايابـا من عملـه ، وسعادتـه عطـاء لا ينضـب ، والارانب هي رمز هذا العطاء .

ولكنك ستقول ان هذه المباهج ليست متاحة للناس الراقين مثلنا . فما هو السرور الذي يمكن ان نجده في اعلان الحرب على مثل هذه المخلوقات الضئيلة مثل الأرانب ؟ وهذه الحجة في اعتقادي تافهة ، لأن الارانب اكبر حجما بكثير من جراثيم الحمى الصفراء ، مع العلم ان الانسان المتفوق قد يجد سعادة في القيام بحرب ضد هذه الجرثومة . واللذات المماثلة تمام المماثلة للذات بستاني حديقتي متاحة لأغلب الناس المثقفين تثقيفا عاليا من حيث محتواها الانفعالي .

× سكوتلنديارد : هو احسن ما عرف من اتحاد بوليس الدولة في الزمن الحاضر في بريطانيا ـ المترجم

× × البلشفيك : هم الجناح اليساري المتطرف للحزب الديمقراطي الاشتراكي الروسي ، وهو الان الحزب الشيوعي السوفياتي ـ المترجم .

× × × الفالهالا : مثوى الابطال في الأساطير ـ المترجم .

والفرق فيما يخص التربية هو فقط بخصوص الانشطة التي من خلالها نحصل على اللذات فلذات الانجاز تتطلب صعوبات تجعل النجاح يظهر مسبقا مشكوكا فيه ، ولكنه يتحقق عادة في النهاية . ولعل هذا كان السبب الرئيسي في ان تقدير قدرات المرء تقديرا غير مغالى فيه يعد من مصادر السعادة . والانسان الذي يقلل من غروره يكافىء في النهاية بالنجاح ، في حين ان الانسان الذي يبالغ في تقدير نفسه يمنى بالفشل . والنوع السابق من الدهشة سار ، والنوع الاخر غير سار . لذا فمن الحكمة ان لا يكون المرء مغرورا ولا مفرطا في التواضع بحيث يتوقف عن المحاولة .

ان اسعد الناس من ذوي الثقافة العالية في المجتمع في ايامنا هذه هم رجال العلم ، وابرزهم غالبا من البسطاء ، ويحصلون من عملهم على رضا عميق بحيث يستمدون لذة من الاكل وحتى من الزواج ، واما الفنانون ورجال الادب فيرون من الطبيعي ان يشقوا في زواجهم ، ولكن رجال العلم كثيرا ما يظلون قادرين على الهناء المنزلي على الطراز القديم . والسبب في ذلك هو ان الاجزاء العليا من ذكائهم تكون مشغولة كليا بعملهم ، ولا يسمح لها بالتدخل في مناطق او مجالات ليس امامها دور تؤديه فيها . وهم سعداء في عملهم لأن العلم في العالم الحديث تقدمي وذا نفوذ ، وأهميته غير مشكوك فيها سواء من قبل انفسهم أو من قبل من هم خارج اختصاصهم . ولذا لا ضرورة عندهم للانفعالات المعقدة ، طالما أن الانفعالات البسيطة لا تعترضها اي عقبات . وان الاضطرابات في الانفعالات مثل الزبد على وجه الماء . انها تنتج عقبات تعكر مجرى الحياة الناعمة ، ولكن الطاقات الحيوية لا تتعكر ولا ينتج عنها أي تموجات على السطح ، ولا تبدو قوة هذه الطاقات لغير المراقب الفطن .

وجميع حالات السعادة يمكن ادراجها في حياة رجل العلم . فهو يملك طاقة يسيطر عليها لاقصى حد ، ويتوصل لنتائج تظهر أهميتها ليس له شخصيا ، فحسب ، بل عند الجمهور العام ، حتى وان عجز عن ادنى درجة من درجات فهمها . وهو في هذا أكثر حظاً من الفنان . فحين لا يتمكن الجمهور من فهم

لـوحة أو قصيدة يستنتـج انـها رديئة ، امـا عندما لا يفهم نظرية النسبية فانه يستنتج ان تعليمه غير كاف . وتبعا لذلك نال آينشتـين× الشرف مكرمـا مبجلا ، في حين ترك اعظم الفنانين للجـوع في الحجـرات الحقـيرة . ونجـد آينشتين سعيد ، في حين كان الفنانـون تعسـاء . ان عددا ضئيلا من النـاس بامكانهم ان يكونوا سعداء حقـا في حياة تقتضي اثبـات الـذات المستمـر ضد ارتيابات جمهور البشر ، ما لم يغلقوا على انفسهم حلقة صغـيرة من الخلان ينسوا بها العالم الخارجي الجامد . اما رجل العلم فليس بحاجة الى حلقة صغيرة او شلة طالما الجميع يحسنون الرأي به ، باستثناء زملائـه ! امـا الفنـان فهـو على النقيض من ذلك لأنه في وضع مؤلـم بين ان يكون مزدري وان يكون خسيسا . فاذا كانت قدراته من الطـراز الاول فعليه ان يجـر على نفسـه احـدى هاتـين المصيبتين ، فيكون مزدري ان استخدم قدراته ، أو يكون منحطا خسيسا ان احجم عن استخدامها . ولكن الحال ليس هكذا على الدوام ، وفي كل مكان . فقد كان هناك ايام للفنانين الممتازين كانوا فيهـا موضـع تقـدير . فجـوليوس الثاني× وان اساء بعض الشيء معاملة ميكل انجلو×× لكنه لـم يخطر بباله قط انه غير كفـء لرسم اللوحات . كما ان المليونير العصري وان اغـدق الثـروة على الفنانين المسنين بعد ان فقدوا بأسهم ، الا انه يستحيل عليه ان يتصور عملهم يضاهي عمله في الاهمية ، ولعل لهذه الظروف علاقة في ان الفنانين على وجه العموم أقل سعادة من رجال العلم .

وأني اعتقد انه لا مفر من الاعتراض في ان معظم الشباب النابهين في البلاد الغربية يظهـر عندهـم ذاك النـوع من الشقـاء الناجـم عن عدم تمكنهـم من استخدام افضل مواهبهم استخداما لائقا . وهناك انشطة في البلاد الشرقية تبدو

× آينشتين : فزيائي الماني ، ولد عام ١٨٧٩ له نظرية التناسب في الزمان تؤدي الى نقض نظـرية نيوتـن في الجاذبية العامة ـ المترجم .

× جوليوس الثاني (جوليانو ديلا روفر) شغل منصب البابوية من عام ١٥٠٣ الى ١٥١٣ ـ المترجم .

× ميكل أنجلو (١٤٧٥ ـ ١٥٦٤) مصور ونحات ومهندس وشاعر ايطالي لا يعرف له مثيل في مبتكرات الفن من عظمة وقوة وتنويع في وفاء كل موضوع حقه ـ المترجم .

للشباب هامة . والشباب المثقف في روسيا اكثر سعادة من اي مكان آخر من العالم في وقتنا الحاضر . هناك لديهم عالم جديد ليبدعوه بايمان شديد وفي ذلك ابداعهم. الى القدماء نفذوا واميتوا جوعا وهجروا بطرق اخرى طهروا ذلك حتى لا يتمكنوا كما هو الحال في البلاد الغربية من ان يضطر الشباب على عمل الاساءة او ان لا يعمل شيئا . وبالنسبة للفسسطائيين الغربيين ظهر لهم ايمان الشباب الروسي خاما من وجهة نظرهم ، ولكن بعد كل هذا ماذا يمكن قوله عكس هذا ؟ انهم يبدعون عالما جديدا ، العالم الجديد لهواهم ، فالعالم الجديد في الاغلب عندما يبدع سيجعل مستوى الروسيين أسعد مما كان قبل الثورة . ومن المحتمل ان يكون ذلك في عالم فيه السفسطائيون من المثقفين الغربيين سعداء ، ولكن السفسطائيين من المثقفين سوف لا يكونوا احياء به . ومن خلال أي فحص فعلي يتضح ايمان الشباب الروسي منصفا ، واذا ادعينا أنه خاما فلا يكون لدينا اي تبرير للاعتراض في اسس النظرية .

وتتدخل في كل من الهند والصين واليابان العوامل الخارجية في نوع من السياسة لاسعاد الشباب الاذكياء ، ولكن ليس هناك أي عوامل داخلية كتلك القائمة في الغرب ، وتظهر فعاليات هامة بالنسبة للشباب ، والى حين نجاح هذه الفعاليات ، يكون الشباب سعداء ، لأنهم يشعرون ان عليهم دورا هاما ليلعبوه في الحياة الوطنية وهدفهم ملاحقته ، علما انه صعب لكنه ليس من المحال ادراكه . ان الاستخفاف الذي نجده عند ارقى شباب ونساء الغرب تعليما ناتج عن الجمع بين الراحة والشعور بعدم القدرة ، وان عدم القدرة يجعل الناس يشعرون ان لا شيء هناك يستحق العمل ، والراحة تجعل ألم هذا الشعور محتملا في حدود الطاقة . اما في الشرق فان طالب الجامعة يأمل دائما التأثير على الرأي العام أكثر مما لا يتيسر في اقطار الغرب الحديث . ولكن فرصة الشاب المشرقي اقل لتأمين دخل كاف في بلاده . وكون الانسان خاليا من الشعور بالعجز ومن التمتع بالرفاهية ، فانه يصبح مصلحا أو ثوريا وليس شريرا . وتعتمد سعادة المصلح أو الثوري بالطبع على مسار الشؤ ون العامة ،

وان فشل وحكم عليه بالاعدام لم يخل عندئذ من سعادة لا يتمتع بها الشاب الغربي الشرس . واني لأتذكر طالبا صينيا زار مدرستي وكان في طريقه لبلاده لتكوين مدرسة مماثلة في القسم الرجعي من الصين ، وكان يتوقع ان تكون النتيجة قطع رأسه ، ومع هذا كان يتمتع بسعادة هادئة كنت أحسده عليها .

وليس في حسباني القول ان هذه المستويات العالية من أنواع السعادة هي الحالات الممكنة الوحيدة ، فهذه سعادة غير متاحة الا للاقلية فقط ، لانها تتطلب نوعا من المقدرة ورحابة في الاهتمام لا يمكن ان يكونا مؤتلفين جدا . ليس بامكان العلماء الممتازين فقط الحصول على السعادة في عملهم ، ولا كذلك قادة رجال الدولة الذين بامكانهم الحصول على اللذة وحدهم من خلال مساندة قضية عامة . ان لذة العمل متاحة لكل فرد يستطيع انماء مهارة متخصصة ، بحيث يستمد الاكتفاء من تجربة مهارته بدون ان يطالب العالم كله بالانحناء له . اني اعرف شخصا فقد رجليه في شبابه الباكر ، بيد أنه بقي سعيدا بهدوء طيلة حياته المديدة ، وتوصل الى هذه السعادة من خلال انكبابه على تأليف كتاب في خمسة أجزاء عن آفات الورد ، وفهمت انه كان خبيرا ضليعا في هذا الموضوع . ولم يتح لي شرف معرفة عدد كبير من علماء المحار ، ولكني فهمت من اولئك الذين عرفتهم ان دراسة الأصداف تعطي الرضا والسرور لاولئك الذين يعملون فيها . وقد عرفت مرة منضد احرف مطبعة كان من ألمع المنضدين في العالم ، وكان يقصده جميع من يهتمون بابتكار انواع فنية من الحروف . وكان هذا الرجل لا يستمد حبوره من الاحترام الحقيقي الذي يسبغه عليه اناس لا يغدقون احترامهم اعتباطا ، بقدر ما يستمده من ممارسة حرفته ، وهو ابتهاج اشبه بالابتهاج الذي يستمده الراقصون من قيامهم بالرقص . كما عرفت ايضا منضدين كانوا خبراء في صف النمط الرياضي ، او الحروف المسمارية او النسطورية Nestorian أو أي شيء خلافه ان كان صعبا أو مألوفا . ولم اكتشف اذا كانت حياة هؤلاء الاشخاص العائلية سعيدة ام لا ، ولكن في

× الخط النسطوري : هو الذي يسمى الخط الشرقي ويستعمله اليوم النساطرة والكلدان ـ المترجم .

غرائزهم البناءة كانت تجد اشباعها التام في ساعات عملهم .

من عادة عصرنا هذا عصر الآلة القول أنه ليس هناك متسع كالعصور السابقة ، لابتهاج الصانع الحرفي للتمتع ببراعة عمله . ولست متأكداً تماما اذا كان هذا القول صحيحا ، فالعامل الحاذق يصنع اليوم أشياء مختلفة عن تلك التي كانت تشغل اهتمام النقابات الحرفية المتوسطية ، ولكنه لا يزال هاما جدا وضروريا في الاقتصاد الآلي . فهناك اولئك الذين يصنعون الادوات العلمية والآلات الدقيقة الصعبة ، وهناك المصممون وميكانيكيو الطائرات وسائقوا السيارات ، وكثيرون آخرون ممن لديهم مهن يمكن انماء المهارات فيها الى أقصى حد . ويبدو لي ان العامل الزراعي والفلاح في المجتمعات البدائية ، على ما اتيح لي رؤيته ، على قسط من السعادة يضاهي سعادة سائق السيارة او القاطرة . اجل ان عمل الفلاح الذي يزرع ارضه مختلف ، حيث يحرث ويبذر ويحصد ولكنه تحت رحمة الطبيعة ، وهو مدرك جدا بخضوعه وتبعيته لها ، اما الرجل الذي يعمل بالالات الميكانيكية فيشعر بقدرته وقوته ويكتسب الاحساس بان الانسان هو السيد ، وليس عبد للقوى الطبيعية . وقد يبدو صحيحا أن العمل يخلو من الطرافة بالنسبة للعدد الكبير من المشرفين على الالات الذين يكررون نفس العملية الالية باستمرار مع اقل قسط من التنوع ، او بدون تنوع اطلاقا . وفي حال عدم طرافة العمل يزداد الاتجاه الى تكليف الالة به بدلا من الانسان . ان الهدف النهائي لانتاج الالة هو في الواقع انتقالنا بعيدا ، انه اسلوب غير مشوق يجعل الالة والمخلوقات البشرية تحتفظ بالعمل الذي يتطلب تنوع وذكاء . وفي مثل هذا العالم أصبح العمل أقل سآمة وأقل انقباضا عما كان عليه منذ ظهرت الزراعة . ومنذ شرع الانسان بالزراعة قرر قبول الخضوع للروتين والملالة في سبيل تقليل مخاطر المجاعات . وفي حين كان البشر يحصلون على طعامهم عن طريق الصيد والقنص ، كان يبدو هذا العمل بهجة لناظريه ، ونرى ذلك بوضوح من توارث الاغنياء هذا العمل عن اجدادهم بقصد التسلية واللهو . ولما دخلت الزراعة المستقرة دخل الجنس

البشري في فترة طويلة من الانحطاط والبؤس والجنون ، لم يتخلص منه الا الآن مع ظهور الالـة . وسيكون من المفيد جدا ان يتحـدث العـاطفيون عن الاتصال بالتربة ، وعن الحكمة الناضجة التي يرددها فلاحو قصص هارديx Hardy المتفلسفون ، ولكن الرغبة الوحيدة لكل شاب في الضواحي هي أيجاد عمل في المدن حيث يتمكن من التخلص من عبودية الريح والطقس ووحشة ليالي الشتاء المظلمة ، ويتمتع بالجو الانساني الاساسي في محيط المعمل والسينما . ان التعاون والرفاق من العناصر الاساسية لسعادة الانسان العـادي ، وهـذه يمكن التوصل اليها في الصناعة أكثر بكثير من الزراعة .

ان الاعتقاد بشيء ما هو مصدر لسعادة عدد كبير من الناس ، ولا ارمي في ذلك الثوريين والاشتراكيين والـوطنيين في البـلاد ذات الحـكم الصـارم ومـن اليها ، بل اقصد ايضا العديد من ذوي العقائد الاكثـر تواضعا من هؤلاء . فمن الرجال الذين عرفتهم والذين يعتقدون ان الانـكليز هم القبائـل العشر المفقودة ، كان هؤلاء سعداء باستمرار تقريبا . واما من اعتقدوا ان الانكليز من نسل افرايم Ephraim ×× ومنسي Manasseh ××× فكانت سعادتهم لا تعـرف حدودا . ولا اقترح على القارىء ان يختار هذه العقائد لأنني لا استطيع الدعوة الى اي سعادة ترتكز على ما يظهر لي انها معتقدات كاذبة . وكذلك لا يمكنني حث القارىء للاعتقاد بان الناس ينبغي أن يعيشوا على الجوز فحسب ، مع ان هذا الاعتقاد ، في حدود علمي ، يؤمن السعادة التامة ، . ولكن من السهل أيجاد سبب غير خيالي اطلاقا ، وكل من يكون اهتمامهم بسبب من هذه الاسباب طبيعيا صحيحا يجدون فيه عملا يسد ساعات فراغهم وعلاجا كاملا للشعور أن الحياة فارغة .

ان الانتقال بعيدا عن الاهتمامات يعد قضية غامضة او مغمورة . وأشهـر

× توماس هاردي (١٨٤٠ ـ ١٩٢٨) مؤلف انكليزي وشاعر ـ من آثاره : المحبوب ـ المترجم

× × افرايم : ابن يوسف بن يعقوب ابن اسحق بن ابراهيم ، ولد في مصر ـ المترجم

× × × منسي : اخ افرايم بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ـ المترجم

العلماء الرياضيين الاحياء يقسم وقته بالتساوي بين الرياضيات وجمع الطوابع ، واني اتصور ان جمع الطوابع له راحة في اللحظات التي لا يتمكن بها من أحراز أي تقدم في الرياضيات . والصعوبة في أثبات الاهتمامات في نظرية الارقام ليست الحزن الوحيد الذي يستطيع جمع الطوابع ان يلطف منه ، وليست الطوابع فقط هي الأشياء الوحيدة التي يمكن جمعها . وتصور اي حقل واسع من النشوة مفتوح أمام التخيل عندما يفكر الشخص في قطع الخزف الصينية القديمة ، وعلب السعوط ، والنقود الرومانية ، ورؤوس السهام ، وأدوات الصوان . اجل انها الحقيقة في أن العديد منا « ارفع » من الاشتغال بهذه اللذات البسيطة التي اختبرناها جميعا في صبانا ولكننا حسبناها لسبب ما غير مستحبة للشخص البالغ . ان هذا خطأ فادح . واي لذة لا تضر الآخرين وهي تستحق التقدير تكون ذات قيمة . ومن جانبي أجمع الانهار وأتمتع بسرور لأنني عبرت الفولغا Volga × الى مصبه يانغتسي Yangtse ×× الى منبعه . واني لآسف لعدم تمكني من مشاهدة الامازون Amazon ××× او الاورونكو Orinoco ×××× . ومهما يكن مثل هذا الشعور بسيطا فأنني لا أخجل منه . وعليك ان تتصور الفرح الحماسي الذي يشعر به المتحمس لفريق البيسبول الذي يقلب الصحف بلهفة ، وتقدم له اذاعة المباريات بالراديو اثارة عميقة جدا . وانني اذكر مقابلتي الاولى لأحد قادة الأدب في امريكا ، وهو رجل حسبته من خلال قراءتي لمؤلفاته انه يفيض بالاحزان . ولكن قادت الصدف في ذلك الوقت اذ كانت نتائج مباريات البيسبول تعلن من الراديو ، فنسيني الرجل ونسي الادب وجميع الاحزان الأخرى لحياتنا الأرضية ورضخ بسروره لفوزه بالمجد والنصر . ومنذ ذاك التاريخ تمكنت من قراءة مؤلفاته من غير ان اكتئب للنوازل التي تحل بشخصياته .

× الفولغا : نهر في روسيا (٣٦٩٤ كغ) أطول انهر اوروبا . يمر في ستالينغراد واسترخان ويصب في بحر قزوين . عليه محور الملاحة في روسيا ـ المترجم

× × يانغتسي : النهر الرئيسي في الصين ويقدر طوله بـ ٣٠٠٠ ميل ـ المترجم

× × × الامازون : اكبر نهر في امريكا الجنوبية ، ويبلغ طوله بـ ١٧٠٠ ميل ـ المترجم

× × × × الاورنكو : النهر الرئيسي في شمال جنوبي امريكا ، يمر بكولومبيا ـ المترجم

ان الولع بالشيء والهوايات مهما تكن قد لا تكون مصدر سعادة أساسية ، بل وسيلة للهروب من الواقع ، لا نسيان من الصعب جدامواجهته . ان السعادة الحقيقية تعتمد أكثر ، من أي شيء آخر على ما يعرف بالتوجه الودي للاشخاص والاشياء .

ان التوجه الودي بالاشخاص هو شكل من اشكال الاعزاز ، ولكنه ليس الشكل المتماسك الشامل الذي يبحث عن تجاوب عنيف ، وهذا الاخير هو بصورة مستمرة مصدر التعاسة . اما نوع الاهتمام الذي يدعم السعادة فهو النوع الذي يحب مراقبة الناس ، ويجد لذة في سماتهم الفردية ، ويفتح مجالا للاهتمامات واللذات امام اولئك الذين يتصل بهم من الناس ، بدون الرغبة في الحصول على تفوق عليهم او نيل اعجابهم الحماسي . ان الانسان الذي سلوكه تجاه الغير بهذا الواقع سيكون مصدر سعادة ومرجع الرقة المتبادلة ، وعلاقته بالغير ، سواء كانت جدية او هينة ، فانها ستقنع كل من اهتماماته وعواطفه معا . ولن يتذوق مرارة عدم التقدير لانه قلما يلقى ذلك من الناس ، ولا يلاحظه ان وجده . وفرط الحساسية التي قد تحز في اعصاب انسان آخر الى حد درجة الهيجان قد تكون مصدر استمتاع لطيف ، وسوف يتوصل الى نتائج بدون جهد في ان رجلا آخر سيجد نفسه يائسا بعد كفاح طويل . ولكونه سعيدا في نفسه سوف يكون رفيقا محبوبا ، وهذا بدوره سيزيد من سعادته ، ولكن جميع ذلك يجب ان يكون واقعيا غير مفتعل ، وغير نابع من فكرة تضحية الذات الموحى بها من فكرة الشعور بالواجب . فالشعور بالواجب مفيد في العمل ولكنه ضار في العلاقات الشخصية . فالناس يرغبون ان يكونوا محبوبين ، لا ان يطاقوا ويحتملوا في اذعان صبور . وان في محبة اناس كثيرين ، وبدون جهد ، ربما كان ذلك أعظم مصادر السعادة الشخصية .

لقد تناولت أيضا في فقرة ما يسمى بالتوجه الودي للاشياء . وقد يبدو هذا المقطع مكروه ، كما انه يمكن القول أنه من المستحيل الشعور بصداقة للاشياء . ومهما يكن فهناك شيء ما محلل للصداقة في نوع الاهتمام الذي يقوم به

الجيولوجي واهتمامه الفردي بالصخور او الى عالم الآثار واهتمامه بالآثار القديمة . ومثل هذا الاهتمام الودي ينبغي ان يكون عنصرا من عناصر سلوكنا بالنسبة للافراد او المجتمعات ، وقد يجمع احد الناس المعلومات عن العناكب ، لأنه يكرهها ويريد ابادتها ، ويرغب العيش حيث لا يوجد منها الكثير . وهذا النوع من الاهتمام لا يقدم نفس الاهتمام الذي يتوصل اليه الجيولوجي من صخوره . فالاهتمام بالاشياء غير الشخصية قد لا تكون له اهمية السلوك الودي بازاء البشر ، الا انه هام جدا للعادة . فالعالم شاسع جدا وقوانا الخاصة محدودة ، فاذا كانت كل سعادتنا مرتبطة كليا في احوالنا الشخصية ، فمن الصعب الا نطالب الحياة اكثر مما تعطيه لنا . وفي الكثير سيكون الاسلوب المؤكد للحصول على أقل من الممكن . والانسان الذي بامكانه تناسي همومه في بحث تاريخي في موضوع مجمع ترانتCouncil of Trent × أو تاريخ النجوم سيجد نفسه عودته من عند هذا العالم غير الشخصي انه توصل الى فترة سكون وهدوء تمكنانه من معالجة اضطرابه بافضل أسلوب ، وسيكون في الوقت نفسه قد احس بالسعادة ، ولو كان ذلك بصفة مؤقتة .

أن سر السعادة هو كالتالي : دع اهتمامك متسعا بقدر الامكان ودع ردود فعله للاشياء او للاشخاص الذين يهمونك ودية بقدر الامكان وابعد ما تكون عن العداء .

وسأبسط هذا الشرح الاول لامكانات السعادة في الفصول القادمة مع مقترحات لتجنب المصادر النفسية للبؤس .

× مجمع ترانت (١٥٤٥ - ١٥٦٣) هو المجلس المسكوني التاسع عشر للكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، عقد في مدينة ترانت التي تقع في الشمال الشرقي من ايطاليا - المترجم

الفصل الحادي عشر
اللــــذة

سأحصر بحثي في هذا الفصل على ما يظهر لي اعم علامة بارزة للسعداء ، واعني بذلك اللذة . ولعل أحسن وسيلة لفهم المقصود من كلمة لذة هي ملاحظة الطرق المختلفة التي يسلكها الناس عندما يجلسون الى مائدة الطعام . فمنهم من تكون لهم وجبة الطعام باعث على السأم والضجر ، ومهما كان الطعام حسنا فهو لديهم غير هام وغير طريف . فالوجبات عندهم تبدو تقليدية تفرضها الأصول الاجتماعية التي يعيشون في ظلها . والاكل عندهم ، مثل اي شيء آخر ، مسألة متعبة ، ولكن ليس من سبيل للاعتراض او الرفض ، فكل شيء آخر متعب ايضا . ثم هناك المرضى الذين يأكلون كواجب بناء على امر الدكتور . وهناك الذواقون الذين يشرعون في الاكل وكلهم امل ، ولكنهم يجدون انه ما من لون طهي كما ينبغي ان يطهى . كما انه يوجد ايضا النهمون الذين ينقضون على طعامهم بشوق ونهم ويأكلون اكثر مما ينبغي ، يحتقن وجههم بالدم ثم يعلو غطيطهم ، . واخيرا هناك من يبدأون الطعام بشهية سليمة ، فرحين بطعامهم ، ويأكلون كفايتهم ثم يتوقفون ، . ومن يجلسون امام وليمة الحياة لهم سلوك شبيه بهذا ازاء الطيبات التي تحفل بها المائدة ، والرجل السعيد من ينطبق عليه آخر النماذج من صنوف الاكلين ، ترى ما هي علاقة الجوع بالطعام من اللذة المتعلقة بالحياة ؟ ان الانسان المتبرم من وجبات طعامه تنطبق عليه صفات التعاسة على الطريقة البايرونية . والمريض الذي يأكل بشعور من الواجب يقابل المتصوف او الزاهد . اما النهم المحب للاكل فيقابله الشهواني . وناشد اللذات والمتع . هو الشخص الذي يعتبر نصف

مباهج الحياة غير جمالية . والمستغرب في الامر ان كل هؤلاء ، باستثناء النهم الاكول ، يشعرون بالازدراء لصاحب الشهية الصحية ويحسبون انفسهم ارقى منه . ويتجلى لهم ، ان الاستمتاع بالاكل لانك جائع او الاستمتاع بالحياة لأنها تقدم لك مناظر آخاذة وخبرات مدهشة نوع من الاسفاف المبتذل ويتهمون من يزدرونهم بالسذاجة . وارى كل تمنع عن طيبات الحياة دليل مرض . وهذا المرض قد يكون نتيجة طبيعية في احوال معينة ، ولكنه يظل مرضا ويجب علاجه قبل استفحاله ، ولا يمكننا اعتبار ذلك علامة السمو من الحكمة . لنفرض شخصا يحب الفريز وآخر لا يحبه. ، ففي اي شأن يكون الاخير اسمى من الأول ؟ ليس هناك حقيقة او برهان قاطع اذا كان الفريز جيدا ام لا ! فبالنسبة للانسان الذي يحبه يراه جيدا وللانسان الذي يكرهه يراه غير جيد ، ولكن الانسان الذي يحبه يجد لذة لا يجدها الآخر ، وهو من هذه الناحية اكثر استمتاعا بالحياة ، واكثر تكيفا بالعالم الذي يعيشان فيه الاثنان . والحقيقة في هذا المثال البسيط تعادل في واقعها اكثر الامور اهمية . فمن يستمتع بمشاهدة مباريات كرة القدم يكون لحد ما أفضل من لا يستمتع بها . ولعل الانسان الذي يستمتع بالقراءة اسمى من الانسان الذي لا يستمتع بها ، طالما ان فرص القراءة اكثر من فرص مشاهدة مباريات كرة القدم . وفي حين تكثر اهتمامات المرء تكثر فرص سعادته ، ويقل وقوعه تحت رحمة القدر ، لأنه ان فقد اهتماما من اهتماماته ، يغنيه غيره ويعزيه عما فقده . والحياة قصيرة جدا في الاهتمام بكل شيء ، ولكن من المستحسن ان يهتم الانسان باشياء عديدة ضرورية لملء فراغ ايامه . ونحن جميعا عرضة لداء الانطواء على النفس ، وهذا الداء يجعل الانسان ، رغم مشاهد العالم المنتشرة ، يدير ظهره وينظر الى الخواء الذي في داخله ، ودعنا نتصور اي لون من العظمة في شقاء الانطوائي .

كان هناك ذات مرة آلتان لصنع النقانق صنعتا بدقة بقصد تحويل الخنزير الى نقانق شهية جدا . وقد احتفظت احدى هاتين الالتين باقبالها الاستمتاعي على لحم الخنزير ، وأنتجت عددا لا يحصى من النقانق . بينما الالة الاخرى كأنها

قالت « ما الخنزير بالنسبة لي ؟ ان عملي الخاص اكثر اهمية واولى من اي لحم خنزير » . لقد رفضت الخنزير وباشرت عملي لدراسة داخلها . وحين حرمت من غذائها الطبيعي ، توقف داخلها عن العمل . ، وكلما تعمقت في دراستها كلما ظهرت لي اكثر فراغا وجنونا ، لأن جميع الاجهزة التي كانت بجميع العمليات توقفت عن اداء وظائفها ، وتولت الالة الحيرة في امرها . فآلة النقانق الثانية مثل الانسان الذي فقد قابليته الاستمتاعية ، بينما الالة الاولى مثل الانسان الذي احتفظ بهذه القابلية . ان الذهن آلة غريبة بامكانها وصل المواد التي تقدم لها في اعجب الطرق ، ولكنها لا قدرة لها على شيء بدون هذه المواد التي تأتيها من العالم الخارجي .ولكن الذهني يختلف عن آلة صنع النقانق من حيث ان عليه اقتناص المواد اللازمة له بنفسه ، فالوقائع لا تتحول الى خبرات الا عن طريق الاهتمام الذي نوليها اياه ، وما لم تلفت اهتمامنا فلن نصنع منها شيئا .ومع هذا ، فالانسان الذي يتجه اهتمامه كله الى داخله لن يجد شيئا يستحق الملاحظة ، اما من تتجه اهتماماته الى الخارج فيستطيع ان يجد في داخله ، في اللحظات القليلة التي يفحص فيها روحه ، اكبر تنويع ممكن من المكونات يجري هناك تشريحها واعادة تجميعها في عينات حلوة مفيدة تثقيفية .

ان حالات اللذة لا تحصى . فمما يذكر عن شرلوك هولمز× أنه التقط ذات يوم قبعة اتفق ان وجدها في الشارع ، وبعد ان تطلع اليها لاحظ ان صاحبها هبطت منزلته نتيجة لافراطه في السكر ، وان زوجته لم تعد مولعة به كما كان الامر سابقا . والحياة لا يمكن ان تكون مضجرة لانسان تستطيع الاشياء العرضية ان تفيض عليه كل هذه الثروة من الاهتمام والطرافة . وفكر في الاشياء المختلفة التي يمكن أن تلاحظها أثناء المرور في الريف . فقد ترى شخصا ما مولعا بالطيور ، وآخر بالنباتات الطبيعية ، وثالث في الجيولوجيا ورابع في الزراعة وأساليبها وهكذا . واي شيء من هذه الاشياء مهم ان هو اثار اهتمامك ، والانسان الذي يهتم بأي منها افضل ملائمة للعالم ممن لا يهتم بشيء منها .

× شرلوك هولمز : شخصية التحري في قصص الكاتب الانكليزي سير آرثر كونان دويل ـ المترجم

ان الفرق شاسع بين مواقف الأشخاص المختلفين بازاء زملائهم من البشر . فقد يفوت احدهم مثلا في اثناء رحلة طويلة بالقطار ملاحظة او مراقبة ايا من زملائه المسافرين ، بينما يكون الاخر قد أحصاهم وحلل سلوكهم وطباعهم ، وكون فكرة بارعة عن ظروفهم ، وربما نفذ الى سر عدد منهم . وفي ذلك يجد كثيرون من الناس ان جميع البشر مضجرون ، في حين يشعر آخرون بسهولة باحساسات ودية نحو كل من يحتكون بهم ، الا اذا كان هناك سبب ما يدعوهم الى خلاف ذلك . واذا رجعنا ثانية الى موضوع الاسفار . نرى بعض الناس يسافرون عبر بلاد كثيرة ، وينزلون دائما في أحسن الفنادق ، ويأكلون بالضبط نفس الطعام الذي يتناولونه في بيوتهم ، ويلتقون بنفس الاشخاص الاغنياء الكسالى الذين يقابلوهم في بلادهم ، ويتحدثون في نفس الموضوعات التي يتداولونها على موائد عشائهم الخاصة . وعندما يعودون يكون شعورهم هو التخلص من أعباء ومصاريف التنقل . اما الناس الاخرون فيرون حيثما ذهبوا ما هو مميز لتلك الاماكن ، ويتعرفون بالاشخاص الذين يتمثل فيهم النمط المحلي ، سواء أكان ذلك تاريخيا أو اجتماعيا . ويأكلون طعام البلاد ،ويتعلمون عوائد البلد ولغتها ، ويرجعون لبلادهم برصيد طيب من الافكار السارة لليالي الشتاء .

ففي جميع هذه الاوضاع المختلفة ، يكون من لديه اللذة للحياة احظى ممن ليس لديه هذا الاقبال . حتى الخبرات غير السارة لها ايضا فوائدها عندهم . وأنا شخصيا مسرور لأنني شممت الجمهور الصيني والقرية الصقلية ، وان كنت لا ازعم ان لذتي كانت عظيمة جدا في تلك اللحظة . ان الرجال المغامرين يستمتعون بتحطم السفن ، والعصيان ، والزلازل ، والحرائق ، وجميع انواع الخبرات غير السارة ، شريطة ان لا تتخطى التأثير على الصحة . فهم يقولون لأنفسهم اثناء الزلازل مثلا : « اذا هذا هو الزلزال ! » ويطيب لهم زيادة علمهم عن العالم بهذا الطريق الجديد . ومن المحتمل أن لا يكون ذلك صحيحا اذا قلنا ان مثل هؤلاء الناس ليسوا تحت رحمة القدر ، لأنه اذا حدث

وخسروا صحتهم ، فانه من المحتمل جدا ان يفقدوا لذتهم للحياة في نفس الوقت ، وان كان هذا ليس مؤكدا . لقد عرفت اناسا ماتوا في نهاية سنوات من العذاب البطيء ، ومع ذلك احتفظوا بلذتهم للحياة الى آخر لحظة . كما ان بعض حالات المرض تقضي على لذة الحياةوغيرها لا تفعل ذلك . ولست ادري فيما اذا كان بامكان علماء الكيمياء الحيوية التفريق بين هذه الانواع من الامراض . وقد يكون ذلك حين يتقدم علم الكيمياء الحيوية تقدما كافيا يمكننا من تناول اقراصا تضمن لنا الشعور بالطرافة والاهتمام بكل شيء . ولكن الى ان نتوصل الى هذا اليوم فاننا ملزمون بالاعتماد على الادراك العام في تحديد الاسباب التي تمكن بـ ـض الناس من الاهتمام بكل شيء في حين يعجز آخرون عن الاهتمام بأي شيء .

ان اللذة في بعض الاحيان تكون عامة ، واحيانا تكون متخصصة . ولعل قراءBorrow × يذكرون الطبع الذي لاح فيRomany Rye ×× حين فقد الرجل زوجته التي كان متعلقا بها جدا ، وشعر لبعض الوقت ان حياته أصبحت غير مجدية تماما . ولكي يتحمل ثقل حياته علم نفسه الكتابة الصينية على أباريق وصناديق الشاي وبمساعدة كتاب قواعد افرنسي جنى تعلم الفرنسية لهذا الهدف ، وتمكن تدريجيا من تفسيرها ، وبذلك توصل لأهتمام جديد في الحياة ، في حين انه لم يستخدم علمه الصيني لأهداف اخرى . وقد عرفت رجالا كانوا منغمسين كليا في محاولة معرفة كل ما يتعلق بالادريGnostic ××× ورجال آخرين كان اهتمامهم الرئيسي ينحصر في جمع مخطوطات لهوبسHobbes ×××× وطبعاته الاولى . وانه لمن الصعب التكهن سلفا ما يمكن ان يثير اهتمام شخص ما ،

× جورج هنري بورو (١٨٠٣ ـ ١٨٨١) رحالة انكليزي ، مؤلف ولغوي . كان يعرف اللغات الافرنسية والالمانية والدانمركية والولشية والارلندية واللاتينية واليونانية ـ المترجم .

× × لقب شرف ـ المترجم

× × × الأدري من مذهب الأدرية : وهي حركة التسامح الديني التي حافظت على نفسها من جهة الى جهة العالم النصراني . وقد تبلورت في الاخير تدريجيا الى الكنيسة الكاثوليكية القديمة ـ المترجم .

× × × × توماس هوبس (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) فيلسوف انكليزي ـ المترجم

ولكن معظم الناس قادرون على الاهتمام الشديد بشيء آخر ، وعندما يظهر مثل هذا الاهتمام ، تتحرر حياتهم من هذه البلادة . الا ان الاهتمامات البالغة التخصص مصدر اقل ارضاء للسعادة من اللذة العامة بالحياة ، لأنها لا تكاد تملأ كل وقت الانسان ، وهناك دائما خطر وصوله الى معرفة كل ما يتعلق بموضوعه الضيق الذي أصبح كل هوايته .

علينا العودة الى الرجل الذي وصفناه بالنهم في عداد الانماط الجالسة الى مأدبة الحياة بدون ان نغدق عليه المديح . والآن قد يتبادر للقارىء ان الرجل المقبل على لذة الحياة يكاد لا يختلف في شيء عن الشره . لذا حان الوقت الذي يتوجب علينا به جعل التفرقة بين الصنفين اكثر وضوحا .

وكما هو معروف فان القدماء أعتبروا الاعتدال من بين الفضائل الضرورية . واستغرب أمر وجهة النظر هذه تحت تأثير الابداعيةRomanticism والثورة الفرنسية ، فقد اتجه اعجابهم الى العواطف المندفعة ، حتى ولو كانت هدامة ومضادة للمجتمع ، مثل ابطال بايرون ، وفي اعتقادي ان القدماء كانوا على صواب . فلا بد أن يكون هناك في الحياة الطيبة توازن بين جميع الانشطة المختلفة ، وينبغي الا يطلق العنان لبعضها بحيث يجعل الاخرى غير ممكنة . ان الشره يضحي بجميع ملذاته الاخرى في سبيل لذة الاكل ، وبعمله هذا ينقص من سعادته الاجمالية في الحياة . وهناك امزجة اخرى غير الاكل يمكن الانحدار فيها بشراهة . فقد كانت الامبراطورة جوزفينJosephine × شرهة فيما يخص الملابس ، وقد أعتاد نابليون في بادىء الأمر ان يدفع فواتير ملابسها ، ومن ثم بدأ يتذمر ، وفي النهاية قال لها انه لن يدفع الفواتير في المستقبل الا اذا كان المبلغ معقولا . ولما عرضت عليها الفاتورة التالية كادت تجن ، فجنح بها خيالها الى حيلة ، وذلك حين ذهبت الى وزير الحربية وطلبت منه أن يسدد فاتورة خياطها من المبالغ المخصصة للحرب ، وهو يعرف ما للامبراطورة من

× جوزفين : زوجة نابليون ـ المترجم]

نفوذ في طرده من الخدمة اذا لم يلب طلبها ، وكانت النتيجة خسارة فرنسا لجنوا . ومع اني لست مستعدا لضمان صدق هذه الرواية ، فان ذلك روي في بعض الكتب عن هذه الحادثة . والهدف من ايرادها سواء أكانت حقيقية أو مبالغاً بها فهي تصلح لتبيان مدى ولع المرأة بالثياب لتحقيق رغباتها . والمكحول (من المسمم بالكحول) والشبقية (من الشبق النسوي) مثالان واضحان لنفس نوع الاشياء ، والاساس في مثل هذه الشؤون واضح تماما . ان جميع أذواقنا ورغباتنا المنفردة يجب ان تتناسب مع الاطار العام للحياة . وان اريد لها ان تكون مصدر سعادة فلا بد لها أن تكون منسجمة ومقرونة مع الصحة ، ومع تكبيرنا لاولئك الذين نحبهم ومع احترام المجتمع الذي نعيش فيه ، هناك اهواء يمكن التسامح معها الى اي مدى من غير ان نتخطى هذه الحدود ، وهناك اهواء اخرى ليست هكذا . ولنأخذ مثلا الرجل الذي يحب الشطرنج ، وهو بالصدفة كان عازبا ، فليس لزاما عليه تجديد ميله هذا بأي شكل كان ، في حين أنه اذا كان عنده زوجة وأطفال ولا يوجد عنده وسائل اخرى مستقلة ، فعليه ان يجدد ميله بسرعة . والمكحول والشره حتى في حالة عدم وجود روابط اجتماعية لديهما فانهما غير حكماء من وجهة خطر الاعتبار الذاتي ، طالما أن تمتعهم يتدخل بالصحة ، ويعطيهم ساعات من الشقاء مقابل لحظات السرور ، وقد تشكل أمورا معينة اطارا يجب ان يعيش بضمنه كل أصحاب الثورة المنفصلة ، الا اذا كان ذلك سيصبح مصدر شقاء ، ومثل هذه الامور تكون في الصحة والحيازة العامة لقدرة المرء والدخل الكافي لتأمين الضروريات ، وفي الواجبات الاجتماعية مثل واجباته تجاه زوجته واولاده . ان الانسان الذي يضحي بجميع هذه الواجبات لقاء طاولة الشطرنج هو سيء جداً مثل المكحول . والسبب الوحيد الذي لا ندينه به أنه أقل ادراكا ، وهذا يكون فقط من ذوي المهارة النادرة والذي من المحتمل حمله على الامتصاص في مثل لعبة ادراكية . ان القاعدة اليونانية للأعتدال تنطبق عمليا على هذه الحالات . فالانسان الذي يهوى الشطرنج الى حد انه يتطلع خلال ساعات عمله الى اللعبة التي سيلعبها

في المساء هو محظوظ ، والانسان الذي تخلى عن العمل كي يلعب الشطرنج طيلة اليوم يكون قد فقد فضيلة الاعتدال . ومن المعروف ان تولستوي× منح في شبابه وقبل أيام روحانيته وسام الصليب الحربي للشجاعة في الميدان ، ولكن عندما حان وقت تسليمه اليه كان غارقا في مباراة الشطرنج ، حتى أنه قرر أن لا يذهب لاستلامه . ومن الصعب توجيه اللوم لتصرف تولستوي هذا ، طالما انه لا فرق لديه اذا منح هذا الوسام ام لا . ولكن هذا التصرف من رجل دونه وزنا يعتبر ضربامن الجنون.

ولابد من التحفظ في تحديد الرأي الذي سبق وذكرناه الان ، حيث ان بعض المظاهر تعتبر ضرورة نبيلة وذلك لانصاف التضحية بكل شيء آخر في سبيلها . فالرجل الذي يضحي بحياته في سبيل الدفاع عن وطنه ، لا يلام اذا ما ترك زوجته واولاده بلا مورد . والانسان المنغمس في اختبارات سعيا وراء كشف علمي أو اختراع ، لا يلام بعد هذا للفقر الذي جعل عائلته تعانيه ، شريطة أن تتوج جهوده في النهاية بالنجاح . فاذا لم ينجح بعمله في الكشف والاختراع ، الذي كان يعمل جاهدا لاجله ، فان الرأي العام سوف يدينه كمخبول ، وهو اتهام ظالم ، لأنه ما من شخص يستطيع ان يضمن تجاربه في مثل هذه الحالات . لقد كان الرجل خلال الالف الاول من العصر المسيحي الذي يهجر عائلته ليعيش حياة القداسة يلقى الثناء والترحاب ، اما في ايامنا هذه فالكل يلومونه ، ويطالبونه ان يضمن معيشة اسرته اولا .

واني اعتقد ان هناك فارقا نفسيا بين الشره والانسان ذي القابلية السليمة . والانسان الذي تسير رغبته الى أقصى حد على حساب جميع رغباته الاولى لديه تكوّن في العادة اختلال عميق ، فكانه باندفاعه يحاول الهرب من شبح . وواضح هذا في حالة المصاب بهوس الخمر ، فالناس يشربون كي ينسوا . فاذا لم يكن في حياتهم اشباح لما وجدوا السكر أكثر ملاءمة من الصحو ، كما قال ذلك الصيني الاسطوري : « أنا لا أشرب من أجل الشرب ، أنا أشرب من

× ليون تولستوي (١٨٢٨ ـ ١٩١٠) مؤلف قصصي روسي . اشتغل باصلاح الهيئة الاجتماعية ، وثار على الزعماء من حكام واكليروس . وقد مهد باعماله الادبية السبيل للثورة ولانتشار الشيوعية ، ومن هذه الاعمال : الحرب والسلم وآنا كارنينا وغيرها ـ المترجم .

أجل السكر » . وهذا هو شأن كل الاهواء المتطرفة الاحادية الجانب . فالبهجة ليست في الموضوع بحد ذاته بل في النسيان . وهناك فرق بين النسيان بالسكر ، وبين النسيان عن طريق نشاط ليست له آثار ضارة . ان صديق « بورو » الذي علم نفسه الصينية كي يتسنى له تحمل فراق زوجته كان يبحث عن النسيان ، ولكنه وجده في نشاط لم يكن له أي مردود فعل ، بل على العكس ذلك حسن ذكائه وتعلمه ويمكن القول شيء في مثل هذه الحالات من الهرب ، وهي تختلف عن حالة الانسان الذي يبغي النسيان عن طريق السكر والمقامرة أو أي شكل آخر من المثيرات غير المفيدة . وفي ذلك نرى قضايا تقع في الواقع على الحدود الفاصلة . فماذا نقول عن إنسان يقوم بمغامرات جنونية بالطائرة ، أو على قمم الجبال . أهذا لأن الحياة أصبحت له منهكة ؟ فاذا كانت مغامراته هذه تخدم أي أهداف عامة ، فمن الممكن أن نقدره ، ولكن إذا كانت خلاف ذلك فسوف نضعه في درجة أعلى بقليل من المقامر والسكير .

ان اللذة الحقيقية ليست في الواقع نوعا من البحث عن النسيان ، انها جزء من طبيعة التكوين الطبيعي للبشر ، ما لم تدمرها الحالات المعاكسة . والاطفال الصغار يهتمون بكل شيء يشاهدونه ويسمعونه ، والعالم حافل بالمفاجآت لهم ، وهم مشغولون بصورة مستمرة بالسعي وراء المعرفة ، لا المعرفة المدرسية بالطبع ، بل المعرفة القائمة على الألفة مع الاشياء التي تسترعي أهتمامهم . ان الحيوانات ، حتى عندما تكبر ، تحتفظ بلذتها ، ما دامت صحيحة الجسم . والقطة التي تضعها داخل غرفة غير مألوفة لها لا يهدأ لها بال قبل ان تشم كل زاوية فيها على أمل ان تجد رائحة فأر في مكان ما . والمرء الذي لم يحدث له انحراف اساسي يحتفظ باهتمامه الطبيعي بالعالم الخارجي . ، وطالما هو محتفظ به فانه سيجد الحياة سارة ، ما لم تحجز حريته أكثر من اللازم . أن فقدان اللذة في المجتمعات المتحضرة عائد بصورة عامة الى القيود على الحرية ، وهي قيود صارت اساسية في اسلوب حياتنا . وعندما يصطاد المتوحش وهو جائع يكون بعمله هذا طوع ارادة مباشرة . ومن يذهب الى معمله كل صباح في ساعة

معينة ، يحركه اساسا هذا الدافع بعينه ، الا وهو كفالة قوته ، لكن الدافع في هذه الحالة لا يعمل مباشرة وفي نفس اللحظة ، بل يعمل بطريق غير مباشر ، من خلال التجريدات وقوة الارادة . ففي الوقت الذي يذهب به المرء الى عمله لا يشعر بالجوع ، طالما انه فرغ من تناول أفطاره . ولكنه يعلم فحسب ان الجوع سيتكرر ، وأن ذهابه الى عمله هو وسيلة لسد هذا الجوع في المستقبل . فالدوافع غير منتظمة ولا رتيبة ، بينما العادات في المجتمع المتحضر تكون منتظمة . أما فيما بين المتوحشين فتتم كل الاعمال الجماعية منها بتلقائية واندفاع . فعندما تكون القبيلة ذاهبة الى الحرب يكون لقرع الطبول الحماسة العسكرية ، ويوحي اثارة القطيع لكل فرد بالنشاط الضروري حينئذ . على انه لا يمكن للعزائم العصرية ان تتم هكذا . ولا يمكن ان ينطلق القطار في لحظة معينة من خلال اثارة السائق والحمالين وعمال الاشارة بواسطة الموسيقى البربرية ، بل عليهم القيام بوظائفهم لا لشيء الا لأنه يجب ان تتم ، فمحرضهم عليها غير مباشر ، وليس لديهم دافع للنشاط ، الدافع متجه لصالح المكافأة النهائية لهذا النشاط . والكثير من الحياة الاجتماعية فيها نفس هذا الخلل ، فالناس يتحادثون مع بعضهم البعض ليس بدافع الرغبة الخاصة ، بل بسبب فائدة قصوى يأملون الوصول اليها من خلال التعاون . أن أرادة الرجل المتحضر مكبلة دائما في كل لحظات حياته بالقيود . واذا شعر بالحبور فليس مفروضا به ان يغني او يرقص في الشارع ، او ان كان حزينا لا ينبغي ان يجلس على الرصيف ويبكي ، خشية ان يعرقل مرور المشاة . ففي شبابه تكون حريته مقيدة في المدرسة ، وفي سن بلوغه تكون حريته مقيدة من خلال ساعات عمله . ومن شأن هذه الأشياء ان تجعل اللذة شيئا صعب الاحتفاظ به . لأن الكبت المستمر يولد الاعياء والضجر . ومع هذا ، فالمجتمع المتحضر يستحيل وجوده بدون درجة كبيرة من القيود على الدوافع التلقائية ، لأن الدافع التلقائي لن يثمر الا أبسط أنواع التعاون الاجتماعي ، لا تلك الأنواع المعقدة جدا التي يتطلبها التنظيم الاقتصادي الحديث . وكي يرتفع الانسان فوق جميع هذه

العقبات الى اللذة ، لا بد له من صحة جيدة وعزيمة قوية أو سواها من عمل يجده شائقا وجديرا بالاهتمام لذاته . لقد اخذت صحة الافراد تتحسن ، كما تدل على ذلك الاحصائيات التي تذاع في جميع البلاد المتحضرة وذلك خلال المائة سنة الاخيرة ، ولكن المقدرة اكثر صعوبة لتقديرها ، واني أشك فيما اذا كانت القوة البدنية لم تزل في حالات الصحة السليمة كما كانت في السبق . ان المشكلة هنا ولحد كبير مشكلة اجتماعية ، وهكذا فانني اؤجل بحثها في هذا الفصل . وتبدو المسألة هنا مهما كان لها اسباب شخصية ام نفسية ، والتي سبق وشرحناها ، هي فيما يتعلق بالتعب . ويحتفظ بعض الاشخاص بلذتهم ، بالرغم من قيود الحياة الحضارية ، كما ان الكثير من الاشخاص بامكانهم العيش هكذا ، اذا كانوا متحررين من تناقض نفسيتهم الداخلية ، حيث يستهلك القسم الأكبر من نشاطهم . واللذة تتطلب نشاطا اكثر لضرورة العمل ، وهذه بدورها تتطلب ايضا العمل الدقيق للآلة النفسانية ، وسيكون لدي الكثير لاقوله عن العوامل التي تنمي العمل الدقيق وذلك في الفصول القادمة .

ولا تزال اللذة عند النساء بعيدة كثيراً عما كان عليه سابقا ، وذلك نتيجة الخداع الخاطىء للتوقيرية ، ويبقى في ذهننا انه يتحتم على النساء الاهتمام بوضوح في شأن الرجال ، او على الاقل يتوجب عليهن ان يلعبن دورا حيويا جدا في المجتمع . وفي حال عدم تعلمهن الاهتمام بالرجال فانهن في ذلك يكن غير مهتمين بأي شيء ، أو بأي حال في اللاشيء ، سوى بنوع معين من السلوك الصائب . وللوصول الى سمات الخمول والأنسحاب من الحياة ، يكون ذلك في تعلم شيء ما معاد للذة ، وفي ذلك تشجيع نوع معين من الاهتمام بالذات كما هو حال النساء المميزات ، وبالاخص اذا كن غير متعلمات . انهن لا يهتمن بالالعاب الرياضية التي هي متوفرة عند الانسان العادي ، ولا يهتمن بالسياسة ، وتصرفاتهن تجاه الرجال هي احدى جوانب الاناقة ، كما ان تصرفاتهن تكون بروح العداء السافر ، وذلك بالاستناد الى ان النساء

الاخريات أقل احتراما منهن أنفسهن ، ويطنبن أنهن يحتفظن بأنفسهن لذاتهن . وفي هذا القول يظهر ن افتقارهن للاهتمام برفاقهن من المخلوقات ويشكل لهن فضيلة . وهن في هذا لا يلامن فأنهن يتقبلن فقط تعاليم السلوك التي كانت سارية لآلاف من السنين فيما يخص النساء . وهن مهما كن ضحايا يستحقن الشفقة من أسلوب تأثير الظلم الذي لم يتمكن من التغلب عليه . مثل هؤلاء النساء يظهر لهن أن كل الأجحاف مستحسن ، وكل النبلاء شريرين . وفي محيط مجتمعهن الخاص يعملن ما بوسعهن لقتل السرور ، وفي السياسة يحبن التشريعات الصارمة . ولحسن حظنا أن هذا النوع بات ينمو أقل ألفة ، ولكنه لا يزال أكثر انتشارا بين هؤلاء الذين يعيشون في الاوساط المتحررة . وأني أوصي أي انسان يشك فيما اقوله بهذا الخصوص ، أن يذهب الى عدد من بيوت السكن ليبحث عن منزل ، ويأخذ ملاحظات عن السيدات أصحاب البيوت اللاتي يقابلهن خلال بحثه ، حيث سيجد انهن يعشن في جو سمو الانثى اللواتي همهن هدم كل لذة للحياة ، وقد أضمحلت وتحجرت أفكارهن وقلوبهن نتيجة لذلك . وان السمو فيما بين الذكر والأنثى مفهوم ولا يوجد أي فرق ، وفي اي حال ليس هناك خلاف مثل ما هو مطبوع في الذهن التقليدي . واللذة للرجل والمرأة سر الحياة والوجود السعيد .

الفصل الثاني عشر
العاطفة

لعل احدى العوامل الرئيسية في افتقار اللذة الشعور بان المرء غير محبوب ، وعلى النقيض من ذلك عندما يكون محبوبا ترى اللذة ظاهرة عليه أكثر من أي شيء آخر . وذلك يكون عند الشخص الذي يشعر انه غير محبوب لعدة أسباب ، فهو يرى نفسه شخصا مبغوضا جدا ويخيل اليه انه لا يمكن ان يحبه احد . ومن المحتمل ان يكون عود نفسه في طفولته على تلقي قدر اقل من الحب من سائر الاطفال ،أو أن يكون في الواقع ذلك الشخص الذي لا يحبه أحد ، ولكن السبب في الحالة الاخيرة يكون في نقص بثقة النفس نتيجة سوء طالع مبكر . والانسان الذي يشعر انه غير محبوب يمكن ان تكون له صفات مختلفة تبعا لذلك . ومن المحتمل ان يقوم بجهود يائسة ليربح العاطفة ، وهو في ذلك قد يقدم على اعمال رقة وحنان غير عادية . وفي هذا من المحتمل جدا الا ينجح ، لأن لقاء رقته وحنانه يخدع الوصول بسهولة الى الباعث الحقيقي لاعماله تلك ، والطبيعة البشرية مجبولة بصورة تعطي العواطف باستعداد متناهي لمن يبدو انه لا يطلبها . وهكذا يخيب رجاء الشخص الذي يحاول شراء المودة من خلال أعمال الخير ، ويرى نفسه مضللا . ولا يجول في خاطره ان المودة التي يحاول شراءها ذات قيمة أكثر من المنافع العادية التي يعرضها ثمن لها ، ومع هذا فان الشعور الكامل على أن الأمر هكذا يكون وفق عمله . وهناك قد يدفعه شعوره أنه غير محبوب الى الانتقام من العالم ، اما باثارة الحروب والثورات ، او بقلم مغموس في مرارة ، مثل دين سويفتDean Swift . وهذا رد فعل بطولي لسوء الطالع ،

يتطلب قوة في الطبع تكفي لمساندة الشخص للوقوف امام باقي العالم . ان قليلا من الناس بامكانهم التوصل لهذا المستوى ، والاغلبية الساحقة من كلا الطرفين ، الرجال والنساء ، اذا ما شعروا انهم غير محبوبين غرقوا في يأس مفزع ، لا يخفف من عوارضه سوى الحسد والحقد في بعض الاحيان . والغالب ان حياة مثل هؤلاء الناس تصبح لدرجة ما متناهية منكمشة على ذاتها . ويعطيهم فقدان العاطفة الشعور بعدم الامان الذي يحاولون دائما التهرب منه ، وذلك بسماحهم للعادة ان تسيطر على حياتهم كليا وبالمرة . واولئك الذين يجعلون أنفسهم عبيدا للروتين يكونون غالبا متأثرين بالخوف من برودة العالم الخارجي . ومن شعور انهم لن يقعوا به اذا ما سلكوا جانب نفس الطرق التي سلكوها في الايام السابقة .

وهؤلاء الذين يجابهون الحياة بشعور الامان هم أسعد بكثير من اولئك الذين يواجهونها بشعور عدم الامان ما دام شعورهم بالامان لا يقودهم للتهلكة . ففي العديد من الاحوال ، ولكن ليس في جميعها ، يساعد الشعور بالامان الشخصي على تجنب الاخطار التي يمكن ان يقع فيها الغير . فان كنت تسير على لوح خشبي ضيق فوق هاوية ، فالأغلب ان تقع اذا شعرت بالخوف أكثر مما اذا كنت لم تشعر بذلك . وهذا ينطبق ايضا على مسالك الحياة عموما . فمن الممكن ان يتعرض عديم الخوف الى كوارث مفاجئة . ولكن من المحتمل أن يمر بها بدون ان يخدش في كثير من المواقف التي لا يفلت منها الخائف او الهياب . ان لمثل هذا النوع من الثقة بالنفس اشكال لا تعد ولا تحصى من الحالات . فهذا الشخص واثق بنفسه وهو يطوي الجبال ، والآخر وهو على البحر ، والثالث وهو في الجو . ولكن الثقة العامة بالنفس من جهة الحياة تأتي اكثر من أي شيء آخر ، من التعود على تلقي القدر المناسب من العاطفة بقدر ما يحتاج اليه الفرد . وهذه العادة تعتبر ايضا للعقل مصدر اللذة ، ولهذا أرغب التكلم عنها في الفصل الحالي .

ان العاطفة التي تعطى وليس العاطفة التي تمنح ، هي التي تسبب هذا

الشعور بالامان ، وهي تنبع غالبا من العاطفة المتبادلة. ولنقولها بالضبط ، ليست العاطفة وحدها المتفردة بهذا بل يشارك بها الاعجاب الذي له هذا المفعول . فالاشخاص الذين ترتبط مهنتهم بتصفيق الجمهور ، مثل الممثلين والوعاظ ، والخطباء ورجال السياسة ، يزداد اعتمادهم على التصفيق اكثر فاكثر . وعندما يتلقون حاجتهم من استحسان الجمهور تفيض حياتهم باللذة ، واذا لم يتلقوا ذلك ، فانهم يصبحون قانطين ومنكمشين على نفسهم . والشعور الطيب المتشعب بما يقدمه الجمهور من أجلهم يساعدهم على نشدان عملهم . فالطفل الذي يشغف به والداه يتقبل عاطفتهم كقانون طبيعي ، ولا يفكر فيه كثيرا ، مع العلم انه عظيم الاهمية لسعادته . انه يفكر في العالم ، وفي المغامرات التي تسنح له ، وفي المغامرات الاكثر روعة التي ستأتي بطريقه عندما يكبر . ولكن يكمن خلف جميع هذه الاهتمامات الخارجية شعور انه سيجد الحماية من المصائب من خلال عاطفة الوالدين .ان الطفل الذي سحبت منه عاطفة الوالدين ، لأي سبب من الاسباب ، قد يصبح جبانا وغير مغامر ،تملؤه المخاوف لنفسه، ولا يصلح لمواجهة العالم بطريقة اكتشاف اللذة . ومثل هذا الطفل قد يشرع في سن مبكرة في التفكير والتأمل في الحياة والموت ونهاية الانسان ، ويغدو انطوائيا وكئيبا في البداية ، ثم يبحث في النهاية عن عزاء غير واقعي في اسلوب فلسفي او لاهوتي . ان العالم عنده مشوش مختلط فيه أشياء كثيرة سارة وأخرى غير سارة في تتابع فوضوي . والرغبة في تحويلها الى اسلوب معقول ترجع في قراءتها الى الخوف ، وهو الخوف من الاماكن المكشوفة . فضمن أربعة جدران مكتبته ينعم الهياب بالامان . فاذا تمكن من اقناع نفسه أن الكون منسق بنفس المعدل ، فانه سيشعر بالامان حين يغامر بالتجول في الشوارع . ومثل هذا الانسان اذا كان قد تقبل مزيدا من العاطفة ، فان خوفه من العالم سيكون أقل ، ولما اضطر الى اختراع عالم تقليدي يحل محل العالم الواقعي في اعتقاده .

وهذا لا يعني ان لكل عاطفة هذا التأثير في تشجيع المغامرة ، بل لا بد

للعاطفة التي تعطى للطفل أن تكون بحد ذاتها قوية وسليمة أكثر من أن تكون مخيفة ، راغبة في السمو أكثر من الامان ، وان لم تكن بالطبع غير مبالية بالامان . فحين تحذر الام أو المربية الهيابة الطفل باستمرار من المصائب التي قد تحل به ، ومنها تحذيره من عضة كلب ، او من ثور نطاح ، فانها تخلق في الطفل خوفا موازيا لخوفها بحيث قد يشعر انه لن يجد الامان الا بجانبها المباشر . وهنا تكون الأم غير مصيبة في هذا الشعور ، حين تريد من ابنها ان يكون معتمدا على ذاته ، او قد تكون راغبة في اعتماده عليها اكثر من مقدرته على التمشي مع العالم . وفي هذا يكون ابنها اسوأ حالا مما لو كان محروما من الحب تماما . وعادات النفس التي تتكون في السنوات الباكرة يغلب عليها ان تظل ملازمة له طول حياته . فالعديد من الناس عندما يقعون في الحب يتطلعون الى ملاذ صغير يحميهم من العالم ، حيث يكونون واثقين من الاعجاب بهم عندما يفتقرون الى الاعجاب ، ومن الاطراء عندما لا يستحقونه . فالبيت عند كثير من الناس هو الملاذ ، وفي الواقع أن خوفهم وتهيبهم يدفعهم الى التمتع بصحبة رفاق تستريح فيها هذه المشاعر . انهم ينشدون من زوجاتهم ما سبق وحصلوا عليه آنفا من امهاتهن غير الحمقاوات ومع هذايدهشهم ان زوجاتهم ينظرون اليهم كانهم اطفال كبار .

وليس بالامر السهل ايضاح افضل انواع العاطفة ، فمن الجلي انها تنطوي على عناصر الحماية . فنحن لا نشعر بعدم الاكتراث لاضرار الناس الذين نحبهم . واني اعتقد مهما يكن الخوف من سوء الطالع في مقابل التعاطف عند وقوع سوء الطالع فعلا ، فانه ينبغي ان يلعب دورا بسيطا بقدر الامكان في العاطفة .والخوف على الاخرين ليس افضل من الخوف على انفسنا الا بمقدار قليل ، وغالبا يكون مجرد تمويه للحيازة ، من المأمول في اثارة خوفهم تمكننا من الوصول اليهم . وهذا بالطبع من اسباب محبة الرجال للنساء الهيابات ، اذ انهم يشعرون بحمايتهن لهن. انهم امتلاكهن . ومقدار القلق الذي يكون الانسان هدفه يتوقف على صفاته ، فالشخص الصلب والمغامر بامكانه ان

يتحمل مقدار كبير بدون ضرر يلحق به ، في حين أن الهياب يتوقع ان يكون تحمله في هذا الشأن قليلا .

لقد سبق وتكلمنا عن العاطفة التي تتسم بعمل مزدوج ، وكان ذلك فيما يخص الكلام عن الأمان ، ولكن لها في حياة الراشدين هدفا بيولوجيا أهم بكثير ، هو الأبوة . فالقصور عن الادراك بالحب الجنسي يسبب تعاسة بالغة لأي رجل او أمرأة ، لأن ذلك يجرده أو يجردها من بهجة السرور التي يمكن ان تعطيها الحياة . وهذا الانتزاع من المؤكد ان يقضي عاجلا أم آجلا على اللذة ، ويسبب الانطواء . وكثيرا جدا ما يسبب سوء الطالع الغابر في فترة الطفولة الضرر للطبع الذي هو سبب الفشل في الحصول على الحب في السنوات اللاحقة . وربما يكون هذا أكثر واقعية فيما يتعلق بالرجال من النساء ، لأن النساء بالاجمال تملن الى حب الرجال بسبب طبعهم . اما الرجال فيميلون الى حب النساء بسبب مظهرهن . ففي هذا الشأن ينبغي القول ان الرجال يظهرون أنفسهم أقل مرتبة من النساء ، لأن الصفات التي سيجدها الرجال سارة في النساء ، هي بالاجمال أقل جدارة بالرغبة من تلك الصفات التي تجدها النساء مستحبة في الرجال . ولست متأكداً بالطبع فيما اذا كان اكتساب طبع حسن أسهل من اكتساب المظهر الحسن ، الا ان الخطوات الضرورية لتحسين الشكل مرغوبة من قبل النساء ، اكثر من رغبة الرجال في تحقيق الطبع الحسن .

حتى الان كنا نتكلم عن العاطفة التي يكون المرء هدفها . واني بصدد التكلم الان عن العاطفة التي يقدمها المرء لسواه ، وهذه ايضا على نوعين مختلفين . وقد يكون احدهما اهم تعبير عن اللذة في الحياة ، بينما الآخر فهو التعبير عن الخوف . فالسابق يبدو لي جديرا بالاعجاب الكامل ، بينما الآخر فهو في احسن الحالات ، عزاء . فاذا كنت مبحرا على سفينة في يوم بديع صاف ، وعلى جانبك شاطىء جميل ، فأنك تعجب بالشاطىء وتشعر بالسرور عند النظر اليه . هذه البهجة مستمدة بتمامها من التطلع الى الخارج ، ولا

علاقة لها بأي اهتمام من جانبك . واذا تحطمت من جهة ثانية سفينتك واخذت تسبح نحو الشاطىء ، فسوف يكون حبك للشاطىء مختلف : لأنه يمثل الامان من الامواج ، وجماله أو قبحه يغدوان لا قيمة لهما . والنوع الحسن من العاطفة ينطبق على شعور الشخص الذي تحطمت سفينته ، والنوع الاول من العاطفة غير ممكن للمرء الذي يشعر بالامان ، او بالاحرى لمن لا يهاب المخاطر المحيطة به . واما النوع الاخر فسببه الشعور بعدم الأمان . والشعور الصادر عن عدم الأمان يكون أكثر ذاتية وانانية من سواه لأن الشخص المحبوب في هذه الحالة قيمته مرتبطة بخدمات يؤديها لا للقيم المتعلقة به . ولست مع هذا أود القول أن هذا النوع من العاطفة ليس له أي دور فعال في الحياة ، فالواقع أن كل عاطفة حقيقية تنطوي على شيء ما من كلا النوعين . وبقدر ما تعالج العاطفة الاحساس بعدم الامان تشفى منه ، وبذلك يتحرر المرء ايضا ليسترد اهتمامه بالعالم ، ذلك الاهتمام الذي خبا في اوقات الخطر والخوف . ولكن مع تقديرنا للدور الذي تلعبه مثل هذه العاطفة في الحياة ، لا بد لنا من الاصرار أنها أقل رقيا من النوع الآخر ، طالما أنها تعتمد على الخوف ، والخوف شر وهو أكثر أنانية وتمركزاً في الذات . فالمرء في أحسن نوع من العاطفة يأمل في سعادة جديدة أكثر من التهرب من تعاسة قديمة .

ان افضل طراز من العاطفة هي العاطفة المتبادلة في الحياة ، فكل من الطرفين يتقبل العاطفة ، بمرح ويمنحها بدون جهد ، وكل منهما يرى في العالم أهمية كبيرة نظرا لوجود هذه السعادة المتبادلة . ومع ذلك فهناك نوع آخر ليس بالنادر اطلاقا ، يمتص فيه الانسان حيوية الآخرين . ويتلقى ما يعطيه الآخر ، ولا يكاد يعطيه شيئا اطلاقا في مقابله . وبعض ذوي النشاط من الناس ينتمون الى هذا الطراز من مصاصي الدماء . . لانهم يستخرجون الحيوية من ضحية الى أخرى ، وبينما ينجحون وتنمو أهميتهم تشحب الاطراف الاخرى وتذوي وتتبلد ، ومثل هؤلاء يستخدمون الاخرين وسائل لغاياتهم ، وبذلك لا يهتمون اساسا بمن يظنون وقتيا أنهم يحبونهم ، بل يصبح

همهم استثارة فعالياتهم بشكل ربما كان غير شخصي . ومن الواضح أن هذا ناجم من بعض خلل في طبيعتهم ، ولكنه عيب ليس من السهل تشخيصه او علاجه ، بل هو سمة كثيرا ما تقترن بالطموح الكبير ، ولها جذورها الراسخة في اعماق نظرة احادية الجانب لما تعمل به السعادة البشرية . ان العاطفة في الشعور الطبيعي المتبادل لكل من الشخصين بالأخر ، لا باعتبارها وسيلة لخير كل منهما ، بل كأتحاد يؤدي الى الخير المشترك ، من أهم العناصر الاساسية للسعادة الحقيقية ، والمرء الذي تكون أنانيته مقفلة هكذا داخل جدران فولاذية يفوته افضل ما تقدمه الحياة ، مهما كان ناجحا في مهنته . ان الطموح الذي يستثني العاطفة من مقاصده هو في العادة نتيجة لبعض انواع الغضب او الكراهية للجنس البشري ، بسبب الشقاء في الحداثة ، والظلم في المراحل اللاحقة ، أو أي سبب من الاسباب التي تؤدي الى هوس الاضطهاد . والذات المفرطة القوة سجن ، وهي احدى بوادر الانسان الذي يهرب من سجن ذاته ان اراد ان يستمتع بالعالم استمتاعا متكاملا .

ان العقبات النفسية والاجتماعية التي تعوق ازدهار العاطفة المتبادلة شر خطير ، عانى من جرائها العالم ولم يزل يعاني الشيء الكثير . فالناس بطيئون في اغداق العاطفة خشية ان تسبب في معاناتهم ، اما من جانب من يضعون عليه عاطفتهم او من جانب العالم المستريب المولع بالخطر والملام . ويتم هذا الحذر بأسم الاخلاقيات وبأسم الحكمة العالية ، ونتيجة لهذا تضعف مشاعر السماحة والمغامرة فيما يخص العاطفة . ومن شأن هذا كله ان يسبب الانكماش على النفس والغضب ضد الجنس البشري ، لانه يجعل الكثيرين من الناس يفوتهم شيء اساسي خلال حياتهم ، هو في تسعة حالات من عشرة شرط لا غنى عنه للسلوك السعيد والانبساطي تجاه العالم . ولا ينبغي ان نفترض ان اولئك الذين يسمون اللااخلاقيين احظى في هذا الشأن من أولئك الذين ليسوا كذلك . ففي العلاقات الجنسية لا يكاد يوجد شيء من العاطفة الحقيقية ، بل الاغلب ان يوجد فيها عداء اساسي ، فكل من الطرفين

يحتفظ فيها بوحدته او عزلته الاساسية ، ويظل محتفظا بذاته وتنحصر كل همومه بتحقيق شهوته ، وفي مثل هذه الحالات تتقدم القيم الاساسية . . . وما اريد الافصاح به ان العلاقات الجنسية الوحيدة هي ذات القيمة الحقيقية التي تمتزج فيها الشخصية بأسرها لدى الطرفين في شخصية جماعية متكاملة جديدة . وفي جميع أشكال الحيطة ، يكون الحذر في الحب ربما أكثر حيوية للسعادة الحقيقية .

الفصل الثالث عشر

العائلة

ليس بين جميع الشرائع التي انحدرت الينا من الماضي شريعة تعرضت للتشويش وحادت عن الخط مثل العائلة . ان عاطفة الوالدين للاطفال وعاطفة الاطفال للابوين كفيلة ان تكون من أعظم مصادر السعادة ، ولكن علاقات الوالدين بالابناء في يومنا هذا هي في تسعين في المائة من الحالات ، مصدر تعاسة لكلا الطرفين . وفي تسعة وتسعين حالة من مائة اصبحت مصدر تعاسة على اضعف الايمان لأحد الطرفين . أن فشل العائلة هذا في تقديم الاكتفاء الاساسي الذي نستطيع من حيث المبدأ كفالته ، من أعمق أسباب القنوط السائد في عصرنا . والبالغ الذي يرغب ان تكون له علاقات سعيدة مع أطفاله ، أو أن يكفل لهم حياة سعيدة ، ينبغي أن يطيل التفكير في الابوة . وعليه بعد التفكير ان يتصرف بحكمة . أن موضوع العائلة اوسع بكثير من أن اتطرق اليه في هذا الفصل اللهم من حيث علاقته بمشكلتنا الخاصة ، اعني الحصول على السعادة . وحتى من حيث علاقتها بهذه المشكلة لا نستطيع ان نعالجها الا في نطاق ما هو في متناول كل فرد من غير تعديل للتركيب الاجتماعي .

وهذا بالطبع تحديد هام جدا ، لأن أسباب التعاسة العائلية في أيامنا هذه متنوعة أشد التنوع نفسيا واقتصاديا واجتماعيا وتربويا وسياسيا . وفيما يخص الطبقات الغنية في المجتمع تضافر سببان متحدان على جعل النساء يشعرن ان الامومة مسؤولية اثقل بكثير مما كان الاعتماد بذلك سائدا في الاوقات الماضية . وهذان السببان هما اتاحة الاعمال للنساء غير المتزوجات ، ومن الجهة الاخرى

ضعف الخدمة المنزلية . ففي الايام الماضية كانت النساء تسقن الى الزواج بحالات لا تطاق من حياة العانس ، لانه كان على العانس أن تعيش في البيت في حالة تبعية اقتصادية ، أملا بالاعتماد على والدها اولا ، وعلى شقيق يتحملها على مضض ، ليست لها مهنة تملأ فراغ يومها ، وليست لها حرية امتاع نفسها خارج جدران بيت الاسرة . وليست لديها الفرصة ولا الميل للمغامرات الجنسية التي تؤمن ايمانا قويا أنها محرمة خارج اطار الزواج . وان حدث برغم كل التحفظات انها فقدت عفتها بفعل الغواية من جانب احد الانذال ، صار وضعها اتعس ما يكون جدير بالرحمة في الحد النهائي ، أو كما صورها كاهن وكفيلد× :

مهارتها كانت لتغطي اثمها
لتخفي خجلها عن كل عين
لتبدي اسفها لمحبها
ويلوي صدره حتى الموت

والعانس العصرية لا تعتبر الموت ضروريا في مثل هذه الحالات . واذا كانت على جانب من التربية الجيدة فانها لن تلاقي صعوبات في تأمين حياة مريحة ، وان كانت مستقلة بسكنها عن والديها . طالما أن الأبوين قد فقدا سيطرتهما الأقتصادية على بناتهن ، فانهما اصبحا أقل وزن من ذي قبل لاظهار عدم موافقتهما على سلوكهن ، ولا معنى لتأنيب شخص لن يبقى ليتحمل التأنيب . وهكذا أمكن للفتاة غير المتزوجة ان تعيش من عملها حياة اشبه في استقلالها بحياة الشاب الاعزب ، وتنعم بنعم الحياة مثله ، بشرط الا تنجب . وهذا ما اصبحت عليه الحال الآن ، وحتى من يتزوجن يتجنبن الانجاب غالبا ، لأنهن يخشين في هذه الحالة ان يتوقفن عن العمل ، لأن الراتب الذي يتقاضاه الزوج من عمله لن يكفل للاسرة الحياة المكفولة التي يتضمنها راتبه وراتب الزوجة معا . وهكذا يتوجب عليها ان تفكر عند انفاقها كل بنس ، وفي

× وكفيلد : بلدة الدائر الدائرة الانتخابية الواقعة في يوركشير ، انكلترا ـ المترجم

هذا من الضيق والتذمر والكدر ما فيه . ولأجل هذه الأسباب تستهزىء مثل هذه النساء بالحياة الزوجية .

ومع ذلك ، فالمرأة التي تنجب بعد الزواج تواجه مشكلة لم تواجهها المرأة في الازمنة الماضية ، كما ان الخدمة المنزلية لم تعد مكفولة سهلة كما كان الحال من قبل كما وكيفا ، وهذا ما يجعل ربة البيت تتعب اكثر ، بل ارهاقها لاضطرارها الى القيام بألف مهمة من مهام البيت لا تناسب مقدرتها وتدريبها . وان استعانت بخادمة فهي مرتفعة الاجر ، وستتكدر باستمرار لتأديبها في الصغيرة والكبيرة . وفيما يخص العناية البدنية بأطفالها ستجد مستحيلا عليها ، بدون التعرض لكارثة ، أن تعهد باطفالها الى المربيات ، او ان تترك لغيرها الشروط الاولية فيما يخص النظافة والصحة ، اللهم الا اذا تحملت أجر وتكاليف مربية متخرجه من أحد المعاهد الفنية . وستكون محظوظة جدا اذا لم تفقد جاذبيتها وثلاثة أرباع ذكائها من جراء عبء الاعمال العديدة التافهة ، وفي أغلب الأحيان تصبح النساء عصبيات متعبات لأزواجهن ولأطفالهن من جراء القيام بعبء الواجبات الضرورية . وعندما يحين المساء ويعود زوجها من عمله فانها تضجره بالحديث عن متاعبها طول النهار . اما اذا لم تتكلم في هذا الموضوع فتكون شاردة العقل . ومن حيث علاقتها باطفالها فان التضحيات التي بذلتها في سبيلهم تظل مرتسمة أمامها ، في حين ان العادة الدارجة في الاصغاء للأمور التافهة تجعلها حشرية وقليلة العقل . هذه هي أهم عوامل الانهاك من عدم العدالة التي تتحملها نتيجة لقيامها بواجباتها تجاه عائلتها وهي تفقد عطفهم في حين أنها اذا أهملتهم وبقيت مرحة وجذابة لكان الأرجح أن يحبوهاx .

وجميع هذه المشاكل هي في الاساس اقتصادية ، وكذلك ايضا مشكلة اخرى لا تقل عنها خطورة ، وأعني صعوبات الاسكان الناجمة عن أزدياد عدد

x هذه المشكلة من حيث تأثيرها في طبقات المهنيين يعالجها ببصيرة وقدرة بناءة كتاب (الانسحاب من الوالدية) بقلم جين آيلين ـ المؤلف

السكان في المدن الكبرى . ففي العصور الوسطى كانت المدن ريفية ، كما هو حال الريف اليوم . ولا يزال الاطفال يغنون جوقة الحدائق :

فوق كنيسة القديس بطرس
تنتصب شجرة مثقلة بالتفاح
واولاد مدينة لندن
كانوا يركضون بعصيهم وينقرونها حتى تسقط
ثم يتسابقون من سور الى سور
حتى يصلوا جسر لندن

وقد زال برج القديس بطرس ، ولا أعلم بأي تاريخ تختفي الشجيرات ما بين القديس بطرس وجسر لندن ، لقد مضت قرون عديدة منذ كان أطفال مدينة لندن يتمتعون بمثل هذا السرور كما يرى هذا الجيل . والى وقت غابر ليس بطويل كان اغلب السكان يعيشون في الأرياف . والمدن يؤمئذ لم تكن مترامية ، ولذا كان من اليسير الخروج منها ، كما ان معظم البيوت كانت لها حدائق ملحقة بها . وفي امريكا لا تزال هذه الظاهرة بادية ولكنها تسير في سرعة متزايدة للزوال ، والعمارات السكنية الهائلة لا مكان فيها او حولها للخضرة . والمدن الكبرى مثل لندن من الاتساع بحيث تستغرق وقتا طويلا للخروج منها . وأولئك الذين يعيشون في المدينة مضطرين ان ينحشروا في شقة ضيقة لا يلحقها بالطبع أنش واحد من التراب . وهكذا نرى اهالي الطبقة المتوسطة قانعين بأقل قسمة ممكنة . واذا كان هناك أطفال صغار فأن الحياة في الشقة تكون صعبة ، اذ لا توجد فسحة لهم ليلعبوا ولا مكان لأبائهم للابتعادعن صحبتهم . ولذا يميل المهنيون للعيش في الضواحي ، وذلك أنسب طبعا للاطفال ، ولكنه يضيف أعباء كثيرة ماليا وجسميا على الاب ، ويقلل الدور الذي بأمكانه أن يلعبه في العائلة .

ليس من هدفي بحث مثل هذه المشكلات الاقتصادية الكبيرة ، لانها تقع

خارج نطاق ما يعنينا ، وهو ماذا بامكان الفرد عمله هنا الان لايجاد السعادة . لقد اقتربنا من هذه المشكلة عندما مررنا الى الصعوبات النفسانية القائمة في عصرنا الحاضر في علاقات الاباء والابناء . وهي في الواقع جزء من المشكلات الناجمة عن الديمقراطية . ففي الزمن الماضي كان هناك سادة وعبيد : السادة يقررون ما يجب عمله ، وكانوا على العموم يحبون عبيدهم لأن عبيدهم كانوا يعملون على سعادتهم . وحتى لو كره العبيد سادتهم ، فان هذا لم يكن ليحدث بالشكل الشامل الذي تفترضه النظرية الديمقراطية . ولكن لنفرض انهم كانوا يكرهون سادتهم ، فان هذه الحقيقة تبقى خافية عن سادتهم ، وعلى اي حال كان سادتهم سعداء . وقد تغير كل ذلك بفضل قبول الفكرة العامة للديمقراطية : فالعبيد الذين كانوا راضخين سابقا كفوا عن الرضوخ ، والسادة الذين لم يكن يساورهم اي شك في حقوقهم انتابهم التردد في ذلك وداخلهم الارتياب . وبرز عن الاحتكاكات تعاسة لكلا الطرفين . أنني لا اقول هذا كله مناهضة مني للديمقراطية ، لأن المتاعب التي نحن بصددها لا محيص عنها في اي مرحلة انتقالية هامة ، ولكن لا فائدة من طمس الحقائق في ان هذه المرحلة الانتقالية تقلق راحة العالم .

والتغير في العلاقة بين الوالدين والابناء نموذج خاص عن انتشار الديمقراطية عامة . فالاباء لم يعودوا واثقين من حقوقهم على ابنائهم ، والابناء لم يعودوا مدينين بان عليهم واجب الاحترام لوالديهم . وفضيلة الطاعة التي كانت تنفذ سابقا بدون سؤال أصبحت موضة قديمة . والتحليل النفسي افزع الوالدين المتعلمين خشية ان يتسببوا في الاضرار غير المتعمد باطفالهم ، فان قبلوهم يمكن أن يسببوا لهم عقدة أوديب ، وان لم يقبلوهم ربما احدثوا لديهم شعور بالاثم . وان امروا الاطفال ان يصنعوا شيئا ربما خلقوا لديهم الشعور بالاثم ، وان لم يأمروهما اكتسب الاطفال عادات يراها الوالدون غير مرغوب فيها فعندما يرون الطفل يمص أبهامه يجربون جميع أنواع التدخل ، لكنهم حيارى لايدرون ماذا يصنعون ليوقفوه عن هذا المص . وفي ذلك انقلبت الابوية التي

كانت تقوم بدور الظافر للسلطة ، فاصبحت لا مبالية قلقة محفوفة بالشكوك . وفقدت المسرات القديمة البسيطة ، وذلك في نفس اللحظة التي اصبح على الام فيها ، بسبب حرية المرأة غير المتزوجة ، ان تضحي اكثر من ذي قبل بكثير ان هي قررت الانجاب . وفي هذه الحالات لا تطلب الامهات الواعيات الا القليل جدا من اطفالهن . والامهات غير الواعيات يطلبن منهم الكثير جدا . الامهات الواعيات يكبحن عاطفتهن الطبيعية ويصبحن هيابات . والأمهات غير الواعيات يتمنين في أطفالهن بديلا عن المسرات التي تحتم عليهن التخلي عنها . ففي الحالة الاولى توهن عواطف الاطفال ، وفي الحالة الاخرى تثار عواطفهم اكثر مما ينبغي . وفي كلا الحالتين لا توجد سعادة من ذلك النوع البسيط الطبيعي الذي بامكان العائلة في احسن حالاتها ان تكفله .

واذا نظرنا لكل هذه المتاعب أليس من الغريب أن يكون معدل المواليد منحدرا ، ولا سيما في الطبقات الميسورة . ويظهر ان اشد البيئات مدنية هي اشدها ضبطا للنسل ، واقلها مدنية وتقدما اشدها انجابا للنسل . كما ان تعداد الدول الكبرى المتقدمة سينحسر كثيرا الا اذا جاءها هجرات جديدة . ولا توجد أحصائيات كثيرة جاهزة بالنسبة لمعدل المواليد بين الأغنياء ، ولكن يمكن الاشارة الى حقيقتين من كتاب جين آيلين حيث تشير بما ورد أعلاه بصورة غير مباشرة. وقد كان انجاب النساء المهنيات في ستوكهولم في سنوات ١٩١٩ - ١٩٢٢ يعادل ث السكان فقط كحد أقصى . وأنه بين الاربعة آلاف المتخرجين من جامعة ويسلي في الولايات المتحدة الامريكية في الفترة من ١٨٩٦ لغاية ١٩١٣ كان مجموع عدد الشباب ثلاثة آلاف ، ولولا عقم النساء عن الانجاب لكان معدلهم ثمانية آلاف شاب ، حيث لم يمت ا منهم صغيرا . ومما لا شك فيه أن الحضارة الناتجة عن العنصر الأبيض لها هذه الصفة الفريدة ، وذلك بتحديد النسل وقد استوعبها كل من الرجال والنساء حيث أصبحوا عقما . فالاكثر حضارة يكون الاكثر عقما ، والأقل حضارة يكون الاكثر انجابا ، وفيما بين الطرفين فوارق مستمرة . ونعني حاليا الفئات الاكثر ذكاء في الأمم

الغربية . وسوف تنقص خلال سنوات قليلة الأمم الغربية كمجموعة في العدد فيما يكون مجموعهم في ازدياد بين المهاجرين في.المناطق الأقل حضارة . وفي حين يتوصل المهاجرون الى حضارة البلاد التي اختاروها فهم بدورهم سيصبحون بالمقارنة عقيمين . ومن الواضح أن الحضارة التي لها هذه الصفة تكون غير متينة ، ما لم تتغلب في الاقتناع في اعادة تكثير اعدادها ، والا سوف تفنى عاجلا أم آجلا وتعطى مكانها لحضارة أخرى . لها دافع في أتجاه الابوية حيث تكون محتفظة بقوة كافية لمنع السكان من الاضمحلال .

ويحاول الاخلاقيون الرسميون في كل البلدان الغربية معالجة هذه المشكلة بتشجيع الاختلاط . فمن الجهة الاولى يقولون انه من الواجبات المترتبة على كل زوجين أن ينجبا أطفالا عديدين حسب مشيئة الله بدون الاخذ لأي اعتبار لما سيكون عليه هؤلاء الاطفال من الصحة والسعادة . ومن الجهة الثانية يثور جنون الذكور للأمومة ويتساءلون هل ان العائلة مريضة والنسل مطبوع بالفقر وفي ذلك مصدر السعادة . ويتحد الوضع مع الجدل في ان الانتاج الكافي من حصاد المدافع هو ضروري فاذا كيف بامكان سلاح الدمار الرهيب أن يعمل بالذات ما لم يكن هناك السكان الكافيين للتدمير ؟ ومن الغريب القول ان الوالدين اذا تقبلوا هذا الجدال فيما يخص الغير فانهم يصبحون مثل الطرشان في هذا الجدال فيما يخص انفسهم . وفي ذلك تكون فكرة القديسين والمخلصين خاطئة . قد ينجح القديسون طالما كان التهديد بنار جهنم يسير بنجاح ، ولكن تقبل هذا التهديد بجد يكون من مجرد اقلية من السكان . أما بالنسبة للسلطة فان حوارها صارم كليا ، فما تحاول السلطة عمله في الانظمة الديكتاتورية هو ترك الفقير في الجهل والكفاح في سبيل لقمة العيش كما تدل الاحصائيات ، كما نرى في البلدان الغربية المتأخرة . وفي ذلك نرى القليل جدا من الرجال والنساء ينجبون أطفالا لفكرة المصلحة العامة ، حتى اذا كانت أكثر وضوحا مما هي عليه ، وفي ذلك القول هل هناك وجود للواجب العام . فحين ينجب الرجال والنساء الاطفال فانهم يعملون ذلك لأنهم يعتقدون ان الاطفال سيزيدون في

سعادتهم ، أو لأنهم يجهلون كيف يمنعون انجابهم . ولا يزال السبب الاخير يبدو معمولا به بقوة عظيمة ولكنه يتلاشى تدريجيا بالعلاج . وليس بامكان السلطة أو الكنائس أن تعمل شيئا لمنع هذا الاضمحلال في الاستمرار . ويبدو من الضروري اذا كان العنصر الابيض سيبقى حيا فانه يترتب على الابوية أن تصبح مرة ثانية جديرة ان تطوع السعادة للابوين .

وحين ينظر الانسان في الطبيعة البشرية ، بعيدا عن الظروف السائدة حاليا . يرى ان الوالدية او الابوية قادرة على اضعاف اعظم واكبر سعادة يمكن ان تقدمها الحياة للناس ، وهذا مما لا شك فيه يصدق على النساء اكثر مما يصدق على الرجال ، على انه يصدق ايضا على الرجال الى مدى ابعد مما يظنه معظم المحدثين . وهو يبدو مسلما به في جميع الاداب السابقة على عصرنا . ان هيوكبا Hecuba × مثلا تهتم باطفالها اكثر من اهتمامها ببريام Priam ×× . وماكدوف Macduff يهتم باطفاله اكثر من اهتمامه بزوجته . وفي العهد القديم نرى الرجال والنساء على السواء في شوق لانجاب ذرية ، وهذا هو حال الصين واليابان الى يومنا هذا . وقد يقال ان هذه الرغبة عائدة الى عبادة الأسلاف ، ولكني اعتقد على العكس من ذلك حيث ان عبادة الاسلاف أنعكاس لتعلق الناس بالذرية وبقاء العائلة . وفي خبرتي الشخصية ما يؤكد ان سعادتي بالابوة كانت اعظم من اي سعادة مضت في حياتي . وفي يقيني اذا ترك الرجال والنساء هذه السعادة بحكم ظروف معينة تظل حاجة هامة من حاجات الانسان بلا اكتفاء ، وذلك من شأنه ان يحدث اضطرابا وتذمرا كامنين يظل السبب فيهما مجهولا ممن يعاني منهما . واذا اراد المرء ان يكون سعيدا في هذا العالم ، ولا سيما حين يضمحل الشباب ، لا بد ان يشعر انه ليس مجرد فرد معزول انتهت ايامه ، او على وشك الانتهاء ، بل انه جزء من جدول الحياة المتدفق من الجرثومة الاولى الى الازلية والمستقبل المجهول . وهذا الشعور

× هيكوبا : في هبكابا اليونانية . زوجة بريم الاولى ، ابنة ملك فريجيان ديماس ـ المترجم

×× بريم : في الاسطورة اليونانية . ملك تروي الاخير ، ابن لوميدون ـ المترجم

الواعي بهذا التعبير الواضح ، يتضمن بدون شك وجهة نظر مفرطة التحضر الى العالم ، ولكنه كعاطفة غريزية بدائي وطبيعي ، وفي غيابه افراط للتحضر . والانسان القادر على انجاز عظيم مرموق يصبغ طابعه على العصور المقبلة،قد يستحسن هذا الاحساس عن طريق عمله ، اما الرجال والنساء الذين ليست لهم مواهب استثنائية فوسيلتهم الوحيدة الى هذا فهي انجاب الاطفال . واولئك الذين سمحوا لدوافعهم الانجابية ان تضمر وتذوي فصلوا انفسهم عن جدول الحياة ، وبعملهم هذا عرضوا انفسهم لخطر الجفاف ويصبح الموت عندهم نهاية كل شيء ، والعالم الذي سيأتي بعدهم لا يعنيهم أمره ، لأن أعمالهم تبدو لهم تافهة عديمة القيمة . ان الرجل والمرأة الذي له أطفال وأحفاد ويحبهم بعاطفة طبيعية فالمستقبل لديه هام بصورة طبيعية وغريزية ، لا عن طريق التخيل . والانسان الذي امتدت اهتماماته الى هذا الحد الذي يتجاوز حياته الخاصة ، من المحتمل أن يكون قادرا على مدها الى ما هو أبعد من هذا . مثل ابراهيم الذي وصل الى الاقتناع بفكرته على أن ذريته سوف ترث الارض الموعودة حتى اذا كان هذا لن يحدث لأجيال عديدة . ومن خلال هذا الشعور فهو قد ينجو من الاحساس بالتفاهة التي من شأنها أن تقتل جميع انفعالاته .

ان اساس العائلة قائم على شعور الأباء بنوع خاص من العاطفة تجاه ابنائهما ، عاطفة تختلف عن عاطفة كل منهما تجاه الاخر ، او تجاه الاطفال الاخرين . وفي الواقع هناك بعض الاباء لا يشعرون الا بعاطفة والدية ضئيلة ، او لا يشعرون بها ابدا ، كما ان هناك بعض النساء لا يشعرن بالعاطفة على غير اطفالهن في نفس الوقت الذي لا يشعرن بالعاطفة على اطفال الغير . ومع هذا فالحقيقة الواضحة تبقى في أن العاطفة الابوية هي نوع خاص من الشعور يحسه الانسان العادي السوي نحو أطفاله أو اطفالها ، لا نحو أي كائن بشري آخر ، وهذا الانفعال هو جزء من ميراثنا عن اسلافنا الحيوانات . وفي هذا الشأن لا تبدو لي نظرة « فرويد » انه عالم حياة بصورة كافية . فأي

انسان يراقب اما من الحيوانات مع صغارها بامكانه ان يلاحظ ان سلوكها معهم يجري على اسلوب مختلف تماما عن سلوكها مع ذكرها الذي لها معه علاقات جنسية . وهذا الاسلوب المختلف والغريزي بعينه موجود بين البشر ، وان كان مختلفا بعض الشيء ، وان لم يكن هناك هذا الانفعال الخاص لما كان هناك تقريبا ما يمكن قوله عن العائلة كمؤسسة ، لأن الاطفال كان من الممكن تركهم لعناية المهنيين ، وطالما الحال هكذا فالعاطفة الخاصة التي يكنها الاباء لاطفالهم ، شريطة ان تكون غرائزهم لم تضمر ، ذات قيمة لكل من الطرفين الاباء والاطفال . وقيمة العاطفة الابوية للاطفال هي انها لحد كبير عاطفة يمكن الاعتماد عليها أكثر ، من أي عاطفة أخرى . فالاصدقاء يحب واحدهم الاخر لأخلاقه ، والمحب يحب محبوبته لجمالها ، فان تضاءلت الاخلاق والجمال قد يتلاشى الاصدقاء والعشاق . اما الوالدان ففي اوقات الشدة ، بشكل خاص ، يمكن الاعتماد عليهما ، كما في حالة المرض ، بل في حالة الخزي والعار ، ان كان الوالدان من النوع السليم الطوية . ونحن جميعا نشعر بالسرور عندما يعجب بنا لجدارتنا ، بيد ان اغلبنا بسطاء القلب نشعر ان مثل هذا الاعجاب مشكوك فيه . ان والدينا يحبانا لأننا اطفالهما ، وهذه حقيقة لا تحول فيها ولا تبديل ، ولهذا نشعر بمزيد من الامان معهما أكثر من اي شخص آخر . وقد يبدو هذا في أوقات النجاح غير هام ، ولكنه في اوقات الفشل يمدنا بالراحة والامان اللذين لا نجدهما في اي شيء آخر .

وفي اي علاقات انسانية ، من السهل تماما تأمين السعادة لطرف واحد ولكن من الصعب جدا تأمينها لطرفين . فالسجان قد يستمتع بحراسة سجينه ، وقد يستمتع رب العمل في تعذيب مستخدمه ، كما يستمتع الحاكم في حكم رعاياه بيد من حديد ، كما كان الاب الذي هو من الطراز القديم يستمتع بلا شك في تنمية الفضيلة في ابنه من خلال العصا ، وهذه بلا شك لذات احادية الجانب ، والطرف الاخر في كل منها لا لذة له ، او لذته اقل من ذلك ونشعر ان هناك شيئا غير مرضي في هذه المباهج الاحادية الجانب ، ونعتقد

ان الانسانية الجيدة ينبغي ان تكون مرضية لكلا الطرفين . ومثل هذا ينطبق بصورة خاصة على علاقات الوالدين بالاطفال . فالوالدين يحصلان اليوم على سعادة أقل بكثير من اطفالهما مما كانا يحصلان عليه سابقا ، في حين ان الاولاد بالمقابل يعانون على يد والديهم اقل من الاجيال السابقة ، ولا ادري اي سبب حقيقي يدعو الى حصول الوالدين على سعادة أقل في اطفالهما مما كانوا يحصلون عليه في الايام الماضية ، وان كان هذا بلا شك هو الحال في الحاضر . ولا اعتقد ايضا ان هناك اي سبب كي يفشل الوالدين في زيادة سعادة اطفالهما . لكن هذا يتطلب ، كما هو الحال في جميع العلاقات المتسمة بالمساواة والتي يهدف اليها العالم الحديث ، بعض النعومة واللطافة وشيئا من التبجيل للشخصية الاخرى ، وهذه الامور لا تشجع عليها معاكسات الحياة العادية . فدعونا ننظر اولا في سعادة الابوية في جوهرها البيولوجي ، ثم كما يحتمل ان تكون في والد او والدة يلهمه ذلك النوع من المواقف تجاه الشخصيات الاخرى ، وهو الموقف الذي قلنا انه جوهري في عالم يؤمن بالمساواة .

ان الجذور البدائية لسعادة الابوية لها شقان . فمن الجهة الاولى هناك الشعور بان جزءاً من جسم المرء قد اصبح له وجود خارجي ، مادا حياته بعد موت سائر جسمه ، ولعله بدوره له امتداد خارجي بجزء مستقل من جسمه في المستقبل على النحو السابق ، وفي ذلك تخليد الجرثومة البلازمية . ومن الجهة الاخرى هناك ذلك الخيط الحميم من القوة والرقة . ان المخلوق العصري لا حول له ولا قوة ، وهناك ميل لتزويده بما يحتاج اليه ، وهذا لا يشبع حب الوالد للطفل فحسب ، بل يشبع ايضا ميله للقوة ، وما دام هناك شعور بان الطفل الصغير لا حول له ولا قوة ، فالعاطفة الموجهة اليه ليست انانية ، لأنها من طبيعية حماية الانسان لجزء ضعيف من نفسه . وقد كان هناك نزاع منذ اقدم العصور بين حب السلطة الابوية والرغبة في صالح الطفل . وفي حين ان السلطة على الطفل تمليها بعض الشيء طبيعة الاشياء ، الا انه من المرغوب فيه ان يتعلم بأسرع ما يمكن ان يكون مستقلا في عدة سبل بقدر الامكان ، وذلك

غير مستحب لدى دافع السلطة عند الوالد . وبعض الوالدين لا يشعرون ابدا بهذا الصدام ، ويظلون متحجرين الى ان يتمرد عليهم الطفل. وترى فريق آخر منهم يشعرون به ، وعندئذ يجدون انفسهم فريسة صدام عاطفي . ويفقدهم هذا الصدام سعادتهم الابوية . فبعد كل العطف الذي قدموه للطفل ها هو ينقلب الى غير ما كانوا يأملونه منه . كانوا يريدون له أن يكون جنديا فاذا به مسالما أو مثل تولستوي ، أرادوه مسالما فاذا به من انصار الحرب والعنف . على ان الصعوبة ليست في هذه الاحوال فحسب ، فان انت أطعمت طفلا قادرا على اطعام نفسه فأنك تضع حب السلطة على خير الطفل ، مع انه قد يبدو لك انك تحنو عليه وتوفر عليه التعب . وان جعلته شديد التنبه للمخاطر اكثر مما ينبغي ، فقد تكون مدفوعا بالرغبة لتتركه معتمدا عليك . وان منحته عاطفة جياشة تتوقع استجابة لها ، فلعلك تحاول استمالته نحوك من خلال انفعالاته . وسيقود الميل التملكي الجارف لدى الوالدين بالف طريقة ، كبيرة او صغيرة ، بعيدا عن سوء السبيل ، ما لم يكونا حذرين جدا ، أو من ذوي القلوب الطاهرة . والاباء المحدثون الفطنون لهذه الاخطار يفقدون احيانا الثقة في ادارة اطفالهم وتدبير تربيتهم ، وبذلك يكونون اقل نفعا لهم مما لو سمحوا لانفسهم بارتكاب بعض الاخطاء ، لأنه ما من شيء يسبب القلق الكبير في نفس الطفل ، مثل التردد وفقدان الثقة بالنفس لدى البالغ . فالافضل من الحذر اذن ان تكون نقي القلب ، والوالد الذي يرغب في سعادة طفله اكثر من سلطته أو سلطتها على الطفل سوف لن يحتاج الى كتب التحليل النفسي تقول له ماذا ينبغي عمله ، بل يهديه دافعه الخاص الى سواء السبيل . وفي هذه الحالة ستكون علاقات الوالد والطفل منسجمة من البداية الى النهاية ، لا تسبب أي عصيان في الطفل ، ولا تثير لدى الوالد شعور الغضب . لكن هذا يتطلب من الوالد منذ البداية أحتراما لشخصية الطفل ، وهذا الاحترام ليس مسألة مبدأ فقط ، سواء أكان هذا المبدأ خلقيا أو ذهنيا ـ بل هو شيء يشعر به شعورا عميقا مع أسمى الاعتقاد

الروحي ، بحيث يبدو التملك اوالضغط مستحيلين تماما . وهذا الاتجاه ليس مرغوبا فيه بالطبع تجاه الاطفال فقط : بل انه ضروري جدا في الزواج ، وفي الصداقة ايضا ، وان كان في الصداقة اقل صعوبة . وينبغي في عالم صالح ان تسود العلاقات السياسية بين جماعات البشر ، وان كان هذا املا بعيد المنال . ولكنه الزم ما يكون فيما يتعلق بالاطفال ، لأنه لا حول لهم ولا قوة ، ولان صغر حجمهم وضعف قوتهم يدفعان النفوس المريضة الى احتقارهم .

ولكن اذا عدنا الى المشكلة التي يهتم بها هذا الكتاب . فالبهجة الكاملة للابوية في العالم الحديث لا يمكن التوصل اليها الا من يستطيعون ان يشعروا شعورا عميقا بهذا الاحترام الذي سبق وتحدثت عنه الان تجاه الاطفال . فالبنسبة لهم لن يوجد هذا الكبح المرهق لحب السلطة لديهم ، ولا حاجة بهم الى التخوف من خيبة الامل الحرة التي تراود الوالدين حين يتحرر ابنائهم منهم . والوالد الذي لديه هذه الصفة يتمتع بلذة الابوية اكثر من الوالد الطاغية في زمن السلطة الابوية ، لأن الحب النقي الطاهر بامكانه ان يمنح حبورا اكثر لطفا ونعومة ومقدرة على تحويل قاعدة الحياة اليومية العفنة الى ذهب صاف من الاجلال والرخاء ، كما انه اكثر من أي شعور يمكن ان يخالج المرء الذي لم يزل يكافح ويناضل للاحتفاظ بمكانته في هذا العالم المنزلق .

في حين انني اتخذ قيمة كبيرة للعطف الابوي ، فانه يترتب على الامهات ان يعملن بقدر طاقاتهن بأنفسهن من أجل اطفالهن . اما من حيث رعاية الام لاطفالها فاننا نجد افضل من يؤديها اليوم من تلقين دراسة خاصة في هذا الموضوع بصورةعلمية . ولا يتوقع من الام ان تعلم ابنها الحساب مهما كانت تحبه . أما فيما يتعلق في الحصول على المعلومات ودراسة الكتب ، فمن المتعارف عليه أن الاطفال بامكانهم الحصول عليها أفضل على يد المتخصصين مما تستطيعه لهم أم غير متخصصة ولا تملك المعرفة الكافية . واما انواع الرعاية الاخرى ، فالام اكثر قدرة عليها . وكلما تقدم الطفل في العمر تزداد الامور التي يفضل ان يتولاها اشخاص آخرون ، بحيث يتاح للأم توفير تعبها ومشقتها ، وتسليم الامور الى المتخصصين بها . واني اصر على الام التي

اتقنت مهارة ما ان تواصل لمصلحتها ومصلحة المجتمع ممارسة هذه المهارة على الرغم من متطلبات الامومة ، وفي ذلك لا اريد الاثقال على الام بكل انواع المهام في رعاية الطفل على حساب انشطتها المهنية . كما يفترض ان تكون حرة في ممارسة عملها بالرغم من الامومة . وقد لا تمكنها الاشهر الاخيرة من الحمل واثناء الرضاعة من العمل ، ولكن حين يبلغ الطفل التسعة أشهر من العمر يجب ان لا يشكل عقبات يصعب التغلب عليها بالنسبة لنشاط امه المهني . وحين يطلب المجتمع من الام تضحيات في سبيل اطفالها يجعلها بصورة غير عادية قديسة تطالبهم بافراط في الجزاء يعوضها عن تضحياتها ، وذلك تجاوز ليس من حقها . والام التي جرى العرف على وصفها بانكار الذات تكون في أغلب الاحوال أنانية تجاه اطفالها . ولأن الابوية عنصر هام في الحياة ، فمن الخطأ تركيز الحياة كلها فيها ، والا اصيب الوالد بالاحباط . ولذا من المستحسن لمصلحة الاطفال والام على السواء الا تقطع الامومة المرأة عن سائر اهتماماتها . فان كانت جديرة حقا في رعاية الاطفال ، واخذت من التعليم ما يؤهلها لهذاالتخصص ، فأني اطلب الا تقصر هذه الموهبة على ابنائها ، بل ان تمتهن العناية بالنسبة لمجموعة من الاطفال ، من بينهم اطفالها . كما ان على الامهات اللواتي يشعرن بالصعوبة وعدم المقدرة الكافيتين للعناية باطفالهن أن لا يتوانين في ترك هذه الرعاية لذوات الكفاءة من النساء في هذا المجال ، فليس هناك موهبة سماوية طبيعية تعلم المرأة أصلح ما تصنعه لرعاية اطفالها في عالمنا المعقد ، كما ان القلق والهم اذا تجاوزا حدا معينا صار اقناعا للتملك . وما اكثر الاطفال الذين دمروا نفسانيا بجهالة الام العاطفية تجاه أطفالهم ، ومع هذا يحب الاطفال أباءهم بقدر ما يحبون أمهاتهم . فالحب لا يتوقف على مقدار الرعاية ، ولا يزيد بالاكثار منها . واعتقد أن علاقة الأم بالطفل في المستقبل سوف تضعف أكثر فاكثر وستكون اشبه بالعلاقة الحالية بالاب ، ان اريد للمرأة التحرر من عبودية لا ضرورة لها ، واريد للاطفال ان يفيدوا من المعرفة العلمية التي تراكمت في ايامنا بشأن الدعاية الصحيحة لعقولهم واجسامهم في السنوات المبكرة من عمرهم .

الفصل الرابع عشر

العمل

سواء أكان وضع العمل من أسباب السعادة أم هو من أسباب التعاسة فان الأمر يعتبر مشكوكا فيه في هذه التسمية . ومن المؤكد ان هناك كثير من العمل الشاق هو بصورة متزايدة متعب ، والزيادة في العمل مرهقة جدا . واني اعتقد أنه اذا كان العمل ليس مفرط الكثرة فهو مهما قيل انه مملا ، افضل بكثير من البطالة . وتتفاوت في العمل درجات من كل نوع ، ترتقي الى أسمى مستويات البهجة والحبور ، وفقا لطبيعة العمل وطاقة العامل . وليس كل العمل الذي يقوم به الناس طريفا في حد ذاته ، ومع ذلك فله خصائص عظيمة . انه قبل اي شيء يملأ فراغ ساعات كثيرة من النهار ، من غير ان يحتاج الانسان ان يقرر ماذا يعمل اليوم ، ولو ترك الناس انفسهم احرارا في ملء وقتهم حسب اختيارهم لكانت حيرتهم كبيرة في اصطفاء شيء سار الى حد كاف لاغرائهم ببذل الجهد . وايا كان اختيارهم ، فالقلق يراودهم بانه كان في مقدورهم انتقاء شيء قد يكون افضل مما اختاروه فعلا . والقدرة على ملء الفراغ بذكاء هي آخر مبتكرات الحضارة ، وفي الوقت الحاضر هناك القليل جدا من الناس من توصلوا لهذا المستوى . بالاضافةالى ان عمليات الاختيار بحد ذاتها متعبة بل مرهقة اللهم من هم من ذوي البديهة غير العادية ، اما من عداهم فيسرهم جدا ان يقال لهم ماذا يصنعون في كل ساعة من اليوم ، شريطة ان لا تكون هذه الاوامر غير مقبولة جدا . ومعظم الاغنياء الكسالى يعانون سأما لا يمكن التعبير عنه كثمن لتحررهم من التعب . وقد يجدون احيانا تسلية في صيد الوحوش الكبيرة في افريقيا ، أو بالطيران حول العالم ، ولكن عدد هذه المثيرات محدود ولا سيما بعد

انقضاء مرحلة الشباب . وفي ذلك نجد الاغنياء الاذكياء يعملون بجهد وتعب وكأنهم فقراء ، في حين أن النساء الثريات يشغلن انفسهن في أغلب الاحيان في عدد لا يحصى من الاشياء التافهة .

العمل اذا مرغوب فيه أولا وقبل كل شيء مانع للملل . لأن الملل الـذي يستشعره المرء وهو يقوم بعمل ضروري وان كان غير شائق لا يقارن بالملل الذي يشعر به عندما لا يكون لديه ما يصنعه في ايامه المتوالية . ويقترن بهذه المزية من مزايا العمل انه يجعل العطلات ممتعة للغاية عندما يحين قطافها . وما لم يكن المرء مضطرا للعمل الشاق بصورة تضر بصحته ، فهو خليق ان يجد لذة متزايدة في وقت فراغه اكثر مما يمكن ان يجده الانسان المتعطل .

والفائدة الثانية لمعظم العمل المأجور ، ولبعض العمل غير المأجور انه يتيح فرص النجاح وتحقيق الطموح . وفي أغلب الاعمال يقاس النجاح بالدخل ، ولا مفر من هذا القياس ما دام المجتمع الرأسمالي قائما . ولـكن هذا المقياس ليس المقياس الطبيعي لافضل الاعمال . والرغبة التي يشعر بها البشر في زيادة دخلهم انما هي رغبة في النجاح بقدر ما هي رغبة في الكماليات الاضافية ووسائل الراحة التي يكفلها الدخل المرتفع . ومهما كان العمل هجينا الا انه يبدو محتملا ان كان وسيلة لبناء الشهرة ، سواء في رحاب العالم ، أو في محيط المرء الخاص ، واستمرار الهدف هو من أكبر المصادر الضرورية للسعـادة على المدى البعيد ، وهذا ما يوفره العمل لمعظم الناس . وفي هذا الشأن نجد المرأة المتفرغة للاعمال البيتية أقـل حظـا من الرجـل أو المرأة ذات العمـل خارج اسـوار البيت . فالزوجات ربات البيوت لا يتقاضين راتبا من عملهن ، وليس لديهن وسائـل لتحسين احوالهن ، وهذا شيء مسلم به في نظر الزوج ومفروغ من امره (الذي لا يرى عمليا اي شيء مما تصنعه)وقيمتها في نظره لا تقوم على اسـاس عملها المنزلي ، بل على اساس صفات اخرى . وبالطبـع هذا الـكلام ليس موجهـا لاولئك النساء الثريات اللواتي بامكانهن عمل بيوتهن جميلة وحدائقهن اجمـل بحيث يصبحن موضع حسد جاراتهن . ولكن مثل هؤلاء النساء قليلات العدد

نسبيا ، والعمل المنزلي لا يمكن أن يجلب لمعظم النساء اكتفاءاً كبيراً يعادل انواع العمل الاخرى للرجال والنساء المهنيات .

ومعظم الاعمال تقترن بقتل الوقت والتمكن من أيجاد بعض المخارج مهما كانت متواضعة للطموح ، وذلك كاف لجعل المرء وان كان عمله مملا ، أسعد حالا في المتوسط ممن لا عمل له اطلاقا . ولكن عندما يكون العمل شاقا ، فهو كفيل بحال من الرضا اسمى بكثير من مجرد الراحة من الملل . وفي مقدورنا تهيئة الاعمال التي لها بعض الطرافة ، وسأتناول في البدء الاعمال التي طرافتها حقيقية ، وانتهي بالاعمال الكفيلة باستيعاب جميع طاقات الرجل العظيم .

هناك عنصران أساسيان يجعلان العمل شائقا : أولهما استخدام المهارة وثانيهما البناء . ان كل انسان اكتسب مهارة غير عادية يستمتع بتجربتها او ممارستها لغاية ما تصبح امراً مألوفا ، أو الى ان يعجز عن تحسينها . هذه الارادة للنشاط تبتدىء في عهد الطفولة الباكرة، ، فالطفل الذي بامكانه الوقوف على رأسه يصبح متقاعسا في الوقوف على قدميه . وكثير جداً من الاعمال ما يتيح نفس البهجة التي تستمد من العاب المهارة . فعمل المحامي أو السياسي لا بد ان ينطوي على قدر كبير من نفس البهجة التي تستمد من لعب البريدج . والبهجة هنا ليست مقصورة فقط على تجربة المهارة ، بل فيها ايضا عنصر التفوق في الذكاء على الخصم الماهر . وحتى في حالة غياب العنصر التنافسي يكون القيام بالاعمال الصعبة مستحبا . والرجل الذي يستطيع أن يقوم بالعاب بهلوانية بطائرته يجد في ذلك بهجة عظيمة يقدم في سبيلها على المجازفة بحياته . واني اتصور الجراح القدير برغم الظروف المؤلمة التي يسير بها عمله ، يستمد البهجة والرضا من دقة جراحاته البارعة . ونفس هذا النوع من البهجة ، ولكن بصورة اقل حدة ، يمكن ان يستمد من اعمال اكثر تواضعا . لقد سمعت عن عمال سباكين يستمتعون بعملهم ، وان لم يتح لي فرصة طيبة للقاء احدهم . وكل عمل يحتاج لمهارة قد يكون مصدر بهجة ، شريطة ان تكون هناك المهارة المطلوبة سواء بالتنوع أو المقدرة في التحسن غير المحدود ، واذا اخل باحد هذين

الشرطين كف العمل عن الانصاف بالطرافة عندما يصل صاحبه الى المهارة القصوى فيه . ان الرجل الذي يعدو سباق الثلاثة أميال سيكف عن التمتع بالبهجة عندما يتعدى السن التي يستطيع فيها ضرب رقمه القياسي السابق . ولحسن الحظ انه توجد اعمال كثيرة جدا تطرأ عليها ظروف جديدة تحتاج الى مهارة جديدة ، بحيث يستمد المرء المثابرة في التحسن ، الى ان يبلغ اواسط العمر على الاقل . ففي بعض الانواع من الاعمال المهنية ، وعلى سبيل المثال السياسة ، يصل فيها الناس الى أوجهم ما بين الستين والسبعين ، والسبب في ذلك يكمن انه في مثل هذه المهن تكون الخبرة الواسعة ضرورية لها . ولهذا يكون الساسة الناجحين في السبعين أسعد من غيرهم من ابناء هذه السن . والمنافسون الوحيدون لهم في هذا الشأن هم رؤساء الاعمال الكبرى .

وهناك عنصر اخر من عناصر الاعمال المجيدة ، اهم من المهارة كمصدر للسعادة ، وهذا يكون في البناء . ففي بعض الاعمال يبنى شيء ما ويبقى كالنصب التذكاري . ويمكننا تميز البناء من الهدم بالتجربة التالية . ففي العمل يكون الوضع البديهي بالمقارنة صدفة ، في حين يظهر الوضع العام النهائي هدفا . أما الهدم فبعكس ذلك . فالوضع العام البديهي عند بدايته يجسد هدفا في حين يكون الوضع العام النهائي ممثلا للصدفة او الفوضى . والمقصود هنا من هذا المثال أن الدمار يخلق وضعا ليس ذا هدف معين . هذه التجربة تنطبق على أغلب القضايا الحقيقية الواضحة مثل بناء وهدم المباني . فعند انشاء البناء يوضع مخطط مسبق ينفذ على ضوئه ، في حين انه عند هدمه لا يعلم احدنا اين ستوضع المواد المهدومة . والهدم بطبيعة الحال ضروريا أحيانا لاقامة بناء جديد . وفي هذه الحالة يكون اشمل منه ، هو البناء . ولكن يغلب احيانا ان يقدم الانسان على هدم من غير ان يكون في ذهنه بناء شيء بعد ذلك ، حيث انه يخفي ذلك عن نفسه بدعوى انه انما يهدم ليعيد البناء بصورة افضل . ولكن بالامكان بصورة عامة اسقاط القناع عن هذا التظاهر ، وذلك بسؤ اله عما يعتزم ان يشيده بعد الهدم . ففي هذا الشأن ستجده يتكلم بعموميات وغموض

وبدون اهتمام ، في حين انه تحمس جدا للهدم ، وتكلم عنه بتحديد ورغبة . وينطبق هذا على عدد غير قليل من الثوريين والعسكريين وغيرهم من رسل العنف ودعاته . فهم مدفوعون ، من غير ان يدروا بالكراهية ، وتدمير كل ما يصادفونه ، وهم لا يبالون بالقياس الى هذا بما يحدث بعد ذلك . وليس بامكاني ان انكر ان في اعمال الهدم متعة كالتي في اعمال البناء . بل ان المتعة فيه ضارية . وربما كانت اشد توترا ، ولكنها ترضى مشاعر اقل عمقا من مشاعر البناء ، لان النتيجة لا تبعث على الرضا . فانت حين تقتل عدوك يموت وتكون مهمتك قد انتهت ، وسرعان ما تخبو اللذة التي جنيتها من انتصارك . اما العمل البناء فعلى العكس من ذلك ، يبهجك ان تراه قائما ، ولا يخلو الامر من امكان ادخال التحسينات عليه باستمرار . ان الاهداف الممتعة جدا هي تلك التي تفضي من نجاح الى نجاح آخر بدون ان تأتي الى نهاية تعيسة . وفي هذا الشأن ستجد من يجدون الرضاء في البناء رضاهم به اعظم من رضى محبي الهدم عن هدفهم .

وفي نفس الوقت لا يكاد يوجد شفاء للكراهية، اذا صارت عادة ، افضل من فرصة العمل في بناء من نوع معين .

أن الرضا المستمر من النجاح في عملية بناء كبيرة من اعظم ما يمكن ان تقدمه الحياة ، الا ان ذلك وبكل اسف لا يتاح في مستوياته العليا للناس الا من هم ذوي مقدرة استثنائية . وما من شيء يختلس سعادة الانسان في الانجاز الناجح في عمل هام ما لم يكن البرهان على ان عمله كان رديئا بعد كل شيء . وهناك عدة اوضاع لمثل هذا الارضاء . فالانسان الذي استطاع بنظام جديد في الري ان يجعل البراري المقفرة ورودا يستمتع بعمله هذا بشكل رضي . وانشاء منظمة ما قد يكون عملا ذا أهمية كبيرة ، وكذلك الحال في عمل اولئك الساسة من رجال الدولة الذين نذروا حياتهم لاقامة نظام معين ، ومنهم لينين وهو اسمى نموذج ليومنا هذا ، وكذلك الحال بالنسبة للفنانين ورجال العلم . ويقول شكسبير عن شعره : « ما دام الانسان يتنفس ، أو العيون ترى ،

فسيعيش هذا الكلام » . ومما لا شك فيه ان هذه الافكار كانت عزاء لهلسوء طالعه . ففي مقاطعه الشعرية توصل الى أن افـكار صديقـه اقنعتـه بالحياة . ولكنني لا استطيع غض الطرف عن الاشتباه في ان المقاطع الشعرية التي كتبها لصديقه كانت اكثر تأثيرا لهذا الهدف من الصديق نفسه . ان العمل الذي يقوم به كبار الفنانين ورجال العلم هو بحد ذاته مبهج ، ويكفل لهم وهم يقومون به احترام من يستحق احترامهم المحـرص عليه والسعـي اليه ، ويمنحهـم ذلك اعظم سلطان ممكن ، وهو سلطان الهيمنة على افكار الناس ومشاعرهم . وهم ايضا على كامل الحق اذ يحسنون الرأي في انفسهم . وهذا المزج من الظروف السعيدة ينبغي برأيي ان يكون كافيا لان يجعل الانسان سعيدا . ولكن الواقع ليس كذلك . وعلى سبيل المثال كان ميكل انجلو يعتبر نفسه عميق الشقاء ، وكان يرى(وليس في ذلك صادقا على ما اعتقد) أنه ما كان ليجشم نفسه عناء أنتاج أعماله الفنية لولا انه كان مضطرا لتسديد ديون اقربائه المفلسين . ولكن القدرة على ابداع الفن العظيم كثيرا جدا ما يصاحبها شقاء مزاجي عظيم جدا ، بحيث انه لولا البهجة التي يستمدها الفنان من عمله لكان خليقا ان ينتحر . ولذا ليس بامكاننا التاكد من ان اعظم الاعمال لا بد ان تجعل الانسان سعيدا ، ولكننا ندرك فقط انها تجعله أقل شقاء مما هو عليه . ومع ذلك فرجال العلم اقل تعرضا للتعاسة من الفنانين ، وجمهرتهم العظيمة في مجـال العلـم هم رجـالا سعداء ، وعملهم مصدر سعادتهم الرئيسي .

أن احدى أسباب تعاسة المفكرين في وقتنا الحاضر هو أن الكثيرين منهم ولا سيما اولئك الذين مهنتهم التأليف ، لا يجدون فرصـة للقيام بتجربـة مستقلـة لمواهبهم ، بل لا بد لهم من تأجير انفسهم لمؤسسـات كبـيرة يديرهـا ماديون يصرون ان ينتجوا ما يعتقد المثقفون انه لغو تافه . ولو سألـت الصـحفيين ، سواء في انكلترا او امريكا ، هل يؤمنون بسياسة الجريدة التي يعملون بها ، فستجد على ما اعتقد فئة قليلة تؤمن بذلك والباقي يعملون من أجل كسـب العيش وتأجير مهاراتهم لاهداف يؤمنون أنها ضارة . ومثل هذا العمل لا يمكن

ان يجلب أي رضاء حقيقي ، ولا بد للمرء وهو يروض نفسه على القبول والاستمرار في هذا الوضع أن يصبح ساخرا مستهينا بالقيم ، بحيث يعجز عن الرضا عن اي شيء . ولا يمكنني ادانة اناس من هذا النوع طالما ان التضور بالجوع بديلا عن ذلك يعد بمنتهى الخطورة ، ولكنني اعتقد انه حيث يكون بامكان المرء القيام بعمل يكون مقنعا لرغباته البناءة من غير أن يتضور جوعا بالفعل ، فمن الخير له ولمصلحة سعادته الخاصة ان يقوم به ويفضله على عمل اخر اعلى اجرا بكثير ولكنه لا يستحق ان يؤدي لذاته . فالسعادة الحقيقية نادرة بدون الاحترام الذاتي ، والانسان الذي يخجل من عمله ، من الصعوبة أن يتوصل للأحترام الذاتي .

أن الرضا المستمر من العمل البناء حيث يمكن ان تكون الاشياء محصورة بالاقلية ، يمكن ان تكون بصورة من الصور امتيازا لاقلية كبيرة . واي انسان سيد نفسه في عمله يمكن أن يشعر بهذا ، وكذلك كل انسان يشعر ان عمله مفيد ويتطلب مهارة كبيرة . وانجاب اطفال مرضيين عمل بناء شاق جدير بالهام أعمق الرضا . وأي امرأة توصلت لهذا تشعر أن العالم بفضل جهودها ، يحتوي على شيء ذي قيمة ، لولاها لما كان موجودا .

وتختلف المخلوقات البشرية كليا من حيث الميل الى النظر الى حياتها ككل . ففي رأي البعض ان هذا طبيعي وضروري للسعادة . وفي رأي الفريق الآخر ان الحياة سلسلة من الاحداث المنفصلة بدون حركة موجهة وبدون وحدة . واني اعتقد أن النوع السابق أكثر جدارة للتوصل الى السعادة من الفريق الآخر ، لانهم اقدر على بناء تدريجي للظروف التي يمكن ان يستمدوا منها الرضا واحترام الذات . اما الاخرون فوضعهم يشبه ورقة في مهب الريح ، فلا عجب ان لا يصلوا الى اي مقر . ان استعراض الحياة ككل جزء اساسي من الحكمة ومن الاخلاقيات الصادقة ، وهي من الاشياء التي ينبغي تشجيعها في التربية . والهدف الدائم لا يكون كافيا لجعل الحياة سعيدة ، ولكنه يكاد يكون لا غنى عنه للحياة السعيدة . والهدف الدائم يجسد نفسه اساسا في العمل

الفصل الخامس عشر
التوجيه اللاذاتي

ان ما ارغب بحثه في هذا الفصل ليس تلك الاهتمامات الرئيسية التي تبنى عليها حياة الانسان ، بل في تلك الاهتمامات البسيطة التي تملأ وقت فراغه وتمده بالراحة من أعباء مهنته وهمومه المجدية . واذا نظرنا في مجرى حياة متوسطي الناس وجدنا الزوجة والاولاد والعمل والوضع المادي تحتل القسم الأكبر من تفكير المرء الجدي وقلقه . وحتى اذا كانت له علاقات غرامية خارج اطار الزواج ، فهي لا تعنيه في ذاتها بقدر ما تعنيه من حيث تأثيرها على حياته البيتية . أما الاهتمامات المتعلقة بعمله فانني لا اعتبرها حاليا اهتمامات غير شخصية . فرجل العلم على سبيل المثال يجب ان يلاحق الصفوف الاولى من البحوث في مجاله . ومشاعره ونشاطه لمثل هذه البحوث متعلقان بشيء ما له علاقة مباشرة بحياته العملية ، ولكنه اذا قرأ عن بحث في عالم آخر تماما لا يعنيه مهنيا كانت قراءته بأسلوب مختلف تماما ، اي ليس مهنيا وأقل انتقادا واكثر نزاهة وحيادا . وهو يستخدم عقله لمتابعة ما في تلك البحوث ، ولكن تلك القراءة تكون مع الراحة ، لانها غير متعلقة بمسؤ ولياته . وان اعجب بالكتاب الذي يطالعه فان اهتمامه يكون غير شخصي بمعنى لا يمكن ان ينطبق على الكتب ذات الصلة بموضوعه . فالاهتمامات الخارجة عن نطاق فعاليات حياة الانسان الرئيسية هي التي أرغب التحدث عنها في فصلنا الحالي .

ان احدى عوامل التعاسة والتعب والتوتر العصبي هو عدم القدرة على الاهتمام بأي شيء ليس ذا أهمية في حياة المرء . ونتيجة لهذا فان العقل الواعي لا

يظفر باستراحة من جراء عدد معين من الامور ، قد ينطوي كل منها على قلق او عنصر للاضطراب . فالعقل الواعي لا يترك فارغا من العمل الا في وقت النوم ، بينما التفكير اللاشعوري تطغى حكمته تدريجيا وتنجم عن هذا سرعة التأثر والهياج ، وفقدان حاسة التطابق . وهذه كلها أسباب وتأثيرات للارهاق والتعب . فكلما ازداد تعب الانسان تلاشت اهتماماته الخارجية ، وعندما تتلاشى تفقده الراحة التي توفرها له هذه الاهتمامات ، ويزداد بذلك تعبه . وهذه الدائرة المفرغة جديرة ان تنتهي بالاهتمامات الخارجية لأنها لا تتطلب أي جهد . فاتخاذ القرارات وتجارب الارادة امران منهكان جدا ، ولا سيما اذا كان لا بد من العجلة فيهما وعدم الاستعانة باللاشعور . والناس الذين يشعرون انه يجب ان يناموا على هذا الموضوع او ذاك قبل التوصل الى قرار هام ، هم على صواب تماما . ولكن العمليات العقلية اللاشعورية لا تقوم بعملها اثناء النوم فحسب ، بل انها قادرة ايضا ان تعمل ، بينما العقل الادراكي مشغول في مكان آخر . والانسان الذي يستطيع تناسي عمله عندما ينتهي العمل ولا يتذكره الا عندما يبدأ العمل ثانية في اليوم التالي من المحتمل ان ينجز عمله افضل مما يقوم به من يركبه القلق بسبب عمله خلال ساعات انقطاعه . ومن السهل على المرء نسيان العمل في الساعات التي ينبغي نسيانه فيها اذا كانت لديه اهتمامات اخرى كثيرة . هذا اذا لم تكن له مثل هذه الاهتمامات غير الشخصية . ومن المهم جدا الا تنشط هذه الاهتمامات عن تلك الملكات التي ارهقها عمل يومه ، فلا تحتاج الى ارادة وقرارات سريعة . وينبغي الا تكون كالمغامرة تحتوي عنصر مادي ، كما ينبغي الا تكون مثيرة بحيث تسبب تعبا انفعاليا وتشغل اللاشعور مثلما تشغل الوعي .

وتتوفر مسليات كثيرة جدا في جميع هذه الحالات . فمشاهدة المباريات والذهاب الى المسرح ولعب الغولف ، وكافة الاشياء التي من هذا القبيل ، هي مسليات لا غبار عليها . والانسان المولع بالمطالعة تكفل له القراءة غير المتصلة بانشطته المهنية راحة مرضية جدا . ومهما تكن أهمية القلق فينبغي على اي حال الا تفكر فيه طيلة وقت اليقظة .

في هذا الصدد هناك فرق شاسع بين الرجال والنساء . فالرجال عموما يسهل عليهم نسيان عملهم اكثر من النساء . وهذا طبيعي بالنسبة للنساء اللواتي ينحصر عملهن في البيت . لانه لا يتاح لهن تغيير المكان الذي يتاح للرجل عندما يغادر مكتبه . ولكن اذا لم أكن مخطئا فان النساء اللواتي يعملن خارج البيت يختلفن عن الرجال في هذا الشأن لانهن يجدن من العسير عليهن الاهتمام بأي شيء ليست له اهمية عملية لديهن . فاهدافهن تطغى على افكارهن وانشطتهن ، ونادرا ما يهتممن في بعض الامور غير الهامة . ولست انكر بالطبع ان يكون هناك بعض الاستثناء لهذه القاعدة ، لكني أعني ما يظهر لي أنه القاعدة العادية . فمثلا اذا لم يكن في كلية البنات رجلا موجودا فالحديث هنا يدور حول التسوق في المساء ، في حين ان ذلك غير وارد في كلية الشباب . وهذا السلوك يظهر للنساء وكانه آية تمتعهن بمزيد من الادراك يرجحهن به الرجل ، ولكني لا اعتقد أن هذا على المدى البعيد سيحسن نوعية عملهن . واحسبه يسبب شيئا من قصر النظر يفضي بعض الاحيان الى نوع من التعصب .

أن جميع الاهتمامات اللاشخصية لها فوائد اخرى متنوعة فضلا عن أهميتها للاسترخاء . فهي تساعد المرء على الاحتفاظ بحاسة التناسب لديه ، ومن السهل جدا ان نستغرق وننهمك في عملنا واشغالنا ، وفي محيطنا ومهننا ، بحيث ننسى كم هو ضئيل هذا الجزء بالقياس الى النشاط البشري ، وكم من الاشياء في العالم لا تتأثر بما نقوم به . وربما تسأل : ولماذا يتوجب على الفرد تذكر هذا ؟ هناك العديد من الاجوبة لهذا التساؤ ل ، اولها انه من المستحسن أن تكون لدينا صورة اصدق عن العالم بصدد النشاطات الضرورية . فكل منا يعيش في هذا الكون وليس لديه الوقت الطويل جدا ، وفي السنوات القليلة من عمره عليه ان يعرف كل ما يمكنه معرفته عن هذا الكوكب الغريب وعن مكانه في الكون . ويكون تجاهلا لمجالاتنا في المعرفة على ما فيها من نقص اشبه بالذهاب الى المسرح ثم عدم الاصغاء للتمثيل . والعالم مليء بأمور محزنة

ومفرحة وبطولية أو سخيفة او مذهلة . واولئك الذين يفوتهم الاهتمام بالمشاهد التي تعرض ، يتخلون بذلك عن أحد الحقوق التي توفرها لهم الحياة .

ويبقى ثانيا ان حاسة التناسب قيمة جدا ، ومصدر تعزية كبيرة في بعض الاوقات . فكلنا تواقون الى الاثارة بافراط والتوتر المفرط باهمية الزاوية الصغيرة من العالم الذي نعيش فيه . وباللحظة الصغيرة التي تنقضي ما بين مولدنا ومماتنا . وليس في هذه المبالغات كلها شيء مرغوب فيه . ومن المحتمل ان تجعلنا نعمل أكثر ولكنها لن تجعلنا نعمل افضل . فالعمل القليل الموجه الى غاية حسنة افضل من العمل الكثير الموجه الى غاية سيئة ، وان كان رسل الحياة الشاقة يعتقدون خلاف ذلك . فالذين يهتمون كثيرا بعملهم معرضون دائما لخطر السقوط بالتعصب ، وهو اساسا عبارة عن تذكر امر او امرين مرغوب فيهما مع نسيان سائر الامور ، كذلك مع الافتراض بان اي ضرر ينجم عن طلب هذين الامرين لا اهمية له . وليس هناك علاج ضد هذا المزاج التعصبي افضل من المفهوم الكبير لحياة الانسان ومكانه في الكون . وقد يبدو امرا جسيما جدا اكبر من اثارته في هذا الصدد ، ولكنه بصرف النظر عن هذا الاستخدام المحدود ذو قيمة كبيرة في مدى ذاته .

ومن العيوب التي تؤخذ على التعليم العالي الحديث انه اصبح اقرب الى التدريب على اكتساب انواع معينة من المهارة ، مع التقليل كثيرا من توسيع العقل والقلب بالنظرة المجردة الى العالم . دعنا نفترض مثلا انك استغرقت في مباراة سياسية وعملت بنشاط لأنتصار حزبك ، والى هذا الحد هذا حسن ، ولكن من المحتمل أن يحدث في مجرى المنافسة ان تسنح فرصة للنصر الحزبي تنطوي على استخدام أساليب من شأنها زيادة الكراهية والعنف والريبة في العالم كله ، كأن تجد مثلا أن انجع طريق لنصر الحزب ان تشتم أمة أجنبية ، فان كان تفكيرك محدودا لجأت الى هذه الوسيلة . اما اذا اتسعت نظرتك فشملت المدى البعيد تنبهت الى ما يترتب على هذا المسلك المنحط من كوارث ، وهانت في نظرتك معركتك الحزبية ، بالقياس الى المصلحة العالمية حتى لا

تسبب نكسة للحضارة البشرية ، وسيغريك ذلك عن هزيمة حزبك ان اقتضى الامر ذلك . وستكون لك فيما وراء اهدافك المباشرة ، اهداف بعيدة . وانك في العمل لها لست فردا منفردا محصورا في حزب او امة ، بل جنديا مقداما في جيش ضخم هو جيش العاملين في جميع الازمات على التقدم بالبشرية نحو الوجود الحضاري . وهكذا توصلك هذه النظرة الرحيبة نوعا من السعادة العميقة لن تفارقك مهما كان قدرك الشخصي . وفي ذلك تبدو الحياة شركة تجمع بينك وبين كل العظماء في كل العصور ، ولا يكون الموت الشخصي اكثر من حادث لا يعتد به .

ولو توفرت لي السلطة لتنظيم التعليم العالي كما اتمنى ، لا عرت موضوع توجيه اذهان الشباب الى الوقائع المقطوع بها عناية كبيرة ، ليفطنوا الى الماضي ، ويدركوا ان مستقبل الانسان سيكون غالبا اطول من ماضيه بما لا يقاس ، وان كوكبنا ضئيل جدا . وأن الحياة في هذا الكون هي مجرد حادث مؤقت ، مع التركيز على تفاهة الفرد كفرد ، وفي الوقت نفسه اطلع الشباب على العظمة التي يمكن ان يسموا اليها الفرد بنظرته الواسعة وموضوعيته واهتماماته غير الذاتية . والعلم الذي يبحث أبعاد النجوم لا شيء يوازيه ، وقد كتب سبينوزا spinoza منذ وقت طويل عن عبودية وحرية البشر ، الا ان اسلوبه ولغته جعلت فكرته من الصعب أستيعابها من قبل الجميع ، باستثناء طلاب الفلسفة ، ولكن الجوهر الذي أود شرحه يختلف قليلا عما قاله .

ان الانسان الذي يدرك ولو مرة واحدة ما الذي يصنع عظمة الكون لن يكون سعيدا ان لم يسمح لنفسه بالحقارة والانانية والاكتراث بالنوازل التافهة او بما يخبئه له القدر . فالانسان القادر على العظمة الروحية يفتح نوافذ عقله ، ويدع الرياح تعصف بحرية من كل صوب في هذا الكون المترامي ، ويرى نفسه والحياة والعالم على الواقع باقصى ما تسمح به حدود ادراكنا ، مدركا قصة

× سبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧) ولد في امستردام . فيلسوف هولندي من اصل يهودي . عرف فلاسفة العرب واليهود ومؤلفات ديكارت . امتاز باستقامة اخلاقه . خط لنفسه خطة فلسفية شخصية غايتها ايجاد طريقة لنيل الحياة الابدية لكنها تؤدى الى الحلولية الفكرية . احتمل الاضطهاد من اجل آرائه . المترجم

الحياة البشرية وتفاهتها ، ومدركا ايضا ان العقل الفردي يتركز فيه اي شيء له قيمة في الكون المعروف . ويرى ان الانسان الذي يستعرض العالم بعقله يصبح على نحو ما في مثله عظمة العالم ، وبتخلصه من المخاوف التي أحاطت بالعبيد في تحررهم من مخاوفهم يحس صوراعميقا ، وخلال جميع تطورات الحياة الخارجية يظل هذا الانسان سعيدا في اعماق نفسه .

لنترك هذه الافكار الكبيرة ونعود الى موضوعنا المباشر ، اي قيمة الاهتمامات اللاذاتية ، فنجد أن هناك أعتبارا اخر يمنحنا عونا كبيرا على السعادة ، ولا تخلو حياة المحظوظين من اوقات تضطرب فيها الاحوال . فقليلون من الرجال ، عدا العزاب ، من يتشاحنوا مع نسائهم ، وقليلون جدا الاباء الذين لم يتحملوا قلقا خطيرا بسبب امراض اطفالهم . وقليلون هم رجال الاعمال الذين تجنبوا الضائقات المالية . وقليلون هم المهنيون الذين لم يواجهوا الفشل في بعض الاوقات . وفي مثل هذه الاحايين تصبح القدرة على الاهتمامات غير الذاتية نعمة جزيلة . فعندما لا يكون بيد المرء ما يمكنه عمله لمعالجة الموقف ، يكون انغماسه في مباراة للشطرنج مثلا ، او مطالعة القصص البوليسية ، او انشغاله في الفلك ، او في مطالعة شيء عن الحفريات في عهد شالدس chaldess كل هذه التصرفات تدل على الحكمة . بينما الشخص الذي لا يحول انتباهه عن مشكلته وهو عاجز عن حلها فهو غير حكيم ويجعل نفسه أقل ملاءمة لتحمل الاعباء ، عندما تحين ساعة العمل . وهناك اعتبارات مشابهة تنطبق على المآسي التي لا علاج لها كموت شخص ما عزيز جدا علينا ، وليس من فائدة يجنيها اي فرد اذا سمح لنفسه ان تنغمس في الاحزان في مثل هذه المناسبات. ان الحزن لا يمكن تجنبه وعلينا ان نحسب حسابه. ولكن الشيء الذي يتوجب علينا في ذلك هو ان نخفض وقعه . واني انكر بالطبع ان المرء يمكن ان يهده الحزن ويحطمه ، ولكني اقول ان على كل منكوب ان يعمل اقصى جهده للسلوى ،

× اصلها الجغرافية القديمة وهي الفريدة في جنوبي بابل - المترجم

بشرط الا يسلك الى ذلك سبلا ضارة ومنحطة كالسكر او تعاطي المخدرات . فهذه وسائل لتدمير التفكير يمر بها الشخص وقتيا . ان الاسلوب المناسب هو عدم تدمير التفكير ، بل تحويله الى اتجاهات جديدة بعيدة قدر الامكان عن النازلة التي حلت بك . وهذا امر مستحيل على من كان قد حصر نفسه في الاهتمامات الشخصية ، وها هي هذه الاهتمامات قد استوعبتها الاحزان . وفي ذلك يبدو ان اقدر الناس حتما على تحمل سوء الطالع حين يأتي فجأة ، من اخذ استعداده في تحصين نفسه باهتمامات كثيرة غير ذاتية في اوقات سعادته .

ان الانسان ذا الحيوية والاقبال الاستمتاعي بامكانه ان يتغلب على جميع المآسي بأستعراض كل ضربة ذات أهمية في الحياة والعالم الذي قد يضيق الى حدود تفقد الشخص حيويته . ان جميع عواطفنا تحت رحمة الموت الذي قد يصيب اولئك الذين نحبهم في أي لحظة . فمن الضروري اذن أن لا تكون حياتنا ضيقة الافق بحيث يكون كل معناها وهدفها تحت رحمة الاحداث .

لهذه الاسباب جميعا يكون الانسان الحكيم هو الذي يبغي السعادة مهما تكن له جملة اهتمامات جانبية ، بالاضافة الى الاهتمامات الرئيسية التي يقوم عليها بنيان حياته

الفصل السادس عشر
الجهـــد والإذعـــان

لا احبذ نظرية الوسط الذهبي ولا اتشوقها ، واذكر حين كنت حديث السن كيف رفضتها باستهجان واستنكار ، لانني كنت حينئذ لا اعجب الا بالبطولة المتطرفة . وليست الحقيقة هامة دائما ، فهناك اشياء عديدة يعتقد انها هامة ، مع العلم انها في الواقع ذات دلالة بسيطة ويشير اليها الوسط الذهبي . وقد تكون غير ذي اهمية ، لكنها حقيقية في الامور الكبيرة جدا .

ومن الضروري في شأن واحد المحافظة على الوسط الذهبي ، وذلك فيما يخص التوازن بين الجهد والاذعان . وان كلا النظريتين لهما انصار متطرفون . وقد بشر بالاذعان القديسون والمتصوفون . وبشر ببذل الجهد خبراء الكفاءة والمسيحيون العضليون . وكل مدرسة من هاتين لها نصيبها من الحقيقة وليس كل الحقيقة . واني بصدد اقامة التوازن بينهما في هذا الفصل ، وسأتناول في البدء موضوع الجهد .

ان السعادة ، اللهم الا في الاحوال النادرة جدا ، ليست شيئا يسقط في الفم مثل الفواكه الطازجة بفضل الظروف المواتية . ولهذا اطلقت على هذا الكتاب اسم الفوز بالسعادة . ففي عالم كعالمنا حافل بسوء الطالع الذي يمكن او لا يمكن تحاشيه ، وحافل بالمرض والجنون واضطرابه ، وحافل بالكفاح والفقر وسوء العزيمة . فان الرجل او المرأة الذي يريدان يكون سعيدا يجد السبق لمواجهة اسباب الشقاء الكثيرة تقيد كل شخص . وفي بعض الحالات النادرة لا يتطلب هذا جهد كبير . فالانسان المرح السهل الطبع الذي ورث ثروة كبيرة

ويتمتع بصحة طيبة وذوق سليمْ ، يمكنه ان يسير في الحياة بسهولة وراحة مستغربا باعلام هذه الضجة . والمرأة الجميلة الكسولة اذا حدث وتزوجت من رجل غني لا يطالبها بالكثير ، ولم تبال بعد الزواج ان نصحت ، قد تستمتع بحياتها المريحة السهلة ، شريطة ان تكون محظوظة في ابنائها . ولكن مثل هذه الحالات استثنائية . فأغلب الناس ليسوا اغنياء ، والعديد منهم لم يولدوا بطبع سهل دمث ، والكثيرون ايضا لهم اهواء عنيفة متعبة ، بحيث تسأمهم الحياة الزوجية المنتظمة . والصحة رحمة لا يمكن ان يضمن احد دوامها . والزواج ليس في كل الاحوال مصدر هناء . لهذه الاسباب لا بد ان تكون السعادة لاغلب الرجال والنساء انجازا ، اكثر مما هي منحة من الالهة . ويقوم الجهد بدور كبير جدا في كلا الشعورين الداخلي والخارجي وقد يتضمن الجهد الداخلي الجهد الضروري للاذعان ، ودعونا نتأمل الان الجهد الخارجي .

ان حاجة اي رجل او امرأة يعمل من اجل كسب معيشته اوضح جدا في هذا الشأن ، وليس من حاجة في ذلك الى دليل . قد يكون الفقير الهندي يكسب قوته بغير مجهود بمجرد مد يده لاستجداء الحسنات . ولكن السلطات في البلاد الغربية لا تنظر بعين الرضا لمثل هذا الاسلوب للحصول على الرزق . بالاضافة الى ذلك فان الطقس يجعل ذلك اقل لذة مما هو عليه في البلاد الحارة والجافة . ففي ايام الشتاء هناك القليل من الكسالى ممن يفضلون الذهاب خارج البيت عن العمل في غرف دافئة ، وهكذا فأن التقاعد في الغرب ليس وحده السبيل الى الثروة . وفي نسبة كبيرة من الاقطار الغربية لا يعد مجرد كسب القوت كافيا للسعادة ، لان الناس بحاجة الى الشعور بالنجاح من غير ان يكون لهم دخل كبير . وفي بعض المهن مثل البحث العلمي يمكن امتلاكنا مثل هذا الشعور لدى الناس الذين لا يحصلون على دخل كبير ، ولكن اصبح الدخل في اغلب المهن هو مقياس النجاح . وفي هذا الصدد نلمس مسألة لا بد فيها من عنصر الاذعان في اغلب الاحيان . لان النجاح في العالم التنافسي ليس ممكنا الا لقلة من الناس .

لقد امسى الزواج مسألة تحتاج او لا تحتاج الى جهد ، وذلك حسب الظروف . فحيث يكون احد الجنسين اقلية ، كما هو حال الرجال في انكلترا والنساء في استراليا ، يحتاج افراد هذا الجنس عادة ، الى جهد قليل كي يتزوجوا كما يشاءون ، ويكون الامر على عكس ذلك للذين يشكلون الاكثرية . ومقدار الجهد والتفكير الذي يعرف في هذا الاتجاه من قبل النساء ، عندما يشكلن الاكثرية ، واضح جلي لكل انسان يطلع على اعلانات الزواج في المجلات النسائية . واما الرجال الذين يشكلون الاكثرية فمن يدري ، لعل بذل الجهد عندهم يصل الى استخدام المسدسات ، فهذا امر طبيعي حيث ان الرجال يظهرون باستمرار على حدود خط المدينة . ولا اعلم ماذا سيفعل الرجال اذا حدث مرض خبيث يجعلهم يشكلون الاكثرية في انكلترا ، اذ من المحتمل انهم سيعودون الى الاساليب البطولية التي كانت سائدة في العصور الغابرة . ان مقدار الجهد المبذول في التنشئة الناجحة لدى الاطفال جلي واضح بحيث لا يمكن لاي شخص انكاره . والبلاد التي تؤمن بالاذعان ، وبما يسمى خطأ (بالنظرة الروحية) الى الحياة هي التي تكثر فيها نسبة وفيات الاطفال . فالطب والشروط الصحية والتغذية الملائمة ، امور لا يمكن انجازها بدون اهتمامات دنيوية ، لانها بحاجة الى طاقة ذكاء موجهة الى البيئة المادية . واولئك الذين يعتقدون بهذا الامر في أن المادة وهم ، من المحتمل ان يظنوا ان القذارة وهم ، وبتفكيرهم هذا يتسببون في موت اطفالهم .

ولنتناول الموضوع بعمومية اكثر ، فاننا نرى ان بعض انواع السلطة تشكل الهدف المشروع لكل من لم تصب رغباته بالضمور . ونوع السلطة التي يرغبها الشخص تعتمد على قوة ارادته . فهناك من يرغب السلطة على اعمال الناس ، وهناك من يتمنى السلطان على افكارهم ، وهناك من يتمنى السلطان على العواطف ، ومن يرغب في تغيير البيئة المحيطة به ، وآخر من يرغب في قوة العقل التي تأتي اليه من سيادة الذكاء . فكل نوع من العمل العام ينطوي على اشتهاء نوع معين من القوة ، الا اذا اريد منه مجرد الاثراء بواسطة الطرق

الملتوية ،والانسان الذي يكون متأثرا بالمعاناة الغيرية الخالصة بسبب مظاهر التعاسة البشرية ، يشتهي اذا كانت معاناته حقيقية ، القوة او السلطة لتخفيف هذه التعاسة . والشخص الذي لا يبالي كلية بالسلطة او القوة هو المرء غير المبالي كلية بزملائه في البشرية . ولذا علينا قبول ضرب من ضروب الرغبة في القوة باعتباره جزءاً من عناء الاشخاص الذين يتألف منهم المجتمع . وكل شكل من اشكال الاذعان او التسليم ، طالما انه ليس غريبا ، سيكون طريقا لتنسيق الجهد . وتظهر هذه النتائج لعقلية الغرب مألوفة ، ولكن هناك عدد ليس بالقليل في البلاد الغربية ممن يتغنون بما يسمى « بحكمة الشرق » وذلك في اللحظة التي تخلى عنها الشرق . وربما ظهر ما ذكر سابقا لهم قابلا للاستفسار . واذا كان الحال هكذا فسيكون من المثمر قوله .

ومهما يكن الاذعان فان له دوره ايضا ليلعبه بالنسبة للسعادة ، وهو دور لا يقل اهمية عن الدور الذي يلعبه الجهد . ومع ان الرجل الحكيم لا يجلس مستكينا لسوء طالعه ، الا انه لا يضيع وقته وانفعالاته في اشياء لا يمكن تجنبها ، بل انه يذعن ايضا لما يمكن التغلب عليه من النوازل ، اذا كان ذلك يقتضيه وقتا وجهدا يجب ان يخصصا لما هو أهم وأفضل . أن الكثير من الناس يقعون في البلبلة والارتباك لاتفه الاسباب التي تقع لهم ، ولذا فانهم يضيعون قدرا كبيرا من طاقتهم التي يمكن استخدامها لاكثر من فائدة . وحتى عند السعي في تعقب الأمور الهامة فليس من الحكمة ان تشغل نفسك كليا لغاية ان يهددك خوف الفشل ، راحة بالك ويكدر صفوك . وقد علمت التعاليم المسيحية التسليم لمشيئة الله ، وحتى اولئك الذين لا يتقبلون هذا الاعتقاد عليهم ان يكون عندهم نوع معين من الاعتقاد يهيمن على افكارهم . وان الكفاءة في المهمات العملية لا تتناسب مع الانفعال الذي ننفقه فيها . بل ان الانفعال عقبة بعض الاحيان في وجه الكفاءة . والأسلوب المطلوب هو ان يعمل الفرد أفضل جهده ، وان يترك مشيئة القدر جانبا . ان الاستسلام او الاذعان هو على نوعين . احدهما ناشىء عن اليأس والثاني عن الأمل الذي لا يقهر . النوع

الاول سيء ، اما النوع الثاني فهو جيد . والانسان الذي عانى فشلا اساسيا بحيث تخلى عن الأمل في انجاز جدي قد يتعلم الاذعان عن يأس ، واذا فعل ذلك فانه يهجر كل جهد جدي . وقد يغلق يأسه بالعبارات الدينية ، او بأنَ التأمل هو غاية الانسان الحقيقية ، ولكن ايا كان ما يتستر وراءه لاخفاء هزيمته الداخلية فسيبقى عديم الجدوى وتعيسا كليا . اما الانسان الذي يكون استسلامه مركزا على اساس الأمل الذي لا يقهر فيتصرف باسلوب آخر تماما . .

والامل الذي لا يقهر يجب ان يكون كبيرا وغير اناني . فقد يقهرني الموت أو المرض أو يهزمني الاعداء ، او اكتشف انني شرعت في مسار احمق لا يمكن ان يؤ دي للنجاح ، وان في آلاف الطرق التي يكون الفشل مصيبا كليا للامال الشخصية ، يكون من غير الممكن تجنبه . ولكن اذا كانت الاهداف الشخصية جزء من آمال اعرض للبشرية ، فلن يكون هناك تقهقر كلي عندما يحل الفشل . فرجل العلم الذي يتوق الى كشف النقاب عن اكتشافات عظيمة بنفسه قد يفشل في تحقيق ذلك ، او قد يضطر الى ترك عمله نتيجة لضربة رأس . اما اذا كان يرغب ضمنا في ازدهار العلم وليس لمجرد شهرته الشخصنية في هذا المضمار فانه سوف لا يشعر بنفس الفشل الذي يشعر به من يقوم بهذه الابحاث عن قصد اناني . والرجل الذي يعمل في اصلاح تمس الحاجة اليه قد يجد ان كل جهوده خرجت عن هدفها بالحرب ، وسيكون مضطرا لادراك ان الذي عمل من أجله سوف لا يعود ثانية في حياته . ولكن لا حاجة له لأن ينغمس في هاوية اليأس التام من اجل هذا الشأن طالما يكون مهتما في مستقبل البشرية غير بعيد عن مشاركته الشخصية فيها .

فالقضايا التي كنا نبحثها هي التي يكون الاذعان او التسليم فيها سهلا ، ولكن هناك عدد من سواها لا تميز فيها ، الا الاغراض الجانبية بنكسة . في حين ان القضايا الكبرى للحياة تظل تتيح املا في النجاح . وعلى سبيل المثال الرجل الذي يكون مشغولا في عمل هام يظهر فشلا في نوع التسليم المطلوب ان استطاعت تعاسته العائلية ان تشتت ذهنه . اما اذا كان عمله مستغرقا لاهتمامه

حقا ، فانه سوف ينظر الى مثل هذه المشاكل الطارئة لمصادر ازعاج وضيق من الغباء ان يقيم الدنيا ويقعدها بسببها .

وهناك بعض الناس غير قادرين على التحمل الصابر حتى لاتفه المتاعب ، التي يمكن ان تشكل جانبا كبيرا من الحياة اذا نحن سمحنا لها بمثل هذه الاعمال . فهم يثورون اذا لم يلتحقوا بالقطار ، ويشحنون بالغضب اذا لم يطبخ طعامهم جيدا ، وينغمسون باليأس اذا تصاعد الدخان من المدخنة ، ويقسمون بالانتقام من جميع اجراء الصناعيين اذا تأخرت ملابسهم بالعودة من المصبغة . والطاقة التي يبددها امثال هؤلاء الناس على الامور والمشاكل التافهة خليقة ان تكون كافية اذا وجهت بمزيد من الحكمة لاقامة امبراطوريات او اسقاطها . فالانسان العاقل لا يكترث للغبار الذي لم تنظفه الخادمة ، ولا الى البطاطا التي لم يطبخها الطاهي ، ولا الى القاذورات التي لم يكنسها الزبال . ولا أعني بذلك ان لا يقوم بأي جهد لمعالجة مثل هذه الامور ، بل اعني فقط انه يتعامل معها بدون انفعال او جهد يذكر . فالهم والاهتياج والقلق والضيق هي جهود لا تخدم اي هدف . واولئك الذين يشعرون بها شعورا شديدا يمكن وصفهم انهم لا يستطيعون التغلب عليها ، ولست متأكداً انه بالامكان التغلب عليها بأقل من التسليم او الاذعان الاساسي الذي سبق التكلم عنه . وهذا الضرب نفسه من الاهتمام على الامال غير الشخصية التي تمكن المرء من تحمل الفشل الشخصي في عمله ، او متاعب زواج غير موفق ، سيمكنه ايضا من الصبر ، فيما يفوته قطار او اذا سقطت منه مظلته في الوحل . فان كان من النوع القلق باستعداده ، فلست متأكداً اي شيء يمكن ان يشفيه منه الا الارادة .

ان الانسان الذي تحرر من امبراطورية القلق سيجد الحياة ابهج مما كانت عليه عندما كان جانقا باستمرار . والازمات التي كانت قبل ذلك تنغصه وتثيره من جانب معارفه حتى ليكاديصرخ ،خليق ان تكون مبعث تسلية . وحين كان السيد آ يروي قصة مطران تيراديلفيوغو Tierra del Fuego للمرة الثلاثمائة والسبعة والاربعين فانه كان يضحك نفسه بدون سبب . فاذا انقطع رباط

حذائه في الوقت الذي يكون به مسرعا للحاق بقطار الصباح الباكر خطر له ان تأثير هذا الحادث في تاريخ الكون ليس ذا أهمية كبرى . واذا قطع عليه عرضه الزوج على آنسة أو سيدة قدوم جار ممل للزيارة ، وقال لنفسه ان البشرية كلها كانت معرضة على الدوام لمثل هذه المصائب ، فيما عدا آدم ، لكنه غالبا لم يحل من متاعب اخرى لما يمكن ان يعمله المرء ، ولا حدود على سبيل العزاء عن النوازل الصغيرة في صورة هذه المقارنات الغريبة . وكل رجل متمدن أو أمرأة متمدنة يفترض لنفسه صورة يضايقه ان يشوهها احد ، وافضل علاج لهذا الا تكون للمرء صورة واحدة ، بل معرض من الصور ، وان يختار منها ما يوافق الحادث المقصود . ويحسن ان يكون بعض هذه الصور مضحكا ، فليس من الحكمة ان يرى المرء نفسه طيلة اليوم كبطل تراجيدي . وليس اقتراحي ان يرى نفسه دائما في صورة المهرج في الكوميديا ، بل ان يختار له دورا يناسب الموقف . والمطلوب في الاختيار ممثل ملائم للوضع له القليل من جهد نفسه . وبالطبع اذا كان باستطاعتك نسيان نفسك وان لا تلعب دورا بالمرة فهذا سيكون حسنا جدا . ولكن ، اذا كنت تلعب دورا فقد اصبح طبيعيا ان تلعبه ثانيا . افرض نفسك انك تمثل في مجموعة وهكذا يجب الاستمرار على نمط واحد .

ان العديد من الناس الحذقين يعتقدون ان ابسط ذرة من الاستسلام او اهون درجة من المرح يمكن ان تدمر الطاقة التي يؤدون بها عملهم . والاحرار الذين يعتقدون انهم حصلوا على النجاح ، هؤلاء الناس باعتقادي مخطئون . فالعمل الذي يستحق الجهد يمكن ان يقوم به من لا يخدعون انفسهم في اهميته او في السهولة التي يمكن اتمامه . اما من لا يمكن ان يؤدوا عملهم الا في اطار من خداع النفس فخير لهم ان يأخذوا مقررا دراسيا في تحمل الحقيقة قبل ان يتابعوا حياتهم العملية ، لأن احتياجهم الى مساندة الأكاذيب لهم ستجعل عملهم ضارا بدلا من ان يكون نافعا . فمن الأفضل ان لا تعمل شيئا بدلا من ان تعمل ضررا . ان نصف الاعمال النافعة في العالم عبارة عن مكافحة الأعمال الضارة . والوقت القليل الذي يصرف في تعلم كيف تقدر الحقائق لا يعتبر

وقتا ضائعا ، والعمل الذي سيؤدي بعد ذلك سيكون اقل ضررا من اولئك الذين هم بحاجة مستمرة الى النفخ بانانيتهم كعلاج لنشاطهم وهمتهم . وهناك نوع معين من التسليم مشمول في التشوق لمواجهة الحقائق ، وقد ينطوي هذا على ألم في اللحظات الاولى ، الا انه يمده في النهاية بحماية ، وهي الحماية الوحيدة الممكنة ضد الفشل والمظاهر الخادعة التي يتعرض لها من يخدع نفسه . والشيء المضني الذي يصبح على المدى البعيد اكثر اثارة من الجهد اليومي هو تصديق اشياء تغدو كل يوم غير قابلة للتصديق . والخلاص من هذا الجهد شرط لا غنى عنه للسعادة الأبدية .

الفصل السابع عشر

الإنسان السعيد

تعتمد السعادة كما هو معروف وشائع على الظروف الخارجية من جهة وعلى ذات الشخص من جهة اخرى . وقداهتمينا في هذا المجلد بالجانب الذي يعتمد على ذات المرء ، وتوصلنا الى القول بان صيغة تركيب السعادة في هذا المجال بسيطة جدا . وقد بحث بها من قبل العديد من الباحثين بمن فيهم السيد كراتش الذي سبق له وقال في فصل سابق ان السعادة مستحيلة بدون عقيدة ذات طابع ديني كثير او قليل . ويعتقد آخرون ممن هم انفسهم تعساء ان مآسيهم لها مصادر معقدة ذهنية او فكرية . واني لعلى يقين ان ما يظنونه اسباباً للشقاء ، انما هو في الواقع اعراض تعاسة . فالانسان التعيس يعتنق عقيدة تعسة ، اما السعيد فيعتنق عقيدة سعيدة . وقد ينسب كل منهما سعادته او شقاءه الى عقيدته ، بينما الدلائل الواضحة على عكس ذلك من حيث السبب والنتيجة . وهناك اشياء معينة لا غنى عنها لسعادة معظم الناس ، ولكنها أشياء بسيطة ، مثل الطعام والمسكن والصحة ، الحب والعمل الناجح واحترام الشخص لمجتمعه . والوالدية اساسية بالنسبة لبعض الناس ، وحيث تفتقد هذه الأمور يصعب الا على الشخص الاستثنائي التوصل الى السعادة . اما حيث يتيسر الاستمتاع بها ، او حيث يمكن الحصول عليها بجهد جيد التوجيه ، فالانسان الذي يظل تعيسا يعاني بعض النقص في التركيب النفساني ، مما يحتاج في حالاته الخطرة الى خدمات الطبيب النفساني . اما الحالات العادية فيمكن شفاؤه على يد المريض نفسه . شريطة ان يهتم بالأمر بالطريقة الصحيحة . وحيثما تكون الظروف الخارجية غير معاكسة بصورة حاسمة ، ينبغي ان يكون

المرء قادرا على تحقيق السعادة ، شريطة ان تكون انفعالاته واهتماماته موجهة الى الخارج لا الى الباطن . ومن المفروض ان تكون جهودنا اذا ، سواء في التربية او في ملائمة انفسنا مع العالم ، ان نهدف الى تجنب الاهواء المركزية الذات والى اكتساب الاهتمامات والعواطف التي تمنع افكارنا من التركيز باستمرار على ذواتنا . فليس من طبيعة معظم الناس ان يكونوا سعداء في السجن ، والانفعالات التي تحبسنا في ذواتنا من اقصى انواع السجون . ومن ضمن الانفعالات المألوفة جدا الخوف والحسد والشعوز بالأثم ، والرثاء للنفس والاعجاب بالنفس . وفي جميع هذه الأمور تكون رغباتنا متمركزة في انفسنا ، وليس هناك اهتمام حقيقي بالعالم الخارجي ، بل تخوف من أن يؤ ذينا هذا العالم الخارجي أو نتقاعس في اشباع ذاتنا . والخوف هو من الأسباب الرئيسية في عدم استعداد الناس طواعية للاقرار بالواقع ، وحرصهم على لف انفسهم في ثوب دافىء من الاوهام.بيد ان الاشواك تمزق الثوب الدافىء ، وتنفذ الينا اللفحات الباردة عبر السقوف . فنجد انفسنا نعاني منه اكثر ممن راض نفسه على الواقع منذ البداية . ثم ان من يخدعون انفسهم يعرفون تماما انهم يخدعون انفسهم ، ويعيشون في حالة من التوجس خشية ان يفرض حادث ما هذه الحقيقة البغيضة عليهم عنوة .

ومن معوقات الانفعالات المركزة في الذات انها لا تسمح الا باقل تنوع في الحياة . فالانسان الذي لا يحب الا نفسه لا يمكن حقا ان يوصف بالشهوانية في عواطفه ، ولكنه لا بد ان يصاب بغثيان شديد في النهاية من ثبات الموضوع الوحيد لتعلقه وتدلهه . كما ان الانسان الذي يعاني من الشعور بالذنب يعاني من نوع معين من حب الذات . فليس في الكون على سعته شيء يظهر له مهما اقصى اهمية سوى ان يكون شخصيا انسانا فاضلا عفيفا . ومن الاثار المحزنة في بعض اشكال التقاليد الدينية انها شجعت هذا النوع المعين من الاستغراق بالنفس .

ان الانسان السعيد هو ذاك الانسان الذي يعيش موضوعيا ، وهو ذو

عواطف حرة واهتمامات واسعة ، يضمن سعادته عن طريق هذه العواطف ، لأنها تكفل له ان يكون موضع حب واهتمام الكثيرين بالمثل . وتلقى العاطفة من الاخرين سبب قوي من أسباب السعادة ، ولكن الانسان الذي يطلب الحب ليس هو بالضرورة الشخص الذي يناله . بل ان الانسان الذي يتلقى الحب ، ولنتكلم بصورة اوسع ، هو الانسان الذي يمنحه . ولكن لا جدوى من محاولة صياغـة ذلك على شكل حسبـة ، على طريقـة الـدين بالربـا ، لأن العاطفـة المحسوبة ليست صادقة ولا يشعر بها مستلقيها .

فماذا بامكان الانسان التعيس ان يعمل اذا كان منغلقا على نفسه ؟ انه يظل متمركزاً في ذاته طالما هو مستمر في اسباب شقائه ، وفي ذلك يبقى منطويا على نفسه . فاذا كان يريد الخروج منها ، يجب ان يكون ذلك عن طريق اهتمامات حقيقية ، لا باهتمامات مموهةيتعاطاها كدواء . ومع ان هذه الصعوبة حقيقية ، الا انه يستطيع ان يعمل الكثير اذا كان قد احسن تشخيص مشاكله ، . فمثلا اذا كانت متاعبه فيها عائدة لشعوره بالاثم بادراك او بغير ادراك ، ففي وسعه ان يقنع عقله الواعي بانه لا سبب يدعـوه للشعـور بالاثـم ، وبعدهـا يتابـع في الأسلوب الذي بحثناه في الفصول السابقة في غرس هذه القناعة العقلانية في عقله اللاشعوري ، مرتبطا في الوقت ذاته بنشاط محايد . فان نجـح في أبعـاد الشعور بالأثم ، فمن المحتمل ان تبرز لديه موضـوعية تلقـائيا . واذا كانـت متاعبه محزنة داخليا بامكانه التصرف بها بنفس الأسلوب وذلك بعد أقناع نفسه أنه ليس هناك شيء خارق التعاسة في ظروفه . وان كان هناك خوف من متاعبه فعليه ممارسة تمارين معينة لتقوية الشجاعة . والشجاعة في الحروب كانت منذ اقدم العصور معـدودة من أهـم الفضائـل ، وجـزء كبـير من تدريب الأولاد والشبان مخصص لاكسابهم نمطـا من الطبـع يجعلهـم لا يعرفـون الخـوف في المعارك . ولكن الشجاعة المعنوية والشجاعة الفكرية لم تحظيا الا باهتمام اقل من هذا بكثير لدراستهما تقبل كل يوم حقيقة واحدة مؤلمة على الأقـل ورضى نفسك على الاقرار بها ، وسوف تجد انها مفيدة مثل عمل الكشاف اليومي .

علم نفسك الشعور بان الحياة تستحق العيش من أجلها ، فان التمارين من هذا النوع اذا امتدت لعدة سنوات ستمكنك في النهاية من الاعتراف بالحقائق بدون تقهقر . وفي عملك هذا ستحرر نفسك من عوامل الخوف في نطاق واسع جدا .

اما الشؤون الموضوعية التي تهدف اليها ، فسوف تظهر لديك عندما تغلب مرض خداع النفس . عليك ان تترك امورك وفقا لطبيعتك وللظروف الخارجية . لا تقل لنفسك مسبقاً « سأكون سعيداً اذا اهتميت في جمع الطوابع » وبناء عليه تسرع في جمعها ، لأنك من المحتمل الا تجد جمع الطوابع طريقا موجبا للاهتمام . فليس يعنيك الا ما يمكن ان يثير اهتمامك حقا ، ولكن يمكنك التأكد بان الأهداف التي تهمك ستنمو بمجرد ان تتعلم الا تنغمس بالكلية في ذاتك .

ان الحياة السعيدة الى حد بعيد جدا هي الحياة الجيدة . وقد عمل الاخلاقيون المحترفون الكثير من أجل أنكار الذات ، وبذلك ركزوا على المكان غير المناسب . فادراك انكار الذات الواعي المتعمد يترك الانسان متيقظا ومستغرقا فيما ضحى من أجله ، وبذلك يفوت انكار الذات تحقيق هدفه المباشر . فالمطلوب ليس أنكار الذات ولكن ذاك النوع من توجيه الأهتمام الى الخارج الذي يقودك تلقائياً الى نفس الأعمال التي لا يستوعبها طالب الفضيلة الا بانكار الذات الواعي . لقد كتبت هذا الكتاب باعتباري من القائلين باللذة ، اي من يعدون السعادة هي الخير ، بيد أن الأفعال التي يزكيها القائل باللذة هي التي يزكيها الاخلاقي العاقل . والغالب ان الاخلاقي يركز على الفعل لا على الحالة النفسية ، مع ان تأثير الفعل على الفاعل يختلف كثيرا تبعاً لحالته النفسية في حينها . فاذا رأيت طفلا يشرف على الغرق وأنقذته بدافع مباشر للعون ، فلن يضرك هذا خلقيا . اما اذا قلت لنفسك من جهة ثانية « ان مساعدة المساكين جزء من الفضيلة ، واني ارغب أن أكون فاضلاً لذا لا بد ان انقذ هذا الطفل » ففي هذا ستكون أسوأ مما كنت من قبل . وما ينطبق على هذه الحادثة الهامة

ينطبق على الحوادث العديدة الأخرى الأقل بداهة منها .

هناك فرق آخر نوعا ما أقل أهمية بين الاتجاه الـذي أوصيت به وبـين ما أوصى به الاخلاقي التقليدي . فهو مثلا يقول ان الحب يجب الا يكون أنانيا . وهو على صواب بمعنى ما ، ومثال ذلك أن لا يكون أنانيا لحد كبير ، ولكنه لا بد ان يكون بحيث ترتبط به سعادة المرء . فلو كان هناك رجل يدعو سيدة للزواج منه برغبة اسعادها ، وفي الوقت نفسه يعدها فرصة مواتية لأنكار ذاته ، لما سرت السيدة بموقفه هذا تمام السرور . فلا شك اننا ينبغي ان نرغب في سعادة اولئك الذين نحبهم ، ولكن لن يكون هذا بديلا لسعادتنـا . وفي الحقيقـة أن جميع المتناقضات ما بين النفس وسائر العالم ، والتي هي مشحونة في فصول نكران الذات ، تختفي بمجرد اهتمامنا اهتماما حقيقيا في اشخاص واشياء خارج ذواتنا . ومن خلال مثل هذه الشؤ ون يشعر المرء بنفسه جزءاً من جدول الحياة ، وليس جزءا جامدا منفصلا مثل كرةالبليارد،لا علاقة لها مع سواها مع الاشياءسوى الدحل. والتعاسة كلها تعتمد على نوع معين من التفريق أو نقص في الشمول، فيكون هناك تفاضل في الذات لافتقارها الى التناسق في الشعور واللاشعور ، ويغيب التكامل بين الذات والمجتمـع عندمـا لا يتلاحمـان بفعـل الاهتمامـات والعواطف الموضوعية . فالانسان السعيد هو الانسان الذي لا يعاني من أي من هذين الفشلين في الوحدة ، وتكون شخصيته غير منقسمـة ضد ذاتهـا ، ولا ناقمة على العالم . ومثل هذا الانسان يشعر أنه مواطن الكون ، يتمتع بحرية المنظر الذي يراه ، وبالمسرات التـي يقدمهـا . غـير حافـل بالتفـكير في فكرة الموت ، لأنه لا يشعر أنه منفصل عن اولئك الذين سيأتون بعده . وفي مثل هذا الاتحاد الغريزي مع جدول الحياة توجد اعظم المباهج والمسرات .

ثبت بالمصطلحات الرئيسية المستعملة في الكتاب

عاطفة	Affection
تصوف	Ascetic
ملل	Boredom
منافسة	Competition
وعي	Consciousness
استخفاف	Cynicism
جهد	Effort
انفعال	Emotion
حسد	Envy
اثارة	Excitement
تعب	Fatigue
قدرة	Faculty
خوف	Fear
عادة	Habit
سعادة	Happy
قطيع	Herd
عداء	Hostitity
الدوني	Inferior
اللاذاتي	Impersonal
اللاعقلانية	Irrationality
اللاعقلي	Irrational
الفطرة ، الغريزة	Instincts
جنون ، اختبال	Insanity
تثقيف	Instruction
غريزي	Instinctive
توجه	interests
مختل العقل	Lunatic
تواضع	Modesty
هوس	Mania
عقليا	Mentally
تكامل عقلي	Mental integration
جدارة ، ثواب	Merit
الشقاء	Misery
خلقي	Moral
فضيلة خلقية	Morality
الغربي	Occidental
انفعال	Passion
اضطهاد	Persecution

Pure	طاهر
Rationality	عقلانية
Rational man	رجل عاقل
Reformer	مصلح
Repression	كبت
Resignation	اذعان
Sadistic	السادية
Satisfaction	الرضاء
Sense	شعور
Sef- deception	خداع النفس
Self- esteem	اعتبار الذات
Sin	إثم
Social Hierarchy	سلم اجتماعي
Social system	نظام اجتماعي
Social persecution	اضطهاد اجتماعي
Sophisticate	السوفسطائي
Superstitious morality	الاخلاق الخرافية
timidity	جبن
Unhappy	تعاسة ، شقاء
Virtuous	فاضل
Zest	لذة

الفهرس

للمترجم

١- ترجمة

١ - اللصوص	تأليف فريدريك شيللر دار مكتبة الحياة - بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٩	١٩٦٢
٢ - زواج الحب	تأليف ماري ستوبس مكتبة المعارف - بيروت الطبعة الخامسة ١٩٧٤	١٩٦٣
٣ - هيلين	تأليف فيكي باوم مؤسسة النوري - دمشق	١٩٦٣
٤ - في التربية	تأليف برتراند رسل دار مكتبة الحياة - بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٩	١٩٦٤
٥ - الممارسة والنظرية البلشفية	تأليف برتراند رسل دار الانوار - بيروت نفذت الطبعة	١٩٦٥
٦ - مشاكل نمو الاطفال	تأليف ايمانويل ميلر دار الانوار - بيروت	١٩٦٦
٧ - التربية والنظام الاجتماعي	تأليف برتراند رسل دار مكتبة الحياة - بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٨	١٩٦٦
٨ - الصراع على سورية	تأليف باتريك سيل دار الانوار - بيروت نفذت الطبعة	١٩٦٨
٩ - هل للانسان مستقبل	تأليف برتراند رسل دار دمشق للنشر - دمشق	١٩٦٩
١٠ - اخلاقهم واخلاقنا	تأليف ليون تروتسكي - جون ديوي دار دمشق للنشر - دمشق - جورج نوفاك	١٩٦٩
١١ - علم النفس الديني	تأليف سرل برت دار دمشق للنشر - دمشق	١٩٧٨
١٢ - مثل عليا سياسية	دار دمشق للنشر	١٩٨٠
١٣ - معنى التحليل النفسي	تأليف ارنست جونز دار مكتبة الحياة - بيروت	١٩٨٠
١٤ - الفوز بالسعادة	تأليف برتراند رسل دار مكتبة الحياة	١٩٨٠

٢- تأليف

١ - العلاقات المشتركة بين الرجل والمرأة	مكتبة المعارف - بيروت	١٩٧١
٢ - دراسة في البيروقراطية السورية	دار دمشق للنشر - دمشق	١٩٧٢